"كتاب ذكي ومرح وتسهل قراءته.."

مارجريت آتوود

كاترين ماركيل

من قام بطهي عشاء آدم سميث؟

قصة عن النساء والاقتصاد

ترجمة: شرين عبد الوهاب & أمل رواش





من قام بطهي عشاء آدم سميث؟

كاترين ماركيل

شيرين عبد الوهاب/ حاصلة على بكالوريوس العلوم السياسية من جامعة أوسلو وعملت منسق للمشروعات الثقافية بين النرويج ومصر لعدة سنوات. تعمل بالترجمة مع العديد من المؤسسات. صدر لها تراجم لروايات ومسرحيات وأدب طفل. وتعمل حاليا في مشروع إعادة ترجمة أعمال هنريك إبسن عن اللغة النرويجية بالتعاون مع معهد إبسن للدراسات بجامعة أوسلو.

أمل رواش/ حاصلة على ليسانس كلية الألسن في الأدب اللإنجليزي عام 1986 وتعمل في تأليف وترجمة الكتب منذ عام 1990. صدر لها أكثر من خمسين كتابا في التاريخ واللغويات والتربية وعلم النفس وأدب الطفل. وتعمل حاليا في مشروع إعادة ترجمة أعمال هنريك إبسن عن اللغة النرويجية بالتعاون مع معهد إبسن للدراسات بجامعة أوسلو.

من قام بطهي عشاء آدم سميث؟
طبعة 2021
رقم الإيداع: 2021/17613
الترقيم الدولي: 978-977-821-216-7

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

This is a full translation of the book Det enda könet (WHO COOKED ADAM SMITH'S DINNER?) © Katrine Marçal, first published by Albert Bonniers Förlag, Sweden, in 2012 and the Arabic text Published by agreement with the Kontext Agency.

"The cost of this translation was defrayed by a subsidy from the Swedish Arts Council, gratefully acknowledged".



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

كاترين ماركيل

من قام بطهي عشاء آدم سميث؟

قصة عن النساء والاقتصاد

ترجمة

شيرين عبد الوهاب & أمل رواش



بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

ماركيل، كاترين، ١٩٨٣ - ....

من قام بطهي عشاء آدم سميث؟: قصة عن النساء والاقتصاد/ كاترين ماركيل، ترجمة: شيرين عبد الوهاب & أمل رواش

الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢١

٢٣٦ ص، ٢٠ سم

تدمك ٧-٢١٦-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨

١- المرأة في الاقتصاد

٢- الاقتصاد،

أ- رواش، أمل (مترجم مشارك)

ب- العنوان ٣٣٠,٠٤

رقم الإيداع: ١٧٦١٣ / ٢٠٢١

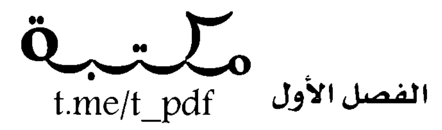
المحتويــات

لماذا يغريك الرجل الاقتصادي وكيف يدمر حياتك والاقتصاد العالمي؟

ألبرت بونييه

«إن علم الاقتصاد يتعلق بالمال ولذلك نعتبره شيئًا جيدًا».

وودي آلان



الفصل الأول

وفيه نخطو إلى عالم الاقتصاد ونسأل أنفسنا من كانت والدة آدم سميث Adam Smith[1]؟

1- عالم اقتصاد اسكتلندي. (1923 1790) ويعد أبا علم الاقتصاد الحديث. كما لا يزال يعد من أكثر المفكرين الاقتصاديين تأثيرًا في اقتصاديات اليوم. يعرف بنظرية اقتصادية تحمل اسمه. تقوم هذه النظرية على اعتبار أن لكل أمة أو شعب القدرة على إنتاج سلعة أو مادة خام بكلفة أقل بكثير من باقي الدول الأخرى. فإذا ما تبادلت الدول هذه السلع عم الرخاء بين الجميع. تقوم اتفاقية التجارة العالمية على كسر الحواجز أمام انتقال السلع لكي تعم العالم. لكن انتقال هذه السلع بتفاوت من حيث الإنتاج والاستهلاك بين دولة وأخرى وبالتالي هناك دول مستفيدة اقتصاديًّا أكثر بكثير من غيرها. وقد عرف سميث ثروة أمة من الأمم لا بأنها مقدار الذهب أو الفضة الذي تمتلكه. بل الأرض وغلاتها. والشعب وجهده وخدماته ومهاراته وسلعه. وكانت نظريته أن أكبر الثروات المادية تكون نتيجة لأكبر الحريات الاقتصادية. وهذا مع بعض الاستثناءات. وحب المنفعة الخاصة أمر عام بين جميع الناس. ولكننا لو سمحنا لهذا الدافع القوي بالعمل بأقصى حرية اقتصادية لحفز من النشاط والجرأة والمنافسة ما يثمر من الثروات أكثر من أي نظام آخر عرفه التاريخ. (وهذه الفكرة هي فحوى قصة مندفيل الخرافية على النحل. في شرح تفصيلي) وقد آمن سميث بأن قوانين السوق -خصوصًا قانون العرض والطلب- ستنسق بين حرية المنتج ومصلحة المستهلك: ذلك أنه لو حقق المنتج أرباحًا باهظة لدخل غيره الميدان نفسه. ولأبقى التنافس المتبادل بينهما الأسعار والأرباح في نطاق حدود معقولة. ثم إن المستهلك سيتمتع بضرب من الديمقراطية الاقتصادية. ذلك أنه بالشراء أو برفض الشراء سيقرر إلى حد كبير أي السلع تنتج. وأي الخدمات تقدم وبأي مقدار وثمن. بدلًا من أن تملي الحكومة كل هذه الأمور. وأهم مؤلفاته: بحث في طبيعة ثروة الأمم. العمل والتجارة. التجارة الحرة. المجتمع والمنفعة الفردية. تقسيم العمل. والنظام البسيط للحرية الطبيعية.

كيف تحصل على عشائك؟ هذا هو السؤال المحوري الذي يطرحه علم الاقتصاد. وقد يبدو السؤال بسيطًا إلا أنه معقد في حد ذاته.

إن أكثرنا ينتج نسبة بسيطة من الأشياء التي يستهلكها كل يوم ويقوم بشراء الباقي، مثل الخبز الموضوع على الأرفف في المتاجر، والكهرباء التي تمر عبر الأسلاك عند تشغيل المصباح، ومع ذلك فإن الحصول على رغيفين من الخبز وكيلوواط واحد من الكهرباء يتطلب تنسيق نشاطات آلاف من الناس حول العالم.

ومن هؤلاء الناس الفلاح الذي يزرع القمح الذي يباع بدوره إلى المخابز، والشركة التي تبيع الحقائب التي يعبأ فيها الخبز، والمخابز التي تبيع للمتاجر الكبرى التي تبيع لك الخبز. كل هذا لا بد أن يتم حتى يكون الخبز متوفرًا على الرف صباح كل يوم ثلاثاء، ثم لا بد أن يكون هناك من يبيع الأدوات للفلاحين، ومن ينقل المواد الغذائية إلى المتجر، ومن يقوم بعمل صيانة للسيارات، ومن ينظف المتاجر الكبرى ويخرج البضائع من صناديقها.

ويجب أن تتم هذه العملية من جميع نواحيها في الوقت المحدد، وبالترتيب المناسب وبالطريقة الصحيحة وبشكل كافٍ حتى لا تكون أرفف المتاجر خاوية.

وهذا لا يتم من أجل رغيف خبز فقط، ولكن أيضًا من أجل كل كتاب، وكل دمية «باربي»، وكل قنبلة، وكل بالونة وأي شيء آخر يمكننا التفكير في شرائه أو بيعه.

إن علوم الاقتصاد الحديثة تتسم بالتعقيد. ومن ثم يتساءل الاقتصاديون: ما الذي يبقي كل هذه النشاطات في حالة من التماسك والاتساق؟

وقد وصف علم الاقتصاد بأنه علم كيفية الحفاظ على الحب. والفكرة المحورية هي أن: الحب نادر. فإذا كان من الصعب أن تحب ربك من صميم قلبك فناهيك عن جار جارك. ولذلك ينبغي علينا الحفاظ على هذا الحب ولا نستهلكه دون داعٍ. إذا قمنا باستهلاك الحب في إدارة مجتمعنا، فلن يبقى منه شيء لحياتنا الخاصة. من الصعب العثور على الحب، والأصعب هو الحفاظ عليه. لهذا السبب فكر الاقتصاديون أننا في حاجة إلى تنظيم المجتمع حول شيء آخر بخلاف الحب.

فلماذا لا تستخدم المنفعة الخاصة إذًا بدلًا من الحب؟ ويبدو أن المنفعة الخاصة تتحقق في تلك المقايضة.

وفي عام 1776 كتب آدم سميث، أبو علم الاقتصاد، الكلمات التي كونت فهمنا الحديث للاقتصاد:

«نحن نحصل على غذائنا من الجزار، ومن صانع الجعة والخباز

وكذلك الضروريات الأخرى ومنها الشمعدان مثلا، إلا أن هؤلاء لا يفعلون ذلك من منطلق حبهم لنا ولكن من أجل خدمة منافعهم الخاصة من خلال هذه المقايضة».[2]

وتتمثل فكرة سميث في أن الجزار يهتم بعمله ليس لأنه طيبًا بل لأنه يريد أن يرضي العملاء وبالتالي يكسب مالًا. فالخباز لا يصنع الخبز والعامل لا يصنع الجعة أو الشمعدان لأنهم يريدون أن يسعدوا الناس إنما لأنهم يريدون تحقيق أرباح. وإذا صنعوا كل من الخبز والجعة والشمعدان بشكل جيد فسوف يقبل الناس على شرائهم. هذا هو السبب الذي يجعل الخبازين وصناع الجعة والشمعدان ينتجون سلعهم، ليس لأنهم يهتمون حقيقة بأن يحصل الناس على خبز طيب وجعة طيبة المذاق وشمعدان جيد الصنع، فهذا ليس قوتهم الدافعة إنما القوة الدافعة هي منفعتهم الخاصة فقط لا غير.

إنهم يستطيعون الاعتماد على المنفعة الخاصة لأن المنافع الخاصة لا تنضب.

أما الحب، فهو نادر لا يتوفر منه ما يكفي للمجتمع ولكن من المهم أن تبقي على جرعة منه من أجل حياتك الخاصة وإلا سوف تسوء الحال.

2- وفي سياق آخر قال: «ليس إحسانًا من الجزار أو بائع الجعة أو الخباز نتوقع أن نحصل على عشائنا، بقدر ما يرجع ذلك إلى نظرتهم إلى منفعتهم الخاصة. وعندما نطلب خدماتهم، فإننا لا نتوسل إلى إنسانيتهم بقدر ما نستحث منافعهم الخاصة. فلا أحد سوى الشحاذ يمكنه أن يعتمد في حياته على أفضال الآخرين».

«ما هو الشيء الذي يبلغ طوله 100 متر، ويتحرك بسرعة الحلزون ولا يعيش إلا على الكرنب فقط؟».

الإجابة هي : «طابور متجر الخبز في الاتحاد السوفيتي».

ونحن لا نريد أن تتردى أوضاعنا وتصبح مثل الاتحاد السوفيتي.

لقد حكى لنا آدم سميث قصة السوق الحرة، ولماذا كانت هي الطريقة المثلى لخلق اقتصاد فعال. وكانت أفكاره حول الحرية والاستقلالية تعد ثورية وراديكالية بعيدًا عن الالتزامات والواجبات واللوائح المنظمة. وحسبما يرى فعندما يسمح للسوق أن تكون سوقًا حرة، سيدور الاقتصاد مع المنفعة الخاصة كالساعة باعتبارها وقودًا لا ينضب. ومع عمل الجميع لتحقيق منافعهم الخاصة، سيتمكن الجميع من الحصول على السلع التي يحتاجون إليها.

إن الخبز متوفر على الأرفف، والكهرباء تمر عبر الأسلاك ومن ثم أنت تحصل على عشائك.

إن تحقيق المنفعة الخاصة للفرد تضمن تماسك واتساق الأنشطة ككل، دون أن يكون الفرد مضطرًا للتفكير في تماسك واتساق المجتمع ككل، وهي تعمل كالسحر. وقد أصبحت هذه واحدة من أكثر القصص شهرة في عصرنا.

وبالنسبة للبداية الأولى لعلم الاقتصاد، يبدو من الواضح أن

المنفعة الخاصة هي التي جعلت العالم يتحول ويغير اتجاهه وتوجهه.

وقد كتب الاقتصاديون في نهاية القرن التاسع عشر أن «المبدأ الأول في علم الاقتصاد هو أن كل فرد يتصرف وفقًا لمنفعته الخاصة». وبني الاقتصاد الحديث على صوان المنفعة الخاصة، والمدهش أننا جميعًا نعجب بذلك.

لم يكن الاقتصاد يتعلق بالمال إنما بالطريقة التي ننظر بها إلى الرجل.

إن علم الاقتصاد هو تاريخ الأساليب التي نتصرف وفقًا لها في موقف معين من أجل تحقيق الأرباح المالية وما يستتبع ذلك من فرضيات.

وما زالت هذه هي نقطة الانطلاق للنظريات الاقتصادية المعيارية. وعندما نقول في الحياة اليومية بالعامية الدارجة: «فكر مثلما يفكر الرجل الاقتصادي». فما نعنيه بذلك هو: أن يفعل الناس ما يفعلونه لأنهم ينتفعون من ورائه. وتلك الصورة قد لا تكون هي الأكثر إغراء للبشر، إلا أنها الأكثر دقة. وقيل لنا، إذا كنت ترغب في أن تقوم بأي شيء، فلتقم به حسب متطلبات الواقع أيضًا.

وتمثل الأخلاق الطريقة التي نود أن يسير العالم وفقًا لها، أما

الاقتصاديون فهم من يخبروننا كيف يعمل العالم في الواقع، على الأقل هذا ما يقولونه عن أنفسهم.

ولسنا بحاجة لمعرفة المزيد. هذه هي الطريقة التي نعيش بها وبفضل هذه الطريقة يتماسك المجتمع كما لو كانت وراءه يد خفية. وهذه هي المفارقة الكبرى.

وكما نعلم جميعًا، فإن الله يكلمنا دائمًا بلغة تحمل مفارقات.

وعبارة «اليد الخفية osynliga handen»[3] هي الأكثر شهرة في علم الاقتصاد. وآدم سميث هو من صاغ هذا المصطلح، وقام الاقتصاديون الذين جاؤوا من بعده باستخدامه على نطاق أوسع. إن اليد الخفية تلمس كل شيء، وتوجه كل شيء، وتوجد في كل شيء، وتقرر كل شيء، ولكن ليس بوسعك أن تراها أو تشعر بها. إنها تتدخل في كل شيء قلبًا وقالبًا، إنما تلمس كل شيء وتحركه وتتبدى كذلك في أفعال وخيارات الأفراد وفيما بينهم. إنها اليد التي تدير النظام من الداخل. وهذا المفهوم كان أكثر أهمية بالنسبة للاقتصاديين اللاحقين مما كان عليه بالنسبة لآدم سميث نفسه.

3- اليد الخفية osynliga handen مصطلح يعبر عن قوى غير مرئية تحرك اقتصاد السوق الحرة. وذلك عن طريق المنفعة الخاصة للأفراد. وحرية الإنتاج. ما يؤدي إلى إشباع الاستهلاك. الذي يعد المصلحة المثلى للمجتمع كاملًا. يؤدي التفاعل المستمر للأفراد ودفعهم للعرض والطلب السوقيين إلى دفع حركة الأسعار. وتدفق التجارة. يعد مصطلح اليد الخفية جزءًا من مبدأ دعه يعمل/ دعه يمر let do/let go. بمعنى أن الأسواق ستجد نقاط توازنها الخاصة دون تدخل الحكومات أو أي سلطة تدفع الأسواق نحو أنماط غير معتادة.

ويذكر أبو الاقتصاد السياسي هذا المصطلح مرة واحدة فقط في كتابه «ثروة الأمم[4]»، ولكنه يعتبر حاليًا الأساس الذي بني عليه علم الاقتصاد الحديث وعالمه الاستثنائي.

قبل أن يخبرنا آدم سميث عن اليد الخفية بمئة عام، نشر عالم الفلك والرياضيات وعالم الطبيعة والكيميائي الإنجليزي إسحاق نيوتن كتابه «الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية» الذي شرح فيه القوى التي تبقي القمر في مداره. لقد قام بحساب تحركات الأجرام السماوية، والجاذبية الأرضية، ولماذا تسقط التفاحة وتندفع نحو الأرض، وكلها تسترشد بنفس الجاذبية التي تحمل الأجرام السماوية بين ذراعيها.

لقد قدم لنا نيوتن علمًا حديثًا ورؤية جديدة تمامًا عن الكون.

وقبل ذلك كانت الرياضيات تعتبر لغة إلهية، ومن خلال الرياضيات جعل الله «كتاب الطبيعة» مفهومًا للبشرية. لقد وهبنا الله الرياضيات حتى نفهم مخلوقاته. إن اكتشافات نيوتن غمرت

4- Nationernas valstand كتاب ثروة الأمم: أول عمل كامل عن الاقتصاد السياسي لآدم سميث كان عنوانه بالكامل بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها وقد تناول كتابه وبالأساس قضية النزعة التجارية. وقد حاول من خلاله البرهنة على أن الفردية تؤدي إلى الانسجام الاجتماعي ويرى أن التجارة الحرة بعيدة عن القيود والرسوم التي تفرض على الحرية الفردية في التجارة سينتج عنها التقدم البشري والاجتماعي وكان يطالب برفع يد الحكومة عن التجارة ويوجه انتقاداته بشكل أساسي إلى قيود نظام النزعة التجارية على الحرية الفردية في التجارة ويرى أنها ليس من واجباتها فرض القيود والرسوم وإنما الدفاع عن العدالة وحرية الأمة, وهذا ما كان يعتمد عليه ويعتبره حجة للمطالبة بسياسة الفردانية التجارية وعدم تدخل الحكومة في التجارة. فكانت أفكاره محطة بالغة الأهمية في نشوء مذهب الليبرالية الاقتصادية.

العالم بأسره بسعادة طاغية.

وقد تكون هذه الاكتشافات قد أثرت في آدم سميث وفي الاقتصاد السياسي المتنامي.

إن قوانين النظام الشمسي، التي لم يكن يملكها في السابق سوى الله وحده، أصبح من الممكن قراءتها باستخدام المنهج العلمي. لقد تغيرت صورة العالم من كونه مكانًا يتدخل فيه الله حسب رؤيته له، ويجازي من فيه، ويشق بحاره، ويحرك جباله ويجعل ملايين الزهور تتفتح كل يوم ليصبح عالمًا يغيب عنه الله وأصبح الكون ساعة خلقها الله ثم عبئها، ومن ثم فهي تدق من تلقاء نفسها.

لقد تغيرت صورة العالم من عالم يتحكم فيه الله ليصبح العالم «وحدة» شبيهة بآلة عملاقة تدور أجزاؤها المختلفة في حركة هائلة. ومن ثم بدأ المفكرون يعتقدون شيئًا فشيئًا بأنه يمكن شرح كل شيء آخر بنفس الطريقة التي شرح بها نيوتن حركة الكواكب.

إن إسحاق نيوتن هو من كشف قوانين الطبيعة ومن ثم فهم الخطة الحقيقية التي وضعها الله للكون. ولا بد أن نفس النهج قادر بالتأكيد على الكشف عن قوانين المجتمع، كما يعتقد آدم سميث، وبالتالي يكشف عن الخطة الحقيقية التي وضعها الله للمجتمع.

إذا كانت هناك آلية تعمل الطبيعة وفقًا لها، فينبغي أن تكون هناك آلية مماثلة يعمل المجتمع وفقًا لها أيضًا.

إذا كانت هناك قوانين تتحرك الأجرام السماوية وفقًا لها، فلا بد أن تكون هناك قوانين مماثلة تتحرك الأجسام البشرية وفقًا لها أيضًا.

وينبغي أن تكون تلك القوانين قادرة على التوصل إلى صياغات علمية.

وما علينا سوى أن نفهم هذه القوانين حتى نجعل المجتمع يتكيف معها وينساب وفقًا لها. وينبغي أن نكون قادرين على العيش في انسجام مع الخطة الحقيقية، نسبح مع القوى، وليس ضدها، وعلاوة على ذلك، نحاول فهم كل شيء. يمكن أن يكون المجتمع مسيرًا بالاحتكاك كالساعة التي تعمل بطريقة هي المثلى بالنسبة لنا.

وتلك كانت المهمة التي قام بها آدم سميث وكذلك علم الاقتصاد. ولم تكن مهمة بسيطة أن يجدوا إجابة للسؤال التالي: كيف نحقق التوازن الطبيعي؟

إن القوة التي كان من المفترض أن تقوم بنفس الوظيفة في النظام المجتمعي مثلما فعلت الجاذبية في النظام الشمسي تجسدت في المنفعة الخاصة.

وقد قال نيوتن نفسه: «يمكنني أن أحسب حركة الأجرام السماوية، ولكن لا يمكنني أن أحسب جنون البشر». ولكن لا أحد يكترث بالأمر. يبدو أن آدم سميث كشف الخطة الحقيقية التي وضعها الله للكون ألا وهي: نظام تحرر طبيعي يتم تجسيده على أنه صورة طبق الأصل من فيزياء نيوتن.

إذا كنت تريد أن تفهم شيئًا، فلتقم بتجزئته. وهذه كانت منهجية نيوتن العلمية، فلتقسم الكل إلى أجزاء أصغر، وإذا كنت لا تزال غير قادر على فهمه، فلتقم بتقسيم الأجزاء الأصغر مرة أخرى إلى أجزاء أصغر.

قم بتقسيم الكل إلى أجزاء أصغر، ثم استمر في القيام بذلك حتى تصل في النهاية إلى أصغر جزء يمكن تقسيم الكل إليه. إنه الجسيم الأولي، الذرة، المكون الأصغر. ويمكنك عندئذ أن تجري دراسة عليه لأنك إذا استطعت أن تفهم هذا المكون يمكنك فهم كل شيء آخر.

وكل تحول في الكل يرجع إلى تحول في الجسيمات نفسها؛ فالجسيمات تظل مستقلة دائمًا عما تشارك فيه. وكل تحول هو مجرد نمط جديد قاموا بإعادة ترتيب أنفسهم داخله، وتحركاتهم مدفوعة بقوانين الطبيعة. والكون يعمل بنفس المنطق الذي تعمل به الساعة.

وقد حاول الاقتصاديون تكرار هذه الحيلة. إذا كنت تريد أن تفهم الاقتصاد فجزئه. قم بتقسيم كل عملية معقدة لازمة حتى يتسنى توفير شريحة اللحم في دكان الجزار كل يوم ثلاثاء. إذا كنت لا تزال لا تفهم الاقتصاد، فقم بتجزئته مرة أخرى. قسمه إلى جزيئات أصغر. وكلما أصبحت الجزيئات أصغر وأصغر، يصل الاقتصاديون لأصغر مكون محتمل يعتقدون أنه يمكن تقسيم الكل إليه. وقد أطلقوا على هذا الجزيء اسم «الفرد».

إنهم يعتقدون أنه إذا فهمت الفرد، فقد فهمت كل شيء. ومثلما كرست الفيزياء للذرات غير القابلة للتجزئة، كرس الاقتصاد نفسه للأفراد المستقلين. والمجتمع ببساطة هو مجموع هؤلاء الأفراد. إذا تغير الاقتصاد، فهذا ليس لأن الفرد قد تغير فهويته بمعزل دائمًا عن الآخرين، غير أنه يمتلك الخيارات. كل تغيير يعد مجرد نمط جديد أعاد ترتيب نفسه وفقًا له. فالخيارات الجديدة التي اتخذها كانت تتعلق بالآخرين. وهم لا يلتقون أبدًا، إلا أنهم يتفاعلون مثل كرات البلياردو. أما وعي الفرد فلا أحد يستطيع أن يعبر عنه سوى الفرد نفسه، وسيبقى هذا الوضع إلى الأبد دونما تغيير.

وعلى الباقين التزام الصمت.

تكمن أعظم إنجازات آدم سميث في أنه نجح، منذ البداية، في رسم خريطة لنظام الاقتصاد المزدهر، وفق نظرة العالم للفيزياء

التي هي علم منطقي وعقلاني ويمكن التنبؤ به. هكذا كانت بداية الفيزياء في هذه الفترة. وكان ذلك قبل أن يذوب الزمان والمكان معًا في الزمكان[5] الذي لا يقبل التجزئة، وقبل أن يقسم الكون نفسه في كل مناسبة تدعو للقياس إلى عدد من الأجزاء المتساوية، إلا أن الاقتصاديين لم يهتموا كثيرًا بالفيزياء الحديثة بل ما زالوا يحدقون في سماء نيوتن المرصعة بالنجوم.

وفي أوائل القرن العشرين قام ألبرت أينشتاين، أبو الفيزياء الحديثة بطرح السؤال التالي على نفسه: «هل كان أمام الله أي خيار آخر عندما خلق العالم؟» هل هناك بديل غير معروف لقوانين الفيزياء؟ هل هناك طريقة أخرى تعمل بها الأشياء؟ لم يفكر الاقتصاديون المعاصرون له بهذه الطريقة إلا فيما ندر. لقد كانوا على يقين من قناعاتهم. وقد كتب الاقتصادي البريطاني ليونيل روبينس[6] في عام 1945 أن النظرية الاقتصادية هي:

5- هو قياس للتغير الذي يحصل داخل ما نعرفه بالمكان. سلسلة التغيرات التي تكون حياتك تحصل خلال وقت ما وفي مكان ما. كلمة «الزمكان» عبارة عن دمج للمفهومين معًا ضمن استمرارية معينة: الأبعاد المكانية الثلاثة، بالإضافة إلى البعد الرابع «الزمن». في الوقت الذي نمتلك فيه القدرة على التحكم بالأبعاد الثلاثة الأولى (الارتفاع، العرض والعمق)، يبدو أننا لا نستطيع التحكم، التلاعب، أو التنقل عبر الزمن. على الرغم من أن الفيزياء تخبرنا بأن هذا البعد مشابه للأبعاد الثلاثة الأخرى، بالنسبة للوجود البشري، يظهر الزمن كطريق باتجاه واحد مع وجود قيود صارمة على السرعة.

6- Lionel Robbins عالم اقتصادي بريطاني، ولد في عام 1898 وتوفي في عام 1984، ورئيس قسم الاقتصاد في كلية لندن للاقتصاد، واشتهر بتعريفه لعلم الاقتصاد المعاصر. وكانت له جهود كبيرة في تحويل الاقتصاد الأنجلو سكسوني من الاتجاه المارشالي الذي تبناه الاقتصادي الإنجليزي ألفريد مارشال (-1482 1924). انتقد معظم التعريفات السابقة لعلم الاقتصاد وقال إنه ذلك العلم الذي يدرس السلوك الإنساني كعلاقة بين الغايات المتعددة والوسائل النادرة التي لها استعمالات بديلة.

«مجموعة من التعميمات لا تكون دقتها وأهميتها مجالًا للتساؤل والتشكيك إلا من قبل جاهل أو منحرف». والنقطة المحورية هي أنه لا يوجد بديل آخر. لقد عاش السوق في الطبيعة البشرية. وقد درس الاقتصاديون السوق، لذلك درسوا الإنسان.

وفي الماضي، كان الملوك يقومون بتعين مستشارين في البلاط الملكي يقومون بتحري وتفسير الأنماط الظاهرة في أحشاء الحيوانات النافقة[7]. لقد درسوا ألوان الأحشاء وأشكالها ليتمكنوا من إخبار ملكهم عن رد فعل الآلهة تجاه قرار سياسي أو آخر سيقوم الملك باتخاذه.

كما قام الأتروسكان[8] في إيطاليا ما قبل التاريخ، بتقسيم الطبقات الخارجية لكبد الأغنام إلى ست عشرة قطعة منفصلة

7- كان استخدام العرافات والعرافين لمعرفة إرادة الآلهة عن طريق تحري أحشاء الحيوانات ومراقبة البرق والرعد وطيران الطيور شائعًا حينذاك.

8- Etruskerna الإتروسكان أو الإتروريون (Etruskerna) يعود أصلهم إلى آسيا. نزحوا إلي إقليم توسكانا بشمال ووسط إيطاليا خلال عام 1000 ق.م. وجمعوا ثروات ضخمة. فأقاموا مقابر تشبه مقابر الشرق وقد بلغوا أوج قوتهم سنة 500 ق.م. إلا أن القرطاجيين هزموهم عام 474 ق.م. في معركة كومبي البحرية الشهيرة. اشتهروا بصناعة الفخار والمصنوعات البرونزية. وكانت حضارتهم متأثرة بالحضارة الإغريقية. إلا أنهم تفوقوا عليها في المعمار وصناعة التماثيل. وكانوا قد توسعوا فيما بين نهري أرنو وتيبر والبحر الأدرياتيكي لاستغلال مناجم النحاس والفضة والحديد. كما استولوا على روما وسهل لومباردي. وقد أحاطوا روما بسور وعمروها وأقاموا فوق تل الكابيتول مقر معبد الإله زيوس. لأنهم كانوا يعبدون آلهة اليونان. تميزت حضارة الإتروسكان بإقامة الأسوار حول المدن والقباب في المباني والتماثيل الكبيرة في شكل حيوانات وبشر. واشتهروا بالنحت والفخار وصناعة الحلي والمشغولات بدقة متناهية سواء من الذهب أو النحاس أو البرونز. وكانت المدن الإتروسكانية تتميز بأنها مدن دويلات مستقلة تدافع ذاتيًا عن نفسها. لهذا كانت تقام فوق التلال. وكانت البيوت مربعة وتطل النوافذ على فناء داخلي.

لنفس الغرض إلا أن العالم تطور بعد ذلك. فاليوم يتولى الاقتصاديون دور هؤلاء المستشارين. وبمعنى أدق، يحاول الاقتصاديون أن يتنبؤوا بما ستكون عليه ردة فعل السوق تجاه قرار من القرارات التي يخطط لها السياسيون.

ويود كثيرون منا أن يعيشوا في اقتصاد السوق، وليس في مجتمع السوق. وقد تعلمنا أنه ينبغي أن نتقبل هذا وذاك. يقول فيدل كاسترو إن الأسوأ من استغلال الرأسمالية متعددة الجنسيات للأفراد هو ألا نكون عرضة لاستغلال الرأسمالية متعددة الجنسيات، ولعله كان على حق.

قالت مارجريت تاتشر: «ليس هناك بديل». فقد بدا أن الرأسمالية (على الأقل حتى الأزمة المالية عام 2008) نجحت حيث فشلت جميع أديان العالم ألا وهو: توحيد البشر في مجتمع واحد، أي السوق العالمي.

ويستطيع السوق أن يقرر سعر معدني الحديد والفضة، وأن يحدد احتياجات الإنسان، ومقدار المكاسب التي يحققها كل من المربيات والطيارين والمديرين التنفيذيين. كما يقرر مقدار ما ينبغي أن تدفعه مقابل أحمر الشفاه، وجزازة العشب واستئصال الرحم. إن السوق يملي ما يستحقه البنك الاستثماري ويجعله يصطدم مباشرة باحتياطيات دافعي الضرائب (70 مليون دولار سنويًّا). فكم يساوي أن تمسك بيد مرتجفة لامرأة تبلغ من العمر

سبعة وثمانين عامًا وهي تلتقط أنفاسها الـ700 الأخيرة، في دولة تضامن اجتماعي اسكندنافية (ستة وتسعون كرونا/ ساعة = نحو ثمانية جنيهات/ ساعة)؟

عندما حصل آدم سميث على عشائه، لم يكن بسبب حب الجزار والخباز له، فقد كانا يحققان منافعهما الخاصة عبر المقايضة. إنها المنفعة الخاصة التي وضعت العشاء على طاولة آدم سميث. فهل كان الأمر كذلك حقًا؟ ومن الذي طهى شريحة اللحم التي تناولها في عشائه؟

إن آدم سميث لم يتزوج قط، وعاش أبو الاقتصاد معظم حياته مع أمه. فكانت أمه تعتني بالمنزل بينما تولى أحد أبناء عمومته شؤونه المالية. وعندما عين آدم سميث مفوضًا في مصلحة الجمارك في إدنبرا، انتقلت والدته معه وأمضت حياتها في رعاية ابنها. وهي تمثل جزءًا من إجابة السؤال الخاص بكيفية حصوله على العشاء، وهي الجزء الذي حذفه آدم سميث من إجابة السؤال.

وفي الوقت الذي كتب فيه آدم سميث ما كتبه وحتى يتمكن الجزار والخباز وصانع الجعة من الذهاب إلى عملهم، كان على زوجاتهم أو أمهاتهم أو شقيقاتهم أن يقضين الساعة بعد الساعة، واليوم بعد اليوم في رعاية أطفالهم، وتنظيف منازلهم، وطهي طعامهم وغسل ملابسهم وتجفيف دموع من يبكي والتشاجر مع جيرانهم. فمهما كانت نظرتك إلى السوق، فإنه يعتمد دائمًا على

اقتصاد آخر، اقتصاد نادرًا ما نتناوله بالحديث والنقاش.

إن الفتاة البالغة من العمر أحد عشر عامًا، والتي تمشي مسافة خمسة عشر كيلومترًا كل صباح لجمع الحطب من أجل عائلتها، تلعب دورًا كبيرًا في تطوير اقتصاد بلدها إلا أن عملها هذا غير معترف به. فالفتاة غير مرئية في الإحصاءات الاقتصادية، وفي حسابات إجمالي الناتج القومي الذي يقيس إجمالي النشاط الاقتصادي في بلد ما، ولا يتم إضافتها إلى الحساب. ما تفعله لا يعتبر مهمًّا بالنسبة للاقتصاد ولا للنمو.

أن تلد الأطفال وتطعمهم وتربيهم، وتزرع الحديقة، وتطهو الطعام لأشقائها، وتحلب الأبقار، وتصنع الملابس للأسرة أو تعتني بآدم سميث حتى يتمكن من تأليف كتابه «ثروة الأمم»، فتلك أنشطة لا يحسب أي منها على أنها «نشاط منتج» في النماذج الاقتصادية المعيارية.

هناك جنس «غير مرئي» بعيدًا عن متناول «اليد الخفية».

وقد وصفت الكاتبة والنسوية الفرنسية سيمون دي بوفوار[9]

9- Simone de Beauvoir سيمون-إرنستين. لوسي ماري برتراند دي بوفوار. تدعى سيمون دي بوفوار (-1908 1986) كاتبة ومفكرة فرنسية. وفيلسوفة وجودية. وناشطة سياسية. ونسوية إضافة إلى أنها منظرة اجتماعية. كتبت دي بوفوار العديد من الروايات والمقالات والسير الذاتية ودراسات حول الفلسفة والسياسة وأيضًا عن القضايا الاجتماعية. اشتهرت سيمون دي بوفوار برواياتها والتي من ضمنها "المدعوة» و"المثقفون» كما اشتهرت كذلك بكتابها "الجنس الآخر» والذي كان عبارة عن تحليل مفصل حول اضطهاد المرأة وبمثابة نص تأسيسي للنسوية المعاصرة.

المرأة بأنها «الجنس الثاني». إن الرجل هو من يأتي في المقام الأول؟

إن الرجل يضاف إلى الحساب وهو يعرف العالم والمرأة على أنهما «الجنس الثاني». هو، أي الرجل، ليس كل شيء ولكن كل شيء يعتمد عليه حتى يكون على ما هو عليه وحتى يضاف إلى الحساب.

فكن الشخص الذي يضاف إلى الحساب.

وبنفس الطريقة التي يوجد بها «جنس ثانٍ» فإن هناك «اقتصادًا ثانيًا». العمل الذي يقوم به الرجال تقليديًّا هو فقط المحسوب أو الذي يضاف إلى الحساب. وهو ما يرسم صورة الاقتصاد العالمي. وعمل المرأة هو «الثاني». وهو لا يقوم بكل شيء ولكن كل شيء يعتمد عليه حتى يتمكن من أن يفعل ما يفعله.

قم بعمل الأشياء التي تضاف إلى الحساب.

نجح آدم سميث في الإجابة عن نصف السؤال الأساسي الخاص بالاقتصاد فقط. ولم يحصل على عشائه لمجرد أن التجار خدموا منافعهم الخاصة من خلال المقايضة التجارية. وحصل آدم سميث على عشائه لأن والدته كانت تصنعه وتضعه على الطاولة كل مساء.

واليوم، يتم التنويه أحيانًا إلى أن الاقتصاد لا يتم بناؤه بـ«يد

خفية» فقط، إنما يتم بناؤه بـ«قلب خفي hjärta osynligt» أيضًا ولكن ربما تكون هذه صورة مثالية أكثر مما ينبغي، بالنسبة للمهام التي وقعت على عاتق النساء تاريخيًّا بتكليف من المجتمع. ونحن لا نعرف لماذا اعتنت والدة آدم سميث بابنها، إنما كل الذي نعرفه أنها قد فعلت ذلك.



الفصل الثاني

وفيه نتعرف على الرجل الاقتصادي[10] وندرك كم هو مغرٍ للغاية!

10- استخدم مصطلح «الرجل الاقتصادي» للمرة الأولى في أواخر القرن التاسع عشر من قبل نقاد أعمال جون ستيوارت ميل في الاقتصاد السياسي. فيما يلي مقطع من الأعمال التي أشار إليها النقاد: «لا يعالج [الاقتصاد السياسي] طبيعة الإنسان بشكل مجمل كما تصوغها الحالة الاجتماعية، ولا من خلال سلوك الإنسان في المجتمع. إنما يهتم بالإنسان بوصفه كائنًا يرغب بامتلاك الثروة، وقادرًا على الحكم على الفعالية النسبية لوسائل نيل تلك الغاية. لاحقًا في نفس العمل، ذكر ميل أنه كان يقدم «تعريفًا تعسفيًّا للإنسان، بوصفه كائنًا يفعل ما بوسعه حتمًا بهدف الحصول على أكبر قدر من الضروريات ووسائل الراحة والكماليات، وبصرف أقل قدر من العمل والإنكار الذاتي الجسدي اللازم لنيلها». ادعى آدم سميث، في كتابه نظرية المشاعر الأخلاقية، أن الأفراد يتعاطفون مع رفاهية الآخرين. من جهة ثانية، كتب سميث في كتابه ثروة الأمم: «لا نتوقع أن يقدم الجزار وبائع الخمر والخباز عشاءنا لنا بدافع الإحسان، وإنما انطلاقًا من اهتمامهم بمنافعهم الشخصية». وبنى الاقتصاديون في أواخر القرن التاسع عشر -مثل فرانسيس إيدجوورث وويليام ستانلي جيفنز وليون وولراس وفيلفريدو باريتو- نماذج رياضية استنادًا إلى تلك الفرضيات الاقتصادية. في القرن العشرين، ظهرت نظرية الاختيار العقلاني على يد ليونيل روبنز وهيمنت على الاقتصاد السائد حينها. ثم صار لمصطلح «الرجل الاقتصادي» معنى أكثر تحديدًا: الشخص الذي يتصرف بعقلانية بناء على المعرفة الكاملة وبدافع منفعته الشخصية والرغبة في الحصول على الثروة.

أكد ألن ألكسندر ميلن[11] مؤلف كتب الدب ويني - ذا بوه[12]، أن الأطفال على وجه الخصوص مفتونون بقصص الجزر النائية المهجورة. وكان جنوح إنسان إلى عالم جديد معزول ومهجور قد ألهب خيالهم على نحو استثنائي.

ويعتقد ميلن أن ذلك يرجع إلى أن الجزيرة النائية المهجورة زودت الطفل بأكثر الطرق فعالية للهروب من الواقع حيث لا يوجد أم، ولا أب، ولا أشقاء؛ ولا أي التزامات أو واجبات أو خلافات أو صراعات على السلطة داخل العائلة. إنه عالم جديد تمامًا أكثر نقاء وأكثر بساطة. فهناك، أنت حر ووحيد حيث لا يوجد شيء على الإطلاق سوى آثار خطواتك على الرمال. وعلاوة على ذلك فإن الطفل نفسه هو الذي يسيطر فقط.

إنه عالم يكون فيه الطفل هو السيد، ويستولي على العرش ويعلن نفسه إله الشمس.

وبوسعك أن تقول إن الاقتصاديين يشبهون الأطفال قليلًا لأن كثيرين منهم مهوسون بشخصية روبنسون كروزو[13]. ولطالما سمع معظم طلاب الاقتصاد أستاذهم يعيد سرد قصة رواية

11- A. A. Milne آلان ألكسندر ميلن كان مؤلفًا إنجليزيًا. اشتهر بكتابه عن الدب الدمية ويني- ذا بوه وأشعاره المختلفة.

12- شخصية دب خيالية مجسمة.

13- Crusoe Robinson روبنسون كروزو هي قصة للمؤلف دانيال ديفو Daniel Defoe. نشرت عام 1719. وهي سيرة ذاتية تخيلية تحكي عن شاب انعزل في جزيرة ما. وحيدًا لمدة طويلة دون أن يقابل أحدًا من البشر. ثم بعد عدة سنوات يقابل أحد المتوحشين وعلمه بعض ما وصل إليه الإنسان المتحضر من تقدم فكري وجعله خادمه. وفي نهاية القصة عاد روبنسون كروزو ومعه خادمه إلى أوروبا حيث العالم المتحضر.

دانيال ديفو التي صدرت عام 1719 بطريقة أو أخرى. ولعلنا نتفهم دهشة الناس من ماهية العلاقة التي تربط قصة رجل عنصري أبيض يعيش بمفرده ستة وعشرين عامًا في جزيرة نائية ومهجورة، بالاقتصاد الحديث وذلك قبل أن يصبح صديقًا لشخص «متوحش». وإن لم تجد تلك العلاقة فلن تفهم علم الاقتصاد.

أصبح بطل رواية دانيال ديفو الذي تحطمت سفينته وغرقت هو الرجل الاقتصادي المطلق. لقد جنح كروزو ووصل إلى جزيرة مهجورة لا تحكمها أي قواعد اجتماعية أو قوانين. لا أحد يمنعه من القيام بشيء ولديه حرية مطلقة في التصرف بدافع المنفعة الخاصة. وفي جزيرة كروزو، نجد المنفعة الخاصة هي التي تقود الرجل الاقتصادي بمعزل عن الاعتبارات الأخرى، ومن ثم تصبح القصة أداة تعليمية في يد الاقتصاديين.

وفي السوق، من المفترض أن نكون جميعًا مجهولين لا نحمل أسماء، ومن ثم يمكن للسوق أن يحررنا فلا يهم من أنت. والسمات الشخصية والعواطف ليس لها مكان هنا. الشيء الوحيد المهم هو قدرتك على الدفع. والاختيارات التي يتخذها الناس حرة ومستقلة، ونحن دون خلفية تاريخية أو سياق، ونحن جزر نائية ومهجورة في بحر فارغ. لا أحد يطلق علينا أحكامًا ولا شيء يقيدنا أو يعوقنا. والقيود الوحيدة القائمة هي قيود تقنية: ساعات النهار المحدودة والموارد الطبيعية المحدودة. إن روبنسون كروزو حر

وعلاقاته مع الآخرين مرتبطة في الأساس بما يمكنهم القيام به من أجله.

إنه لا يتصرف بشكل غير لائق، وهذا ببساطة ليس عقلانيًّا، بقدر العقلانية التي تطرحها القصة.

فحسب الرواية، ولد روبنسون كروزو بمدينة يورك، في إنجلترا، لأب تاجر وله شقيقان أكبر منه، مات أحدهما في الحرب واختفى الآخر. ويدرس روبنسون القانون إلا أن حياة الطبقة المتوسطة الإنجليزية المرفهة لم تجتذبه. وبدلًا من الانخراط في تلك الحياة، صعد على متن سفينة متجهة إلى إفريقيا. وبعد عدة أسفار، حط الرحال في النهاية على أرض البرازيل حيث أنشأ مزرعة أحرزت مع الوقت ناجحًا فائقًا. وأصبح روبنسون كروزو ثريًّا إلا أنه يريد أن يصبح أكثر ثراءً. وفي ذاك الوقت كانت السفن تتوجه إلى إفريقيا لجمع العبيد، فصعد على متن واحدة منهم. وفي نهاية الأمر، تغرق سفينته ويطرحه البحر على جزيرة نائية مهجورة.

وهنا تبدأ المغامرة..

يقضي روبنسون سنوات عديدة معزولًا لا يملك سوى عدد قليل من الحيوانات فقط. وكانت «الحيوانات البرية» وآكلو لحوم البشر يعيثون فسادًا على الشواطئ. وفي كتابه الذي سجل فيه الأحداث في أعمدة متوازية، لم يدون المال والموارد فقط، بل دون ما لاقاه

من حظ وسوء حظ أيضًا.

نعم، صحيح إنه على جزيرة نائية مهجورة إلا أنه ما زال على قيد الحياة.

وصحيح أنه معزول عن الآخرين إلا أنه لا يتضور جوعًا.

وصحيح أنه لا يمتلك أي ملابس إلا أن الطقس معتدل.

ومن المنطقي أن يقوم روبنسون بحساب الفائدة التي تعود عليه في كل موقف. وهو يشعر بالرضا التام. فهو متحرر من المطالب والحسد والشهوة والغيرة والتكبر ومتحرر من الآخرين. وبشعور غامر بالانتصار، يكتب أن بوسعه أن يفعل ما يشاء. يمكنه أن ينصب نفسه قيصرًا أو ملكًا للجزيرة بأكملها. يا لها من فرحة! إنه متحرر من عوامل التشتت والرغبات الجسدية، ويركز بدلًا من ذلك على الملكية وفرض الهيمنة. إن الجزيرة بأكملها ملك له وبوسعه أن يغزوها ويسيطر على الطبيعة ويحكمها.

وعادة ما يتم إعادة سرد مغامرة ربنسون كروزو كقصة تدور حول إبداع وبراعة الفرد. يقوم روبنسون بحصد الذرة، ويصنع الأواني ويحلب الماعز. إنه يصنع الشموع من شحم الماعز، وفتائل الحبال من نبات القراص المجفف ولكن ليست براعة روبنسون وحدها هي التي شيدت هذا المجتمع الصغير الذي يسكنه رجل واحد فقط لا غير. ففي الرواية قام روبنسون فعليًّا بثلاث عشرة

رحلة إلى السفينة المحطمة لاستعادة مواد وأدوات استغلها كي يتحكم في الطبيعة وكي يتحكم مع الوقت في الآخرين.

وهذه الخامات والأدوات والمواد صنعها الآخرون، حتى لو كانوا على مسافة بعيدة. واعتمد روبنسون اعتمادًا كاملًا على ما صنعته أيديهم.

وفي العام السادس والعشرين، صادف روبنسون على الجزيرة واحدًا من سكان الجزيرة الأصليين ويقوم بإنقاذه من بين أيدي آكلي لحوم البشر، فيعمده ويسميه باسم اليوم الذي قابله فيه وهو يوم «الجمعة". وقد كان امتنان «جمعة» له بلا حدود. فقد أحب «جمعة» روبنسون مثل طفل وعمل من أجله مثل عبد. وقام «جمعة»، الذي كان هو نفسه من آكلي لحوم البشر وكان يشتهيها، بتغيير نظامه الغذائي من أجل روبنسون.

وكما وصف مؤلف الرواية فهما يقضيان السنوات الثلاث التالية معًا وهما «في أتم سعادة». وفي نهاية الأمر، يتم إنقاذهما ويعودان إلى أوروبا.

وعندما يصلان إلى لشبونة، يكتشف روبنسون أنه ميسور الحال وثري بشكل لا يصدق. فقد قام عماله بإدارة شؤون المزرعة في البرازيل وحققت أرباحًا هائلة في السنوات التي اختفى فيها. ويقوم روبنسون ببيع أسهمه ويتزوج وينجب ثلاثة أطفال، ثم

تموت زوجته. وقد وصفت هذه السلسلة من الأحداث في عبارة واحدة في الرواية: الزواج والولادة والموت.

ومرة أخرى يعود كروزو إلى البحر.

وقد وصف الكاتب الأيرلندي جيمس جويس[14] روبنسون بأنه تجسيد: «للاستقلال الرجولي. القسوة اللاشعورية، المثابرة، الذكاء المتمهل ولكنه فعال، والبرود الجنسي... والتكتم المحسوب».

يعيش روبنسون كروزو منعزلًا عن الناس، ويحب الاقتصاديون أن يعزلوا الناس. ولأن سفينة روبنسون تحطمت فقد رمى به البحر على جزيرة نائية مهجورة، وبات من الممكن فهم الطريقة التي يتصرف بها الإنسان عندما يكون وحيدًا ولا يوجد حوله أي أحد. وتنتهج معظم النماذج الاقتصادية المعيارية هذه الطريقة تحديدًا.

إن مصطلح Ceteris paribus [15] هو مصطلح لاتيني يعني

14- James Joyce جيمس أوغسطين الويسيوس جويس (2 فبراير 1882 في دبلن، أيرلندا - 13 يناير 1941 في زيوريخ، سويسرا) كاتب وشاعر أيرلندي من القرن 20، من أشهر أعماله «عوليس»، و«صورة الفنان كشاب».

15- Ceteris paribus مصطلح لاتيني يستخدم اليوم في المواد العلمية، وخصوصًا علم الاقتصاد ويستخدم عند دراسة تأثير عامل واحد على عامل آخر محدد. فحين نقارن مثلًا بين الكمية التي يرغب الفرد في شرائها والسعر، فعادة ما يقتضي هذا بالتسليم بأن الدخل ثابت وأن الأذواق لا تتغير، وإلا فإن الكمية المراد شراؤها قد تتغير تبعًا لتغير الدخل والأذواق وليس بسبب تقلب الأسعار فحسب.

أن «كل الأشياء الأخرى متساوية». عليك عزل متغير واحد ضمن نموذج اقتصادي يحتوي على العديد من المتغيرات، وإلا فلن يعمل. لطالما كان الاقتصاديون المحنكون على دراية بالخلل في هذا النهج، إلا أنه ظل مستمرًّا في تحديد الأساس الذي بني عليه «التفكير على غرار الرجل الاقتصادي». يجب على المرء أن يبسط العالم حتى يتمكن من التنبؤ به، ولذلك استلهم المرء روح آدم سميث واختار التبسيط بهذه الطريقة بالضبط.

وفي القصة، يخلق روبنسون كروزو اقتصادًا على وجه السرعة. إنه يتاجر ويشتري على الرغم من عدم وجود أي أموال على الجزيرة، أما قيمة السلع فيتم تسعيرها حسب الطلب.

إن المبدأ القائل بأن قيمة السلعة يحددها الطلب عليها هو مبدأ شائع في قصة أخرى عن رجلين تقطعت بهم السبل.

تخيل رجلين على جزيرة نائية ومهجورة، ولدى واحد منهما كيس من الأرز والآخر لديه مئتان من الأساور الذهبية. ولو أن المرء في بلده لأمكنه أن يشتري كيسًا من الأرز بسوار واحد من الذهب ولكن الرجلين الآن، ليسا في بلديهما. فقد تقطعت السبل بالرجلين، فتغيرت قيمة السلعة.

ويمكن للرجل الذي لديه الأرز أن يطلب فجأة كل الأساور الذهبية مقابل حصة واحدة من الأرز فقط، بل إنه قد يرفض أن

يقايض به. لأن ماذا عساه أن يفعل بسوار من الذهب على جزيرة نائية مهجورة؟ يروق للاقتصاديين أن يروا مثل هذه القصص، إنهم يهزون رؤوسهم ويعتقدون أنهم قد كشفوا عن شيء عميق في طريقة تفكير الإنسان.

إن نموذجهم المعياري لم يضع احتمال أن هذين الشخصين اللذين قذف بهما البحر على جزيرة نائية مهجورة سوف يبدآن في تبادل أطراف الحديث، ولعلهما يشعران بالوحدة والخوف وكل منهما في حاجة إلى الآخر. وبعد أن يتبادلا الحديث لفترة من الوقت، يمكن أن يكتشفا أن كلًّا منهما كان يكره السبانخ عندما كان طفلًا، وأن لديهما أعمامًا قد أدمنوا الكحول لوقت طويل. وبعدها سيتفقان على الأرجح على أن يقتسما الأرز مناصفة بينهما.

وبما أننا، نحن البشر، نتفاعل بهذه الطريقة، أفلا يكون لها أي أهمية اقتصادية؟

أولًا: إن الرجلين في رواية الاقتصاديين لم يلقَ بهما على جزيرة نائية مهجورة فقط بل إنهما يشعرن في أعماقهما بالعزلة وأنهما وحيدان ومنعزلان، ولا يمكن لأحد أن يصل إليهما. وهما غير قادرين على التفاعل بعضهما مع بعض بأي شكل من الأشكال إلا من خلال التجارة والمنافسة، وهما عاجزان عن التعامل مع العالم المحيط بهما إلا من خلال مجموعة من السلع. وكل شيء

يشترى ويباع وتتم المقايضة به من أجل إحراز أكبر قدر ممكن من الأرباح.

يمثل روبنسون كروزو أولًا وقبل كل شيء نموذجًا للرجل الاقتصادي. وقد أطلق عليه الاقتصاديون «الرجل الاقتصادي[16]»، وهو من أسس للنظريات الاقتصادية التي نعرفها. قرر علم الاقتصاد أن الفرد هو من ينبغي دراسته، وبالتالي نحن في حاجة إلى خلق قصة مبسطة عن نمط ردود أفعال هذا الفرد وكيف يتصرف. ومنذ ذلك الحين انبثق نموذج للسلوك البشري الذي يقدم تعريفًا للفكر الاقتصادي.

وعلاوة على ذلك، فإن هذا الشخص مغرٍ للغاية.

16- مصطلح الإنسان الاقتصادي أو الرجل الاقتصادي باللاتينية Homo economicus) هو مصطلح يصور البشر بأنهم وكلاء عقلانيون بشكل متواصل. ذوو اهتمام ذاتي ضيق. ويسعون إلى تحقيق أهدافهم المحددة على أساس المصلحة الذاتية بالصورة الأمثل. مصطلح الإنسان الاقتصادي تحوير لمصطلح الإنسان العاقل. ويستخدم في بعض النظريات الاقتصادية وفي التربية. في نظرية الألعاب. غالبًا ما يوضع مصطلح الرجل الاقتصادي في سياق افتراض العقلانية الكاملة. إذ يفترض أن الوكلاء يتصرفون دومًا بطريقة تهدف إلى تحقيق أقصى منفعة حين يكونون مستهلكين وأقصى ربح حين يكونون منتجين. وأنهم مستعدون لخوض الخصومات الاعتباطية المعقدة في سبيل تلك الغاية. وهم قادرون دومًا على أخذ جميع النتائج المحتملة في الحسبان واختيار الأفعال التي ستقدم النتيجة الممكنة الأفضل. لا تقيد العقلانية التي ينطوي عليها مفهوم الرجل الاقتصادي نوع التفضيلات الجائزة. التطبيقات الساذجة لهذا المفهوم تفترض أن الوكلاء يعرفون ما هو الأفضل لصحتهم الجسدية والنفسية على المدى الطويل. على سبيل المثال. يمكن ربط الوظيفة النفعية لوكيل بالنفع المتصور لوكلاء آخرين (كالزوجة أو الأطفال). ما يجعل مفهوم الإنسان الاقتصادي متوافقًا مع نماذج أخرى كمفهوم الإنسان المقايض. الذى يؤكد على التعاون الإنساني. باعتبار المفهوم نظرية تصف السلوك البشري. نجد أنه يناقض مفاهيم الاقتصاد السلوكي. التي تدرس التحيزات المعرفية واللاعقلانيات الأخرى. ويناقض العقلانية المحدودة. التي تفترض أن العناصر العملية كالمحدودية المعرفية والزمنية تحد من عقلانية الوكلاء.

أولئك الذين يدرسون علم الاقتصاد، يتعلمون قصة الرجل الذي يخرج إلى العالم كي يحقق أقصى أرباح ممكنة، مستغلًّا الظروف والتحديات التي يواجهها على طول طريقه. وقيل إنه كائن عالمي، وعلى الرغم من تبسيط ماهيته فهو يعد وصفًا لماهية الفرد، المرأة مثل الرجل، الأغنياء مثل الفقراء، بغض النظر عن الثقافة أو الدين، أو أي فوارق أخرى. يعطي الرجل الاقتصادي لنفسه الحق في تمثيل الوعي الاقتصادي البحت الذي يتواجد في كل واحد منا. وهذا ما يشكل رغباتنا ويحاول إشباعها.

إنه عقلاني أي يوجهه العقل، ولا يفعل أي شيء ليس مجبرًا على فعله. وإذا فعل شيئًا سيكون ذلك من أجل الاستمتاع أو تفادي الألم. وسوف يأخذ ويفعل كل ما بوسعه دومًا كي يفوز ويدمر كل من يقف في طريقه في نهاية المطاف.

وهناك نماذج اقتصاد معيارية تقول إن هذا الشخص، في جوهره، يجسدنا نحن. وعلى أي حال، فإن هذا الجزء هو المهم من الناحية الاقتصادية. ومن ثم ينبغي على الاقتصاديين أن يدرسوا هذا الجزء منا. والسمة الأساسية لدينا هي أننا نريد عددًا غير محدود من الأشياء، نريد كل شيء. الآن، وفورًا.

ولأن رغبات الإنسان غير محدودة ومرهونة فقط بندرة الموارد في العالم فإن كل الآخرين بالطبع يرغبون في الحصول على تلك الأشياء أيضًا. يريدون كل شيء. الآن، وفورا. وعندما لا نستطيع

الحصول على كل ما نريد، فعلينا أن نختار. وبدافع من الندرة، يولد الاختيار.

إن الاختيار يعني تكلفة الفرصة البديلة[17]. إن العائدات المفقودة قد تأتي من البدائل التي لم يقع عليها الاختيار. فإذا اخترت الذهاب في اتجاه واحد، فلا يمكنك اختيار الاتجاه الآخر في الوقت نفسه.

إن الرجل الاقتصادي لديه عدد من التفضيلات[18].

وإذا كان يفضل زهور التوليب على الورد البلدي، فهذا يعني أيضًا أنه يفضل زهرة التوليب على زهرة الأقحوان. وهو دائمًا عقلاني، فعال: يختار دائمًا المسار الأقل تكلفة كي يبلغ هدفه.

نحن نفكر فيما نريد ثم نتصرف بالطريقة التي تمكنا من الحصول على ما نريد. ثم نحسب أقصر مسافة ممكنة بين النقطة (ا) والنقطة (ب) وبأرخص تكلفة، وهذا كل ما في الأمر. أنت من تقرر ماذا تريد وبأي ترتيب، ثم نحاول أن نحصل على ما نريد. اجهز، استعد، انطلق. ثم ابدأ الحياة. وقم بإنهاء هذه المسألة،

17- حسب نظرية الاقتصاد الجزئي، فإن تكلفة الفرصة البديلة والمعروفة أيضًا باسم التكلفة البديلة، هي قيمة اختيار أفضل تكلفة بديلة من خلال مرحلة اتخاذ القرار.

18- في المفهوم الاقتصادي والعلوم الاجتماعية، التفضيل هو ترتيب البدائل على أساس فائدته النسبية، وهي عملية تعتمد على «الاختيار» سواء كان حقيقيًا أو نظريًا. يتم تحديد طبيعة التفضيلات الفردية من خلال عوامل الذوق، بغض النظر عن الأسعار والدخل أو حتى توافر السلع.

اشتر الرخيص وبعه غاليًا.

إن السمة الرئيسة للرجل الاقتصادي أنه يمكن التنبؤ بأنماط ردود أفعاله. ولهذا السبب يمكن التعبير عن كل المشكلات التي يواجهها بطريقة حسابية أنيقة. إذا كان البشر مثله، فيمكن أن نحسبهم أيضًا، فليس هناك سوى المنفعة الخاصة فقط، ومن عالم كوني ميت يمكننا استنباط القوانين الطبيعية التي تحكم المجتمع.

ومثل روبنسون كروزو بالضبط، كان الرجل الاقتصادي رجل أعمال عصريًّا حرر نفسه من الاضطهاد اللاعقلاني القديم، ومثل روبنسون كروزو تمامًا كان بمقدوره أن يعتمد على نفسه. ولم يكن هناك ملك أو قيصر يمكن أن يملي عليه ما ينبغي عليه فعله. فهو الملك ذاته والقيصر ذاته، وهو حر ولا يملكه أحد. إنه الشخص الجديد الذي جلبه علم الاقتصاد إلى العصر الحديث.

إن الرجل الاقتصادي يقرر حياته ويدع الآخرين يقررون حياتهم. إنه مذهل وبارع للغاية لأنه ببساطة إنسان. إن عقلانيته الفائقة جعلته سيدًا لعالمه الخاص وليس خادمًا أو مرؤوسًا لأحد آخر. إنه حر. وفي كل موقف، يمكنه الاطلاع على جميع البدائل الممكنة في لمح البصر ويتخذ أفضل قرار ممكن مثل لاعب شطرنج عالمي يتنقل عبر مسارات في بيئة مفعمة بالخيارات، هذه هي الطبيعة البشرية. علاوة على ذلك أبدى الرجل الاقتصادي

تسامحًا: الرجل الاقتصادي لا يحكم على الناس حسب المكان الذي أتوا منه بل حسب المكان الذي يتجهون إليه. وهو كذلك فضولي ومنفتح على التغيير أيضًا. لقد أراد دائمًا أن يكون أفضل حالًا، يأخذ أكثر، ويشاهد أكثر، ويجرب أكثر.

يعتقد الرجل الاقتصادي أن العمل في ذاته ليس له قيمة، ولكن إذا كنت تريد أن تصل إلى أي شيء، فعليك أن تعمل. إنه يضع الأهداف، ويناضل كي يحققها، ويضع عليها علامة «√» عندما يبلغها ويمضي قدمًا ليحقق أهدافًا تالية. لا يعلق أبدًا على ما كان، بل يتطلع فقط إلى الأمام. إذا كان يريدك، فسوف يفعل كل ما بوسعه ليحصل عليك. يكذب، ويسرق، ويحارب ويبيع كل ما يملك.

إنه يفعل كل ما في وسعه لإشباع رغباته، غير أنه يفضل التفاوض والمساومة عن استخدام العنف. لا يمكن لكل الناس أن يرضعوا من حلمة واحدة، فالموارد في العالم محدودة وشحيحة. وهو يبدي إعجابه بأولئك الذين ينجحون. إن الأمر يتعلق بالمتعة، ويتعلق بالحياة.

وأن تقبض على شيء بإحكام، فذلك لأنك قد ناضلت من أجله حتى يكون بوسعك أن تقول: «هذا ملكي».

في نهاية الفيلم، سوف يمتطي الرجل الاقتصادي جواده

ويتوجه وحيدًا صوب الشمس الغاربة.

إن العواطف والإيثار والمراعاة والانتماء والتضامن ليسوا من مكونات شخصيته وفقًا للنظريات الاقتصادية المعيارية. يمكن للرجل الاقتصادي أن يعبر عن تفضيله للتضامن أو لعاطفة بعينها، ولكن هذا التفضيل مثلما يفضل المرء التفاح عن الكمثرى. ويمكنه أن يطلب العواطف؛ لأنه يريد أن يجربها فقط وهي لا تصبح أبدًا مكونًا من مكوناته، لأن الرجل الاقتصادي ليس له طفولة، ولا مجتمع يؤثر فيه. إنه يتذكر ولادته الخاصة مثلها مثل أي شيء آخر.

إنه عقلاني وأناني ومعزول تمامًا عن بقية العالم. وسواء كان وحيدًا على الجزيرة أو وحيدًا في المجتمع، لا يهم، فليس هناك مجتمع بل هناك أفراد فقط.

لقد أصبح الاقتصاد علم «الاحتفاظ بالحب». ويتماسك المجتمع وفقًا لما تقتضيه المنفعة الخاصة. ومن «اليد الخفية» لآدم سميث ولد الرجل الاقتصادي، وعندها احتفظ بالحب لحياته الخاصة فقط. وكان من المهم أن يبقيه خارج حساباته.

وإلا فإن العسل سوف ينفد.

كان بيرنارد دي ماندافيل طبيبًا هولنديًّا يمارس الطب في إنجلترا. وقد نشر كتابه الشهير خرافة النحل The Fable of the

Bees [19] في عام 1714. وقد كتب ساخرًا أن كل نحلة في سعيها لمنفعتها الخاصة تكتشف في الوقت نفسه ما هو الأفضل للخلية. فالمنفعة الخاصة تخدم المنفعة العامة طالما أن النحل يمكنه أن يستمر في العمل بدأب وبلا توقف. وإذا أقحم أحد نفسه في الأمر فلن يكونَ هناك أي عسل.

ومن المفارقات أن الغرور والحسد والجشع يجعلون السعادة الجماعية في الخلية تزيد. وتلك المشاعر الوضيعة تجعل النحل يعمل بجد أكثر. فتزدهر الحالة الاقتصادي ويتدفق العسل. إن الطمع شيء جيد. وفي النهاية، تصبح المنفعة الخاصة هي الشيء الذي يمكننا الوثوق به.

19- Bernard de Mandeville برنارد ماندفيل كان طبيبًا لندنيًا من أصل فرنسي وهولندي المولد. نشر في 1705 كراسة في عشر صفحات بها قصيدة شعر مرح عنوانه «الخلية المتذمرة». ويعتبر موضوعها مفارقة مؤداها أن رخاء الخلية راجع إلى رذائل أفرادها من النحل. إلى جشعها الأناني ونشوتها التناسلية ومشاكستها الجماعية. وبتطبيق هذا التناقض على الخلية الإنسانية. ذهب الطبيب الخبيث إلى أن ثروة الدولة وقوتها لا تعتمدان على فضائل مواطنيها بل على الرذائل التي يندد بها الأخلاقيون المتذمرون بحماقة. فلنتصور ما يحدث لو كفت فجأة كل ضروب حب التملك والغرور والخيانة والمشاغبة. لو لم يأكل الرجال والنساء من الطعام إلا بقدر ما يحتاجون إليه. ولم يلبسوا من الثياب إلا ما يقيهم القر والحر. ولم يغشوا أو يؤذوا بعضهم بعضًا. ولم يتشاجروا. وأدوا ديونهم دائمًا. واحتقروا أسباب الترف. وكانوا أوفياء لأزواجهم. لو حدث هذا لتوقف المجتمع كله فجأة. فترى المحامين يتضورون جوعًا. والقضاة يتركون بغير قضايا أو رشا. والأطباء يذوون لانعدام المرضى. وزراع الكروم يفلسون. والحانات تغلق أبوابها لانعدام شاربي الخمر. وملايين الصناع المهرة الذين ينتجون الغريب من الأطعمة أو الحلي أو الملابس أو البيوت يتعطلون؛ ولن يرغب أحد في أن يكون جنديًا؛ وما يلبث المجتمع أن يقهر ويستعبد. وعطل تأثير الخلية المتذمرة صياغتها في شعر هزلي محطم الوزن. وغاظ هذا الطبيب المغرور. الجشع. المشاغب. فأعاد إصدارها في 1714. وثالثة في 1723. باسم «خرافة النحل» موسعًا إياها المرة بعد المرة بالمقدمات. والملاحظات. والتعليقات التي بلغت بالصفحات العشر مجلدين. وأصغت إنجلترا وفرنسا هذه المرة. لأن هذه الملاحق كانت أقذع ما كتب من تحليلات للطبيعة البشرية.

وإذا أصبح كل واحد ببساطة أنانيًّا، سوف تتحول هذه الأنانية بطريقة سحرية إلى ما هو خير للجميع. إنها نفس القصة التي رواها سميث عن «اليد الخفية» للاقتصاد والتي يمكنها تحويل أنانيتنا وطمعنا إلى انسجام وتوازن، وهي قصة يمكن أن تضاهي أعمق الأسرار اللاهوتية للكنيسة الكاثوليكية[20] والتي تمنحنا المعنى والغفران. ومن خلال جشعك وأنانيتك سوف تتصالح مع الآخرين.

وقال الرئيس دوايت دي. آيزنهاور: «لن تتماسك أمريكا دون إيمان ديني راسخ، ولا يهمني أي دين هو».

وعلى مر القرون نجد الفكرة التي تقول إن الاقتصاد تقوده «يد خفية» قد تطورت لتصبح أسطورة مفادها أن السوق قد يؤدي بنا إلى نهاية التاريخ. ومن المفترض أن مصالحنا الاقتصادية لو أصبحت أكثر ترابطًا، فإن صراعات الماضي البدائية سوف

20- بحلول القرن الحادي عشر من خلال جهود جريجوري السابع. نجحت الكنيسة بتأسيس وإعلان نفسها بأنها كيان مستقل من الناحية القانونية والسياسية داخل المسيحية الغربية. مما أتاح للكنيسة قوة سياسية وتأثير كبير على المجتمع الغربي؛ وكانت قوانين الكنيسة وتشريعاتها القانون النافذ ويمتد تأثيرها إلى السلطات القضائية وحياة والشعوب في جميع أنحاء أوروبا. مما أتاح لها سلطة بارزة. ومن خلال نظام المحاكم الخاص بها. احتفظت الكنيسة بالولاية على جوانب كثيرة من الحياة العادية. بما في ذلك الميراث. والتعليم. والوعود شفوية. وخطاب القسم. والجرائم الأخلاقية. والزواج. وباعتبارها واحدة من أقوى المؤسسات في العصور الوسطى. فقد انعكست المواقف الكنيسة على القوانين العلمانية الحديثة. كانت الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى أقوى مؤسسة في أوروبا وأكثر عالمية وديمقراطية. خصوصًا في المنظمات الرهبانية التي تتبع قوانين القديس بندكت. وغدت الأديرة الملجأ الثقافي والعلمي في أوروبا. وإليها لجأت مختلف النخب لتبرز في الآداب والعلوم وغيرها من الثياب الرهبانية أو الأسقفية. ولعل نشاط دير كلوني أحد أبرز علائم تلك المرحلة.

تصبح غير ضرورية. فأنت لن تطلق النار على ابن عمك لأنه مسلم، إذا كان لديكما مصالح اقتصادية مشتركة، لن تقتل جارك لأن ابنتك قد مارست الجنس معه، إذا كان شركتك تعتمد عليه.

فاليد الخفية تمنعك.

وقد كشفت الأحداث الدموية في القرن العشرين، أن الإنسان في الحقيقة ليس بهذه البساطة ومع ذلك فالقصة جيدة، والقليل منا يراجع مغزى القصة الجيدة.

وفي كل الأحوال، لن نقوم بمراجعتها بعمق.

لقد كان من المفترض أن تكون آلة السوق قادرة على إدارة السلام العالمي، ومنح السعادة للجميع عبر شيء بسيط وعادي مثل مشاعرنا الوضيعة الطبيعية. ولا عجب أن الأمر كان مغريًا. وبعد ذلك لم يعد الاستغلال يؤخذ على محمل شخصي. فالمرأة التي كسر ظهرها وهي تعمل من أجل ستة دولارات في الساعة لا تفعل ذلك لأنها تعاملت مع شخص شرير أو لأن أحدهم حكم عليها بذلك. لا أحد مذنب، لا أحد مسؤول. إنه الاقتصاد فحسب. والاقتصاد أمر لا مفر منه. فهو يعيش في كيانك. وواقعيًا، يشكل الاقتصاد أساس كل شيء في أعماق أنفسنا طالما أننا جميعًا مثل الرجل الاقتصادي.

الفصل الثالث

وفيه يتضح أن الرجل الاقتصادي ليس امرأة

عبر التاريخ، سمح الرجال لأنفسهم بالتصرف وفقًا للمنفعة الخاصة، كما هي الحال في الاقتصاد، وكذلك في الجنس. أما النساء، فكانت هذه الحرية «تابوه»[21].

فقد كلفت المرأة بمهمة رعاية الآخرين، وليس تحقيق أقصى منفعة خاصة. وأخبرها المجتمع أنها لا تستطيع أن تكون عقلانية لأن الولادة والحيض يربطانها بالجسد واعتبروا الجسد مناقضًا للعقلانية.

ولطالما انتقدت الشهوة والطمع عند النساء أكثر من الرجال باعتبارهما شيئًا مهددًا ومدمرًا وخطيرًا وغير طبيعي. وقالت الكاتبة الإنجليزية ريبيكا واست[22]: «يلقبني الناس بالنسوية كلما أعربت عن مشاعر تميزني عن كوني خرقة أو عاهرة». لم يسمح للنساء قط بأن يكن أنانيات مثل الرجال.

وإذا كان الاقتصاد هو علم المنفعة الخاصة، فكيف يكون للمرأة مكان فيه؟

والإجابة عن هذا السؤال هي أن الرجل هو من يجسد المنفعة الخاصة، بينما تمثل المرأة الحب الهش الذي ينبغي الحفاظ عليه من خلال إقصائها.

21- كلمة غير عربية تطلق على المحرمات وفق أعراف المجتمع أو السياسة أو ما شابه.

22- Rebecca West مؤلفة، وصحفية، وناقدة أدبية بريطانية. تميزت بإنتاجها الأدبي الغزير وقد عرفت بدفاعها عن التحرر وعن مبادئ الحركة النسائية.

وعلى الرغم من أن كلمة «الاقتصاد» ذاتها اشتقت من الكلمة اليونانية إيكوس[23]، ومعناها: منزل، فقد ظل الاقتصاديون غير معنيين بما يحدث داخل المنزل.

لقد قيل إن المرأة جبلت على التضحية، مما يقيدها بمجال خاص ليس له صلة بالمجال الاقتصادي. إن الأنشطة التي تقوم بها المرأة، ومنها تربية الأطفال والتنظيف والغسيل والكي لأسرتها لا تقدم منتجات منقولة يمكن شراؤها أو استبدالها أو بيعها. واعتقد الاقتصاديون في القرن التاسع عشر أن هذه الأعمال لا تصنع الثروة وأن الرخاء يتمثل في كل ما يمكن نقله، وعروضه ترتبط تحديدًا بنوع جنس واحد وعليه إما أن يقدم المتعة أو يمنع الألم، بشكل مباشر أو غير مباشر.

وهذا التعريف جعل من كل شيء تنخرط في عمله النساء غير مرئي.

أما عمل الذكور فثماره تراكمية ويمكن قياسها بالمال أما عمل النساء فثماره غير ملموسة مهما كانت. فالغبار الذي جرفته يتراكم ثانية، والأفواه التي أطعمتها وأشبعتها تجوع ثانية، والأطفال الذين

23- تشير الكلمة اليونانية القديمة oikos (اليونانية القديمة: οἶκος، الجمع: οἶκοι : البادئة الإنجليزية: eco- للإيكولوجيا والاقتصاد) إلى ثلاثة مفاهيم مرتبطة ولكنها متميزة: الأسرة، وممتلكات الأسرة، والمنزل. يتغير معناها حتى داخل النصوص، مما قد يؤدي إلى الارتباك. كانت oikos الوحدة الأساسية للمجتمع في معظم دول المدن اليونانية. في الاستخدام العادي في العلية، أشارت oikos، في سياق العائلات، إلى خط النسب من الأب إلى الابن من جيل إلى جيل. بدلًا من ذلك، كما استخدمه أرسطو في كتابه «السياسة». كان المصطلح يستخدم أحيانًا للإشارة إلى كل شخص يعيش في منزل معين.

أنامتهم يستيقظون ثانية. وبعد وجبة الغذاء يحين وقت تنظيف الأطباق المتسخة. وبعد الأطباق يحين وقت إعداد وجبة العشاء وبعده تتراكم المزيد من الأطباق التي تحتاج إلى تنظيف.

إن الأعمال المنزلية دورية بطبيعتها. ومن ثم، لم يكن عمل المرأة «نشاطًا اقتصاديًا». وما تقوم به هو مجرد امتداد منطقي لطبيعتها المحبة والعادلة. فهي تقوم بهذا العمل دائمًا، ومن ثم لا داعي لإهدار الوقت في حسابه أو قياسه كميًا. فهو يحمل منطقًا يختلف عن المنطق الاقتصادي.

إنه منطق مصدره طبيعة الأنثى وما إلى ذلك.

وقد تغير هذا النهج برمته في حقبة الخمسينيات. فقد بدأت مجموعة من الرجال في كلية الاقتصاد بجامعة شيكاغو، يرون أنه يمكن تحليل جميع الأنشطة البشرية بمساعدة النماذج الاقتصادية بما في ذلك الأنشطة الاقتصادية التي تمارسها النساء. إننا لم نكن عقلانيين لأننا قد تنافسنا من أجل الحصول على مكافآتنا التالية أو قمنا بالمساومة في وكالات السيارات فقط، ولكننا كنا عقلانيين أيضًا لأننا قمنا بالتنظيف خلف الأريكة، أو نشرنا الغسيل أو أنجبنا الأطفال، حسبما اعتقدوا. وكان أشهر هؤلاء الاقتصاديين

شابًّا من بنسلفانيا يدعى جاري بيكر[24].

وبالتعاون مع باحثين آخرين في جامعة شيكاغو، بدأ جاري بيكر يسلط الضوء على ظواهر مثل الأعمال المنزلية والحياة الأسرية وأدرجها في النماذج الاقتصادية.

قد يرى المرء أن ما حدث في شيكاغو شيء غريب، وهو ما يطلق عليه «مدرسة شيكاغو»، والتي تتميز بأجندتها النيوليبرالية[25] الصارمة كما تشتهر بتشددها الاقتصادي.

لقد ازدهرت تلك المدرسة بعد الحرب وأصبحت تعرف بأنها معقل النقاد الاقتصاديين الذين كانوا ضد تدخل الدولة في السوق. هنا، ومن على ضفاف بحيرة ميتشجان، نادى الناس بصوت عال أكثر من أي مكان آخر مطالبين برفع القيود التنظيمية وخفض الضرائب. أما ميلتون فريدمان[26]، الذي قام فيما بعد وبطريقة ذات صبغة دينية

24- Gary Becker عالم اقتصاد وحائز على جائزة نوبل كان مهتمًا بالهيكل الاقتصادي والنظرية والتطبيق العملي وبالطبع كان له تأثير عميق على الاتجاه الذي اتخذه في البحث ثم التقى ريج لويس فاستخدم النظرية الاقتصادية في تحليل أسواق العمل والتقى أيضًا شولتز الرائد في نظرية رأس المال البشري. وهارون مدير التطبيقات الاقتصادية ومشاكل مكافحة الاحتكار.

25- تهدف إلى التوفيق بين حقوق الفرد والجماعة. وتسمح للدولة بالتدخل. ووضع معايير أكثر إيجابية للتحقق من وجود فرص متساوية للأفراد لنيل الحرية والنجاح.

26- Milton Friedman هو عالم اقتصاد أمريكي)1912 -2006(. فاز بجائزة نوبل في العلوم الاقتصادية عام 1976 لإنجازاته في تحليل الاستهلاك والمعروض النقدي ونظريته في شرح سياسات التوازن وبالاشتراك مع جورج ستيجلر وآخرين. كان فريدمان من بين القادة الفكريين للجيل الثاني من نظرية سعر شيكاغو)مدرسة شيكاغو للاقتصاد(. وهي نزعة منهجية نشأت في جامعة شيكاغو قسم علم الاقتصاد. وكلية الحقوق وكلية الدراسات العليا لإدارة الأعمال من الأربعينيات فصاعدًا. أصبح العديد من الطلاب والأساتذة الشباب الذين تم تعيينهم أو إرشادهم من قبل فريدمان في شيكاغو خبراء اقتصاديين بارزين. بما في ذلك غاري بيكر وروبرت فوغل وتوماس سويل وروبرت لوكاس جونيور.

بإلهام السياسيين اليمينيين مثل مارجريت تاتشر، فقد انضم إليهم عام 1946؛ وتبعه صديقه جورج. جي. ستيجلير[27] عام 1958.

لماذا بدأ الاقتصاديون إذًا، وتحديدًا في شيكاغو، يهتمون بالمرأة؟

وقدم الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو[28] سلسلة من المحاضرات في كوليج دو فرانس Collège de France في باريس عام 1979، وهو العام الذي أصبحت فيه مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا العظمى، وبدأت أفكار النيوليبرالية تكتسب شرعيتها. وقد عبر فوكو عن قلقه الشديد عندما تطرق إلى أفكار جاري بيكر قائلًا: يتلخص

27- George J. Stigler ولد في سياتل بولاية واشنطن في عام 1911 من أصول نمساوية ومجرية والتحق بجامعة شيكاغو في 1938. حيث التقى بثلاثة من علماء الاقتصاد فرانك فارسو ويعقوب فينر وهنري سايمونز وتأثر بكل من دبليو ألين وأليس وميلتون فريدمان وعمل في شيكاغو في الاقتصاد والإدارة والتفاعل الثقافي.

28- Michel Foucault (1926 - 1984) فيلسوف فرنسي. يعتبر من أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن العشرين. تأثر بالبنيويين ودرس وحلل تاريخ الجنون في كتابه «تاريخ الجنون». وعالج مواضيع مثل الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعية في السجون. ابتكر مصطلح «أركيولوجية المعرفة». أرخ للجنس أيضًا من «حب الغلمان عند اليونان» وصولًا إلى معالجاته الجدلية المعاصرة كما في «تاريخ الجنسانية».

جوهر مدرسة شيكاغو [29] في أن كل جزء من أجزاء المجتمع يمكن تحليله باستخدام المنطق الاقتصادي. وكان بيكر يرى أن جميع الناس كانوا على غرار الرجل الاقتصادي، ومن ثم كان المنطق الاقتصادي هو كل ما نحتاجه كي نفهم العالم أيًا كان الجانب الذي أردنا دراسته. إن كل شيء يتعلق بالاقتصاد، وبالتالي يمتد نطاق اقتصاد الدولة ليصبح نظرية تشمل العالم بأسره.

يعتقد فوكو أن جاري بيكر كان مثيرًا للاهتمام باعتباره ظاهرة، إلا أن أفكاره كانت راديكالية بعض الشيء. ولا يمكن حتى للقوى النيوليبرالية النامية أن تأخذ الإمبريالية الاقتصادية التي تكلم عنها بيكر على محمل الجد. وبعد ذلك بثلاثة عشر عامًا، وفي عام 1992، منح جاري بيكر جائزة ألفريد نوبل في العلوم الاقتصادية.

29- Chicagoskolans تصف المدرسة الفكرية الكلاسيكية الحديثة في المجتمع الأكاديمي للاقتصاديين. بتركيز قوي حول طاقم تدريس جامعة شيكاغو، الذين بنى بعضهم وعمر مبادئها. ويشار إليها أحيانًا باسم مدرسة المياه العذبة freshwater school في الاقتصاد، بالمقارنة مع مدرسة المياه المالحة المتمركزة في الجامعات الساحلية (أبرزهم هارڤارد، إم آي تي وبركلي) ويفتخر قسم الاقتصاد بجامعة شيكاغو، الذي يعتبر أحد أهم أقسام الاقتصاد في العالم، بتخريجه أكبر عدد من حائزي جائزة نوبل وميدالية جون بينس كلارك في الاقتصاد مقارنة بأي جامعة أخرى. قد تعتبر «مدرسة شيكاغو» واحدة من أشهر «مدارس» الاقتصاد الأمريكية. بأضيق معانيها، تشير «مدرسة شيكاغو» إلى منهج أعضاء قسم الاقتصاد بجامعة شيكاغو على مدار القرن الماضي. بمعناه الفضفاض، يرتبط مصطلح «مدرسة شيكاغو» بسمة اقتصادية معينة والتي تلتزم تمامًا بنظرية السعر الكلاسيكية الحديثة في تحليلها الاقتصادي، تحررية «السوق الحر» في معظم عملها السياسي ومنهجيتها والتي is relatively averse إلى الكثير من الشكليات الرياضية والاستعداد للتنازل عن المنطق التوازن العام الحذر لصالح تحليل التوازن الجزئي results-oriented. ترتبط مدرسة شيكاغو بنظرية السعر الكلاسيكية الحديثة والتحررية في دعمها لتخفيض الضرائب وتنظيم القطاع الخاص. لكنها تختلف عن اقتصاد السوق الحر الخالص في دعمها السياسة النقدية التي تنظمها الحكومة.

وبحلول هذا العام، كان قد مر على وفاة ميشيل فوكو سبع سنوات، وأصبح تعريف جاري بيكر للاقتصاد –على أنه منطق يمكن تطبيقه على العالم كله– تعريفًا عالميًّا. لقد أصبح الرجل الاقتصادي مهيمنًا لدرجة أن الاقتصاديين لم يعودوا مهتمين إذا كان النشاط ينتج سلعًا متنقلة مادية محددة السعر أم لا. وفي عالم الرجل الاقتصادي، كان لكل شيء ثمن، الشيء الوحيد الذي اختلف هو العملة. وفجأة، أصبحت المهام الروتينية التي أسندت، تقليديًّا، للأنثى يمكن تحليلها اقتصاديًّا.

إن الاقتصاديين في مدرسة شيكاغو هم أول من بدأ في أخذ النساء على محمل الجد باعتبارهن جزءًا لا يتجزأ من الاقتصاد، إلا أن المشكلة كانت تكمن في طريقة تناولهم لهذه المسألة. وقالت الخبيرة الاقتصادية باربرا بارجمان[30] عن هؤلاء الاقتصاديين: «أن ندعي بأن توجههم «ليس نسويًّا» سيكون تقليلًا كبيرًا من قدرهم مثلما ندعي أن النمور البنغالية ليست نباتية».

دخل الاقتصاديون في مدرسة شيكاغو العالم الذي قصره المجتمع على المرأة وهم مسلحون بنماذجهم الاقتصادية، وخرجوا منه ليكشفوا لنا عما كانوا يدركونه بالفعل. فقد كانوا يمتلكون الإجابة بالطبع: إنه الرجل الاقتصادي. الحلم بأن يصبح كل شيء متماثلًا وموضوعيًّا ونقيًّا وواضحًا تمامًا. إنه النظام

30- Bergmann Barbara عالمة اقتصاد أمريكية (1927 - 2015).

الحتمي[31].

ومن المسلم به أن النساء تم إقصاؤهن لآلاف السنين وبشكل منهجي، وهن مستبعدات من فئات المجتمع التي تقبض على تلابيب السلطة الاقتصادية والسياسية، إلا أن ذلك كان مجرد خطأ يعبر عن التجاهل. ويمكن للمرأة بالطبع أن تكون شخصًا اقتصاديًّا، تمامًا مثل الرجل، لو كانت مثله مستقلة ومعزولة وقادرة على التنافس، وبوسعها أن تكون كذلك. وينبغي ببساطة أن تكون كذلك، وماذا يمكن أن تكون غير ذلك؟

بدأ الاقتصاديون في مدرسة شيكاغو في طرح أسئلة جديدة تمامًا انطلاقًا من نفس المنطق الاقتصادي. وتساءلوا: لماذا يتزوج الناس؟ كي يحققوا أقصى ما يمكن من منافعهم الخاصة. لماذا ينجب الناس الأطفال إلى العالم؟ كي يحققوا أقصى ما يمكن من منافعهم الخاصة. لماذا يحصل الناس على الطلاق؟ كي يحققوا أقصى ما يمكن من منافعهم الخاصة. إن الاقتصاديين كتبوا صيغهم وأعدوا معادلاتهم. انظر، انظر، إنها تعمل! حتى مع النساء.

فإذا كانت المرأة تحصل على أجر أقل، فلا بد أن ذلك بسبب أنها

31- يعرف النظام الحتمي في الرياضيات: على أنه نظام لا يتضمن أي عشوائية في تطور حالة النظام مع الزمن. وعليه فإن النماذج الحتمية تنتج خروجًا مماثلًا من أجل حالة دخول متماثلة.

تستحق أجرًا أقل. لقد كان العالم مكانًا عقلانيًا وكان السوق دائمًا على حق؛ إذا قرر السوق أن المرأة ينبغي أن تحصل على أجر أقل، فلا بد أن يكون ذلك هو ما تستحقه. وتمثلت مهمة الاقتصاديين ببساطة في توضيح سبب قيام السوق بإجراء تقييم صحيح حتى في هذه الحالة.

وفسر الاقتصاديون في مدرسة شيكاغو تدني أجور النساء أنها ترجع إلى أنهن أقل إنتاجية من الرجال. لم تكن النساء كسولات أو أقل إنتاجية ولكن لم يكن من المنطقي أن تبذل المرأة نفس القدر من الجهد في العمل مثل الرجل. فلا بد أن تنقطع المرأة عن عملها وحياتها المهنية كل عامين كي تلد طفلًا. وليس هناك مجال لمواصلة تعليمها أو استثمارها لنفس القدر من الجهد الذي يبذله الرجل. لذا استثمرت النساء بشكل أقل في حياتهن المهنية ومن ثم حصلن على أجر أقل.

لقد كان هذا التحليل مؤثرًا للغاية، ولكن عندما تم اختبار النظريات في الواقع، بدا من الواضح أن تلك التفسيرات لم تكن بعيدة عن الصحة. وهناك نساء كثيرات يحصلن على نفس مستوى التعليم الذي يحصل عليه الرجال ومع ذلك ما زلن يتقاضين أجرًا أقل، بغض النظر عن قدر الجهد الذي يقمن به. وعلى ما يبدو أن هناك شيئًا يسمى «التمييز»، فكيف يمكن للاقتصاديين في مدرسة شيكاغو تفسير وتبرير ذلك؟

إن نظرية جاري بيكر حول التمييز العنصري على أساس العرق هي المحاولة الأكثر شهرة. فقد أكد بيكر أن التمييز العنصري حدث لأن بعض الأشخاص كانوا يفضلون ببساطة عدم الاختلاط بالسود. وإذا كان جميع الناس عقلانيين ولا يزال التمييز قائمًا، فلا بد أن يكون حتى هذا التمييز عقلانيًّا أيضًا.

إن الزبون الذي تصادف أنه عنصري قد لا يفضل الذهاب إلى مطعم يخدم فيه السود بالطريقة نفسها التي يفضل بها شرب قهوته مع أربع قطرات من الحليب. وحسب بيكر فإن هذا يعني أيضًا أن بعض الزبائن قد تنفر من القوى العاملة السوداء في المحال التجارية، وللتعويض عن ذلك، يدفع صاحب العمل أجورًا أقل للسود. وقد يطالب العمال البيض العنصريون كذلك بتعويض لأنهم مضطرون للعمل مع السود، وقد يطالب الزبائن العنصريون بأسعار أقل: إذا رغب المرء في جذب الزبائن العنصريين على الرغم من وجود عمال سود، فينبغي عليه تعويضهم عن وجود أيدٍ سوداء تحزم البضائع في المخازن. وكل هذا يقلل من أجور العمال السود.

يعتقد جاري بيكر أن التمييز شيء مزعج. إلا أنه كان مقتنعًا بأن السوق يمكن أن يحل تلك المسألة. كل ما علينا فعله حيال ذلك هو ألا نفعل شيئًا.

فالمتجر (أ)، الذي لا يعمل به إلا عمال بيض، سوف يخسر في

نهاية المطاف مقارنة بالمتجر (ب) الذي سيحقق أرباحًا أكثر لأن كل عماله من السود الذين يتقاضون أجورًا أقل. علاوة على ذلك، ستدرك الشركات أن تقسيم القوى العاملة سيكون أرخص. يمكن للسود والبيض العمل في متاجر مختلفة داخل نفس الشركة، وبالتالي لن يضطر صاحب العمل أن يدفع أجورًا أعلى للعمال العنصريين البيض كتعويض.

بعبارة أخرى: كل شيء سيكون عادلًا، وسيتقاضى الجميع أجورًا أقل.

وتكمن المشكلة في أن الأمر لم يتطور بالطريقة التي توقعها الاقتصاديون. لم يتوقف التمييز العنصري، سواء ضد السود أو النساء. وعندما يتعلق الأمر بالتمييز بين الجنسين تحديدًا، سنجد في جعبتهم بالتأكيد مبررات أخرى. وصاغ جاري بيكر تفسيره حول الأعمال المنزلية كالتالي:

ماذا تفعل المرأة المتزوجة عندما تعود إلى المنزل بعد العمل؟ إنها تمسح المناضد، وتغسل وتكوي الملابس، وتؤدي الفروض المدرسية مع الأطفال. فماذا يفعل الرجل المتزوج عندما يعود إلى المنزل بعد العمل؟ فقد تخيل بيكر أنه يقرأ الجريدة ويشاهد التلفاز وربما يلعب قليلًا مع الأطفال.

وتقضي النساء اللواتي يعملن بشكل احترافي جزءًا كبيرًا من

وقت فراغهن في الأعمال المنزلية وهو أمر مرهق علاوة على أنه عمل مجاني. وهذا، وفقًا لبيكر، قدم مبررات عقلانية لتقاضي المرأة أجرًا أقل. إن قراءة القصص ومسح المناضد وغيره من الأعمال المنزلية تجعلهن يرهقن أكثر من الرجال، ومن ثم لن يبذلن نفس الجهد الذي يبذله الرجال في العمل في الوقت نفسه، وأكد الاقتصاديون عكس ذلك، وهو أن السبب في قيام النساء بمزيد من الأعمال المنزلية هو أنهن يحصلن على أجر أقل. ولأن النساء تتقاضى أجورًا أقل، فإن ما ستخسره الأسرة سيكون أقل بسبب وجود المرأة في المنزل.

وبعبارة أخرى، كان سبب تدني أجور النساء هو قيامهن بالمزيد من الأعمال المنزلية، لكن حقيقة أن النساء يقمن بالمزيد من الأعمال المنزلية كان بدوره بسبب أن أجورهن أقل.

ولما حسب الاقتصاديون في مدرسة شيكاغو ذلك وجدوا أنفسهم في دوائر مفرغة.

واستندت نظريات أخرى حول المرأة والأعمال المنزلية، إلى فكرة مفادها أن المرأة ببساطة ولدت من أجل ذلك. وإذا كان صحيحًا أن الكثير من النساء قمن بغسل الأطباق ومسح مخاط الأطفال ووضعوا قوائم بالأغراض التي ينبغي عليهن شراؤها، فلا بد أن ذلك راجع إلى أن ذلك هو التقسيم الأمثل للعمل. وقام

الاقتصاديون بتصميم نموذج الأسرة باعتباره وحدة أحادية[32] ذات إرادة واحدة، وهو شكل من أشكال الأعمال التجارية الصغيرة التي تعمل بشكل مستقل على أساس المنفعة المشتركة.

يمسك الرجل حقيبة أوراقه بينما تمسك المرأة بوعاء الطهي لأن المرأة هي الأفضل في الأعمال المنزلية. إذا كان الرجل قد أمسك بوعاء الطهي، فسيكون أقل كفاءة وسوف تكون الأسرة ككل هي الخاسرة. فكيف يتسنى للاقتصاديين معرفة ذلك؟ حسنًا، لولا انتفاع الأسرة من تولي النساء الأعمال المنزلية، لتولى الرجال ببساطة القيام بالأعمال المنزلية. وهم لا يفعلون ذلك.

إنهم لم يصوغوا أي حجج حقيقية وعقلانية تبرر أن النساء هن الأكثر كفاءة في إدارة المنزل. وإذا كانوا قد كتبوا أي شيء في هذا الصدد، فإنهم لم يذكروا سوى أنه شيء يتعلق بطبيعة المرأة البيولوجية.

32- برز هذا النمط من الأسر في الدور المتوسط من المرحلة البربرية. استمرت سيادة الرجل في المجتمع وعلى المرأة الاكتفاء برجل واحد. وقلت قيمتها الاجتماعية واحترامها. وأصبحت مجرد أداة للمتعة والإنجاب وتربية الأولاد والعمل في المنزل.

وعند إضفاء الشرعية على النظام البطريركي[33]، دائمًا ما تتم إحالة الشخص إلى الجسد فحسب. وأن تكون إنسانًا يعني أن تخضع جسدك لعقلك، ولم يكن يبدو أن المرأة قادرة على القيام بذلك، وبالتالي لا ينبغي أن تتمتع بحقوق الإنسان أيضًا، حسبما يرى المجتمع. لقد أصبحت المرأة «جسدًا» ومن ثم يمكن أن يكون الرجل «روحًا». لقد قيدوها بشدة بعالم الجسد حتى يتحرر الرجل منه.

وبعبارة أخرى، وجد الاقتصاديون في مدرسة شيكاغو أن الإشارة إلى علم البيولوجي هو التفسير الأسهل. ومنذ القرن الثامن عشر، وهم يدعون أن الأمر يتعلق بالطبيعة البيولوجية مما يعني أنه لا يمكن ولا ينبغي تغييرها. غير أن المسألة لا تتعلق بالفروق البيولوجية وإنما بما يترتب على تلك الفروق من استنتاجات وتضمينات. أن تحمل المرأة الطفل يعني أن المرأة هي من تحمل الطفل ولا يعني أنه ينبغي عليها البقاء في المنزل وتظل ترضعه

33- يشتق مصطلح «البطريركية» (patriarchy) من كلمة «patriarches» اليونانية التي تعني كبار السن من الذكور، ويقصد بها الآباء زعماء العائلات والقبائل والكنائس. في الأنثروبولوجيا الكلاسيكية، يشير مصطلح "النظام البطريركي" إلى العائلات والفئات الاجتماعية والهيكليات المهنية والسياسية التي يتولى فيها الرجال مواقع السلطة. بالنسبة إلى النسويات في أوروبا وأمريكا الشمالية، يقصد بالبطريركية نظام اجتماعي للهيمنة الذكورية على النساء. وفي السياق اللبناني، عرفت العالمة الأنثروبولوجية النسوية سعاد جوزيف البطريركية على أنها "تفضيل الذكور والأكبر سنًّا واستغلال بنى القرابة وأخلاقياتها واصطلاحاتها لتشريع السيطرة القائمة على أسس النوع الاجتماعي والعمر ومأسستها". ويشار أيضًا إلى النظام نفسه بمصطلح "الأبوية" في اللغة العربية وفي بعض أوساط الناشطين/ الناشطات للدلالة على صورة الأب بوصفه الزعيم.

حتى يصل للمرحلة الثانوية. وأن يحتوي كوكتيل هرمون المرأة على استروجين أكثر يعني أن كوكتيل هرمونات المرأة يحتوي على نسبة استروجين أكبر ولا يعني أنها لا ينبغي أن تدرس علم الرياضيات. وأن يكون بجسد المرأة -دون غيرها- عضو وظيفته الوحيدة منحها المتعة يَعني أن بجسد المرأة -دون غيرها- عضوًا وظيفته الوحيدة منحها المتعة ولا يعني أنها ينبغي أن تبقى في المنزل ولا تنتمي إلى مجلس إدارة الشركة.

وباعتراف الجميع زعم سيجموند فرويد أن المرأة كانت أفضل بطبيعتها في التنظيف.

لقد اعتقد أبو التحليل النفسي أن ذلك بسبب الأوساخ الموجودة في المهبل. وأن النساء يقمن بتنظيف المنزل ومسح الغبار كي يعوضن المشاعر التي تعتمل داخل أجسادهن. ولكننا الآن، نعرف أن فرويد لم يكن يعرف الكثير عن المهبل، أليس كذلك؟ فالعضو التناسلي للمرأة هو نظام أنيق ذاتي التنظيم، أنظف بكثير من أفواهنا على سبيل المثال، وبه عدد العصيات اللبنية[34] التي لا تحصى (مثل النوع الموجود أيضًا في الزبادي) تعمل على مدار الساعة لجعل الأشياء تسير وفق نظام فائق. وعندما يكون المهبل

34- أو اللاكتوباسيلس: هي أحد أنواع بكتيريا حمض اللبنيك Lactic acid، وهي الأكثر انتشارًا وتتواجد في منتجات الألبان وفي الأطعمة المخمرة مثل الزبادي، ويساعد هذا النوع من البكتيريا في علاج الإسهال. وهي مفيدة أيضًا للأشخاص الذين لا يقدرون على هضم اللاكتوز.

بصحة جيدة يكون أكثر حمضية من القهوة السوداء (pH-5)[35] ولكنه أقل حمضية من الليمون (pH-2). لم يكن فرويد إذًا يعرف عما يتحدث، ولا يوجد شيء في طبيعة المرأة البيولوجية يجعلها ملائمة أكثر لأداء الأعمال المنزلية غير مدفوعة الأجر أو يجعلها تستهلك جسدها في عمل شاق في القطاع العام بأجر زهيد. إذا كنت تريد إضفاء الشرعية على العلاقة الكلية بين القوة الاقتصادية وحيازة القضيب الذكري، فسوف يتعين عليك البحث في مكان آخر.

ولم يبلغ الاقتصاديون في مدرسة شيكاغو هذا المدى أبدًا. وحتى مع العمل ضمن ما افترضوه من أطر، يبدأ المرء في طرح الأسئلة. هل تقسيم العمل داخل الأسرة شيء عقلاني حقًّا؟ هل من «المفيد» أن يكرس شخص بالغ نفسه للأعمال المنزلية والآخر للعمل المهني خارج المنزل؟ وحتى لو كان العالم عقلانيًّا تمامًا فما مدى معقولية أن تقرر الأسرة أن شخصًا بالغًا ينبغي أن يقضي كل وقته في أداء الأعمال المنزلية غير مدفوعة الأجر والآخر يقضي كل وقته في عمل مدفوع الأجر خارج المنزل؟ لا يهم من يفعل ماذا، لكن هل تقسيم العمل هذا فعال حقًّا؟

نعم، من المحتمل أن يكون فعلًا إذا كان لديك أربعة عشر طفلًا، ولا يوجد لديك غسالة أطباق ولا حفاضات من القماش

35- الأس الهيدروجيني أو الرقم الهيدروجيني أو درجة الحموضة أو باهاء.

ينبغي القيام بغليها في حوض كبير بالحديقة. وعندما تتطلب الأعمال المنزلية مثل هذا الوقت والجهد، فإن تخصيص شخص واحد للقيام بها سيكون على الأرجح هو الأكثر فعالية. إن المهام الروتينية ثقيلة ومعقدة، ولأنك تقضي كل ساعات صحوك في القيام بها فسوف يتحسن أداؤك لها رويدًا رويدًا. إن تخصيص شخص واحد للأعمال المنزلية يجعل الأسرة ككل أكثر إنتاجية. ولكن في مجتمع حديث وفي عائلة بها عدد أقل من الأطفال، لا يمكن أن يكون المكسب من وراء هذا التقسيم للعمل كبيرًا لهذا الحد.

إن الضغط على زر غسالة الأطباق أو تغيير كيس المكنسة الكهربائية لا يتم بسرعة أكبر لمجرد أنك كنت تقوم به بدوام كامل منذ عشر سنوات، لكن الاقتصاديين في مدرسة شيكاغو لا يفكرون بشكل تقدمي.

علاوة على ذلك، نجد أن منطقهم يعتمد دومًا على أن الخبرات التي يكتسبها المرء في أداء الأعمال المنزلية ليست مفيدة في السوق المفتوح. لقد استنتجوا أن الشخص الذي يتحمل مسؤولية الحياة المنزلية يفتقر إلى الخبرة المكتسبة من العمل، لذا فمن الطبيعي أن تحصل هي أو هو على أجر أقل، حسب اعتقادهم، بمعنى أن ما يتعلمه المرء من العمل غير مدفوع الأجر في المنزل ينطبق فقط على المنزل.

ولكن من يملك أن يدعي أنك لا تستطيعين أن تكوني واحدة من أفضل المديرين وأنت تقومين بالأعمال المنزلية وتديرين شؤون الأسرة بسلاسة؟ أو يدعي أنك لا يمكن أن تعملي، على سبيل المثال، خبيرة في الإحصاء أكثر حذقًا وأنت تقومين برعاية الأطفال؟ بصفتك أحد الوالدين، فأنت اقتصادي/ة، دبلوماسي/ة، وسياسي/ة، وطاهي/ة، وممرض/ة، كما تحب/ تحبين اللعب والمرح، وصبور وقادر/ة على المساومة وتقديم التنازلات وقادر/ة على الرد على الأسئلة الكبرى: أمي، لماذا السماء زرقاء؟ أبي، لماذا يحمل الكنجارو طفله داخل بطنه؟ أمي، كم يبلغ مدى الأبدية؟

عندما يفترض أحد، مثل الاقتصاديين في مدرسة شيكاغو، أن الأعمال المنزلية ذات منفعة مشتركة للجميع، فإن الخلافات داخل الأسرة سوف تصبح غير مرئية. ومن الطبيعي في الحقيقة أن يؤثر الدخل المكتسب من خارج المنزل على علاقات توازن القوى داخل الأسرة ويمكن أن يؤثر بدوره على الاختيارات التي تتخذها الأسرة.

فسلطة الأم ليست أقل من الأب لأن الأخير هو من يسدد الفواتير.

إن المنافسة والقوة الشرائية مهمتان في كل مكان باستثناء داخل الأسرة -مثل الكثير من الأشياء الأخرى التي تعد جزءًا مما نسميه علم الاقتصاد- وهذه فرضية غير منطقية.

وبغض النظر عما حسبه الاقتصاديون، فقد توصلوا لاستنتاج مفاده أن تبعية النساء كانت عقلانية. ومن ثم ينبغي أن يكون وضعهن الاقتصادي المتدني حول العالم نتيجة لإرادة حرة واختيار حر، ولأي نتيجة أخرى يمكن أن نعزوه؟

إن صورة الفرد في قصة الاقتصاد غير مجسدة وبالتالي يزعمون أنها بلا جنس. في الوقت نفسه، يتمتع الرجل الاقتصادي بالصفات التي تنسبها ثقافتنا، تقليديًّا، إلى الذكورة[36]. فهو عقلاني، معزول، موضوعي، تنافسي، وحيد، مستقل، أناني، يحكمه العقل ومندفع في عملية غزو العالم.

إنه يعرف ما يريد، ويبذل قصارى جهده كي يحصل عليه.

كل ما لا يملكه هو: المشاعر، الجسد، التبعية، صلة الرحم، التضحية، العطف، الطبيعة، عدم القدرة على التنبؤ، السلبية، الترابط؛ وهو ما يرتبط تقليديًّا بالمرأة.

ويقول الاقتصاديون إن هذا محض مصادفة.

عندما اكتشف الاقتصاديون في مدرسة شيكاغو أن النساء موجودات، قاموا بإضافتهن إلى النموذج مثلهم مثل الرجل الاقتصادي تمامًا، لكن ثبت أن ذلك أصعب مما كان جاري بيكر

36- manlighet يعبر مصطلح الذكورة المهيمنة عن نمط سائد تندرج تحته الممارسات الذكورية الجندرية.

يتخيله. فمنذ عصر آدم سميث، كانت النظرية حول الرجل الاقتصادي تعتمد على وجود شخص آخر مسؤول عن الرعاية والمراعاة.

إن الرجل الاقتصادي يمثل تحديدًا العقل والحرية لأن هناك شخصًا آخر يمثل العكس. ويمكن القول إن العالم محكوم بالمنفعة الخاصة لأن هناك عالمًا آخر محكومًا بشيء آخر، وينبغي الفصل بين هذين العالمين، عالم للذكور مستقل بذاته، وعالم للنساء العاملات[37] مستقل بذاته.

إذا كنت تريد أن تكون جزءًا من قصة الاقتصاد، فلا بد أن تكون مثل الرجل الاقتصادي. وعليك أن تقبل بروايته عن الرجولة. وفي الوقت نفسه، فإن ما نسميه علم الاقتصاد يعتمد باستمرار على قصة أخرى. وكل شيء تم استبعاده وإقصاؤه حتى يتمكن الرجل الاقتصادي أن يكون على ما هو عليه.

ومن ثم يمكنه أن يقول إنه لا يوجد أي بديل آخر. إنه الجنس الوحيد وثيق الصلة بالموضوع.

لا بد أن يكون هناك شخص عاطفي، حتى يكون هو عقلانيًّا، لا بد أن يكون هناك شخص يمثل الجسد، حتى لا يكون هو جسدًا. لا بد أن يكون هناك شخص تابع، حتى يكون هو مستقلًّا. لا بد

37- kvinnliga نادي العاملات النسائي أو اتحاد عمال النساء.

أن يكون هناك شخص عطوف، حتى يتمكن من السيطرة على العالم وغزوه. لا بد أن يكون هناك شخص يضحي بنفسه، حتى يكون هو أنانيًّا.

لا بد أن يكون هناك شخص عليه تحضير شريحة من اللحم، حتى يتمكن آدم سميث من القول إن عمل ذلك الشخص ليس مهمًّا.



الفصل الرابع

وفيه نكتشف أن العقد الذي أبرمناه مع الرجل الاقتصادي ليس كما توقعناه

قال وودي ألان: «إن علم الاقتصاد يتعلق بالمال ولذلك نعتبره شيئًا جيدًا». ومن الضروري أن نضيف هنا أن الأمر ليس بمثل هذه البساطة.

وذات مرة قام الاقتصادي البريطاني جون ماينارد كينز[38]، بحساب كل جنيه إسترليني نهبه البحار فرانسيس دريك[39] من إسبانيا في عام 1580، وأعاده إلى ملكة بريطانية فوجد أن قيمته تزايدت بعد 350 عامًا لتبلغ 100.000 جنيه إسترليني، وهو المبلغ الإجمالي الذي يعادل إجمالي ثروة الإمبراطورية البريطانية خارج أوروبا وهي في ذروة مجدها، هكذا كتب كينز.

38- John Maynard Keynes ولد جون ماينارد كينز في 5 يونيو/ 1883 في كامبريدج. وتوفي في 21 إبريل/نيسان 1946 بقرية فيرل. هو اقتصادي، وكاتب يتمتع بشهرة عالمية. ومؤسس الاقتصاد الكلي الكينزي. وموظف رفيع المستوى. وكاتب بريطاني ذو شهرة عالمية. فهو مؤسس الاقتصاد الكلي الكينزي. ومن أعماله استخلص الاقتصاد الكينزي، الاقتصاد الكينزي الجديد، والكينزية الجديدة أو ما بعد الكينزية. وهو من أبرز المنظرين الاقتصاديين تأثيرًا في القرن العشرين. تولى العديد من المناصب الرسمية. وهو من الشخصيات الرئيسة في اتفاقية «بريتون وودز» بعد الحرب العالمية الثانية. هو صاحب «الثورة الكينزية». المفكر الاقتصادي والكاتب الفذ «جون ماينارد كاينيس » يعد المؤسس الفعلي لعلم الاقتصاد المعاصر، حركت أفكاره السياسة الاقتصادية في عهد الرئيس الأمريكي السابق «باراك أوباما» كمنقذ لحالة الركود. تكمن قوته في إيجاد مفاهيم أسست لسياسات اقتصادية بديلة.. من الشخصيات المؤثرة في تشجيع التجارة، واستقرار النظام العالمي المالي بعد الحرب الثانية. كتابه «النظرية العامة للتوظيف والفائدة والمال» هو الأهم، وصدر في عام 1936، واستطاع من خلاله تحويل مفهوم الاقتصاد من مجال وصفي وتحليلي، إلى مجال موجه نحو السياسة.

39- Francis Drake (1540- 1596م). فرصان وقائد عسكري، ويعد أول إنجليزي يبحر حول العالم. وقد ساعدت حروبه البحرية ضد الإسبان -وهم منافسو الإنجليز الرئيسون- إنجلترا على أن تصبح قوة بحرية رئيسة. كان دريك أشهر قباطنة البحر الذين كانوا يطوفون المحيطات خلال حكم الملكة إليزابيث الأولى، وعاش في أوج عهد القرصنة، وأصبح من أشهر القراصنة الذين كان يخشى جانبهم في ذلك الوقت. لم يتلق دريك أي تعليم رسمي، لكنه كان يتمتع بالطموح والثقة الكبيرة بنفسه. وفي الحروب كان مقدامًا وسريعًا وقاسي الفؤاد في بعض الأحيان.

وفي عام 1930، وقبلها بعام انهارت بورصة وول ستريت، وكان العالم في طريقه إلى الكساد الكبير[40] وأوشك أحد عشر ألف بنك أمريكي على الانهيار أيضًا، واقترب معدل البطالة من نسبة 25٪، ولم يجد نصف عدد الأطفال الأمريكيين تقريبًا ما يكفيهم من الطعام. والحقيقة أن تداعيات الانهيار شملت الكرة الأرضية، فتوقفت التجارة العالمية، وطفت الفاشية على السطح وأظلمت أوروبا. وكانت بريطانيا التي ينتمي إليها كينز في حالة كساد منذ منتصف العشرينيات، فكان هذا الزمن بعيدًا كل البعد عن التفاؤل إلا أن جون ماينارد كينز كان متفائلًا.

لقد اعتقد أن عملية مماثلة لتلك التي قام بها فرانسيس دريك ليضاعف من قيمة الجنيهات المسروقة كان من الممكن أن تحل مشاكل القرن العشرين الاقتصادية لأن الملكة إليزابيث كانت تعرف كيف تستثمر أموالها. فما علينا سوى أن نستثمر مواردنا بشكل صحيح حتى تتضاعف قيمتها. إن الأرباح تجني أرباحًا، وبعد قرن من الزمان لن يكون هناك أحد ينبغي أن يجوع.

لقد كان يمكننا حل مشاكل العالم الاقتصادية، بل يمكننا وينبغي علينا أن نتطور بمعزل عنها، ولا ينبغي أن يكونوا سوى مجرد ذكرى لأوقات عصيبة حيث عانى الناس من الإسكان متدني المستوى ونقص الغذاء والفشل في توفيرالرعاية الصحية، الفقر،

40- الكساد الاقتصادي العظيم أو الانهيار الكبير.

اليأس، والجوع. وكان أطفال يتضورون جوعًا، والبالغون قد زاغت أبصارهم من شدة الحرمان.

وكان الحل يسمى النمو الاقتصادي. ولو نما الاقتصاد فيمكن أن يكف الناس عن القلق وذلك بحلول عام 2030 على أقل تقدير وذلك في أوروبا والولايات المتحدة. ووفقًا لحسابات كينز، فإننا سنكون في وضع جيد للغاية حتى إننا لن نكون في حاجة لأن نعمل في نهاية المطاف. وعوضًا عن ذلك، يمكننا تكريس حياتنا للفن والشعر والقيم الروحية والفلسفة والاستمتاع بالحياة والإعجاب بـ«زنابق الحقل»[41]. كما وصفها كينز.

كان النمو الاقتصادي هو الوسيلة، وزنابق الحقل هي الهدف.

وفي عام 1930 بدا لجون ماينارد كينز الذي كان يكتب لصحيفة بلومزبري Bloomsbury بلندن، أن الناس مجبرون على تنظيم حياتهم حسب طبيعة السوق وهذه ببساطة هي الطريقة الوحيدة لحل مشاكل العالم المالية، لسوء الحظ. وكثير من الأشياء التي جلبها لنا السوق اعتبرها كينز أشياء بغيضة، على أقل تقدير.

41- قال كاينيس: إننا أحرار في العودة إلى أكثر مبادئ الدين والفضيلة تأكيدًا ورسوخًا. وهي أن الجشع رذيلة. وأن الربا جريمة. وأن حب المال مقيت. وأن أولئك الذين يمشون بصدق في دروب الفضيلة والحكمة هم الأقل تفكيرًا في الغد. مرة أخرى. يجب علينا أن نعطي قدرًا أكبر للنهايات أكثر من الوسائل. وأن نميل للأفضل على النافع. يفترض بنا أن نكرم هؤلاء الذين يعلموننا كيف نستغل اليوم والساعة بشكل جيد وصحيح. الأشخاص المبهجين القادرين على الاستمتاع بالأشياء بشكل مباشر. زنابق الحقل التي لا تكدح ولا تدور.

فقد جلب لنا الغيرة والجشع والتنافس. وقال الاقتصادي البريطاني إنه في القرنين الماضيين، كان علينا رفع منزلة هذه القيم وكأنها تمثل قمة الأخلاق.

فمن دون النحل الأناني لن يكون هناك عسل. وببساطة لم يكن لدينا خيار آخر. وكتب كينز: «علينا أن نتظاهر بأن العدل ظلم والظلم عدل».

فالظلم مفيد والعدل بلا فائدة، والجشع ينجح، مع الأسف.

ومثل آدم سميث، يرى كينز أن الحب نادر. كانت المنفعة الخاصة هي القاطرة التي تجر قطار الاقتصاد. ونحن في أمس الحاجة إلى دفع الاقتصاد، فما عليك سوى النظر إلى الفقر نظرة عابرة لا أكثر لتعرف أنه ينبغي أن يكون للاحتياجات المادية الأولوية. أما الزنابق والروحانيات وكل شيء آخر يمكن أن ينتظر. وحتى المهاتما غاندي قال: «هناك أناس في العالم يتضورون جوعًا لدرجة أن الله لا يظهر لهم إلا في صورة خبز».

إن الرجل الاقتصادي والقيم التي يمثلها ستجعلنا أغنياء، وبعد ذلك يمكننا أن نلقي به في البحر. كان الاقتصاد هو الوسيلة، وزنابق الحقل هي الهدف، ولكن دعونا نستمتع بهما فيما بعد، فالآن ليس لدينا وقت. وبالنسبة لكينز كان الرجل الاقتصادي أحمق لكنه مفيد، ومع الوقت سنتخلص منه، سنقول له شكرًا لك

ووداعًا. لأن الصورة التي جسدها للعالم كانت في الحقيقة صورة مزعجة.

فعندما قمنا بحل مشاكلنا الاقتصادية أصبحنا قادرين على رؤية الرجل الاقتصادي على حقيقته. «إنه أحد تلك النزعات شبه الإجرامية وشبَه المرضية التي يظهرها المرء وهو يرتجف أمام المتخصصين في الأمراض العقلية»، هكذا قال كينز نفسه.

كان يرى أنه سيأتي يوم يمارس فيه الإنسان فن الحياة الحقيقية. عندما يتم حل مشاكلنا الاقتصادية، سيكون من الممكن وضع القضايا المتعلقة بعلم الاقتصاد جانبًا، فهي تخص مجموعة صغيرة من المتخصصين مثل: «أطباء الأسنان» على سبيل المثال.

*

وكتب كينز مقولة شهيرة: «لو نجح الاقتصاديون في الظهور كأشخاص متواضعين وأكفاء مثل أطباء الأسنان، فسيكون ذلك رائعًا!».

ولا جدوى من أن يأمل في أكثر من ذلك.

وعلى أي حال، كان جون مينارد كينز على حق. لقد أصبحنا بالفعل أغنياء. فقد فاقت التنمية الاقتصادية في العالم كل التوقعات. وكان نمو الاقتصاد بهذه الطريقة بعيدًا كل البعد عن

الوضوح في بداية حقبة الثلاثينيات المظلمة. كان جون ماينارد كينز متفائلًا حقًّا، فقد آمن بقوة النمو الاقتصادي، ولكن كيف كان له أن يتخيل حدوث ظاهرة مثل الصين الحديثة؟ إنها الدولة التي ظل معدل نموها 9% لمدة ثلاثة عقود وقد نمت فيها الطبقة المتوسطة من 174 مليون إلى 806 ملايين في خمسة عشر عامًا.

إن ظاهرة الصين حالة استثنائية وحتى النمو الاقتصادي في الغرب فاق ما تخيله كينز. أضف إلى ذلك التطورات المذهلة في كل المجالات بدءًا من الطب إلى الكيمياء الحيوية وتكنولوجيا الكمبيوتر والاتصالات والنقل. وإذا كان كل ذلك بسبب الرجل الاقتصادي، فمن المؤكد أنه يتمتع بمميزات لا يمكن إنكارها.

أما بالنسبة للحالة التي تخيل كينز أنها سوف تعم بعد ذلك فهي: السلام، والسعادة، والزنابق، واقتصاديون مهرة مثل أطباء الأسنان. وبعض تلك الأشياء تبدو صعبة المنال.

لقد أصيبت مجتمعاتنا بهوس الاقتصاد أكثر من أي وقت مضى. لقد اعتقد كينز أن الطريقة «الاقتصادية» في التفكير ستوضع جانبًا كي يتم إفساح المجال لأشياء أخرى، ولكننا سنجدها قد تغلغلت في ثقافتنا.

واعتقد جون ماينارد كينز أنه يمكننا أن نعقد صفقة مع القيم الاقتصادية: هم يساعدوننا على تحقيق الرخاء، ثم عليهم أن

يتركونا نعيش حياتنا.

ودون ذلك لن تكون الحياة أفضل مما كانت عليه.

والرجل الاقتصادي قد خلق بالفعل الرخاء ولكنه لم ينسحب.

إنه يتولى زمام الأمور.

ولم يتراجع الاقتصاد إلى الوراء حتى يمكننا أن نكرس أنفسنا للفن والروحانيات والاستمتاع بالحياة كما تخيل كينز، وبدلًا من ذلك طبقت مبادئ الاقتصاد على كل شيء، بما في ذلك الفن والروحانيات والاستمتاع بالحياة.

إن البائعين وأكشاك الكتب يبيعون كتبًا مثل: «الاقتصاد العجيب[42]»، «اكتشف الاقتصادي الذي بداخلك Discover Your Inner Economist»، أو» لماذا لا أجد زوجًا بعد سن 35 باستخدام ما تعلمته في كلية إدارة الأعمال بجامعة هارفارد Business School Find a Husband After 35 Using What I Learned at Harvard».

والكتب الأكثر مبيعًا هي تلك التي ترشدك إلى كيفية تطبيق

42- Freakonomics كتاب لستيفن ج. دوبنر يتكون من مجموعة من مقالات اقتصادية كتبها لافت وهو مخبر كان قد اشتهر بصفته شخصًا يطبق مبادئ اقتصادية في حقول منوعة عمومًا لا يتناولها الاقتصاديون «التقليديون»؛ ولكنه يتقبل، بالفعل، مفهوم تعظيم المنفعة المنطقي المنتسب إلى دراسات الاقتصاد الجزئي بمنهج الاقتصاديات التقليدية المحدثة. في الاقتصاد العجيب، يجادل لافت ودبنر بأن علم الاقتصاد هو أساسًا دراسة المحفزات.

مبادئ السوق على كل شيء بدءًا بحياتك العاطفية وانتهاءً بزيارتك القادمة إلى طبيبك الخاص. باع كتاب «الاقتصاد العجيب» أكثر من أربعة ملايين نسخة حول العالم. والنقطة التي انطلق منها هي أن منطق السوق يمكنه أن يفسر كل شيء يخص الناس، كيف يفكرون وكيف يتصرفون. وبمساعدة الاقتصاد يمكنك اكتشاف توافه الأشياء: بدءًا بفوائد آيس كريم الفانيليا إلى قيمة حياة الإنسان.

فإذا كنت تحب قضاء الوقت مع جدتك وتناول بودنج الشوكولاتة من صنع يديها، فستكون هناك دائمًا كمية من بودنج الشوكولاتة يمكنها تعويضك عن عدم رؤيتك لجدتك مرة أخرى، هكذا تقول النماذج الاقتصادية المعيارية التي تدعي أن بوسعها تعريفنا بمعظم جوانب الحياة.

وهذا الاتجاه لا ينطبق على كتب العلوم المتداولة فحسب، ففي الجامعات، يحلل الاقتصاديون دائمًا جوانب أوسع من الحياة كما لو كانت سوقًا... بدءًا بالانتحار (كأن يمكن حساب قيمة الحياة مثلما نحسب قيمة إحدى الشركات، والآن حان وقت الإغلاق) وانتهاءً بهزات الجماع الزائفة (فليس عليه أن يدرس كيف تقلب نظرات عينيها، وتفتح فاها، وكيف تحمر رقبتها ويتقوس ظهرها، ولكن يمكنه حساب ما إذا كانت هي تعني ذلك حقًّا أم لا).

والسؤال هو ماذا سيقول كينز عن اقتصادي أمريكي من نوع

ديفيد جالنسون[43]. فقد طور جالنسون طريقة إحصائية لحساب القيمة التي تحملها الأعمال الفنية. وإذا سألته عن أكثر الأعمال شهرة في القرن الماضي، فسوف يقول لوحة «آنسات آفنون»[44] فقد قام بحساب قيمة تلك اللوحة.

إن الأشياء التي يتم تحويلها إلى أرقام تصبح على الفور حقائق.

وباللوحة خمس عاهرات عاريات بمنطقة آفنون ببرشلونة. ولهن أجساد متداعية، تكعيبية، مفككة، يبدو وجه اثنتين منهن مشابهًا للأقنعة الإفريقية. إن اللوحة الزيتية الكبيرة التي أكملها بيكاسو في عام 1907 تعد، وفقًا لجالنسون، أهم عمل فني في القرن العشرين، لأنها تظهر كثيرًا في الكتب كرسم توضيحي. وهذا هو المقياس الذي يستخدمه. وهذا النوع من التحليل الاقتصادي هو نفسه الذي يفسر سعر نبات الكراث العشبي[45]

43- David Galenson ديفيد والتر جالنسون هو أستاذ في قسم الاقتصاد والكلية في جامعة شيكاغو. وباحث مشارك في المكتب الوطني للبحوث الاقتصادية.

44- Les Demoiselles d'Avignon المسماة في الأصل بيت دعارة آفنون هي لوحة زيتية كبيرة رسمها عام 1907 الفنان الإسباني بابلو بيكاسو. يصور العمل، وهو جزء من المجموعة الدائمة لمتحف الفن الحديث، خمس عاهرات عاريات في بيت للدعارة في ميدان آفنون Carrer d'Avinyó ببرشلونة. تصور كل شخصية بوضعية مواجهة مربكة وليس لأي منهن السمات الأنثوية التقليدية. تبدو النساء بأشكال جسدية مفككة حادة الزوايا. تظهر ملامح وجه الأشكال الثلاثة على اليسار بالأسلوب الأيبيري، بينما يظهر الشكلان على اليمين بملامح مشابهة لقناع إفريقي.

45- الكراث نوع نباتي عشبي من الفصيلة الثومية.

أو الوقود الحيوي[46] ومن المفترض أن يكون قادرًا على شرح تجربتنا الفنية.

لم يعد الاقتصاد وسيلة للتحرر من المادة حتى نتمكن من الاستمتاع بالفن، كما اعتقد كينز بل أصبح الاقتصاد المنطق الذي ننظر من خلاله إلى الفن.

وإلى كل شيء آخر أيضًا.

إنه شيء نناقش من خلاله ما يجعل العمل الفني ذا قيمة من الناحية الاقتصادية: لماذا يساوي عمل واحد 12 مليونًا بينما يساوي آخر 100 مليون. إنه شيء مختلف تمامًا عما قاله تشارلز جراي[47]، المؤلف المشارك في كتاب «اقتصاديات الفن والثقافة»[48]: «نحن جميعًا نريد أن نصدق أن هناك شيئًا مميزًا في الفن، لكنني لا أصدق أن هناك فرقًا بين القيمة الفنية والاقتصادية».

46- الوقود الأخضر، أو الوقود الحيوي، هو نوع من الوقود المقطر من نباتات أو مواد حيوانية، نتيجة بعض العمليات البيولوجية، وقد يشتق من مواد غذائية أو غير غذائية، لهذا فهو أكثر صداقة للبيئة من أنواع الوقود الأحفوري المستخدم على نطاق واسع على الكرة الأرضية..

47- Charles Gray سياسي بريطاني (-1764 1845) تولى رئاسة الوزارة في بريطانيا من 22 نوفمبر 1830 إلى 16 يوليو 1834.

48- The Economics of Art and Culture اقتصاديات الفنون والأدب أو الاقتصاد الثقافي هي فرع من فروع الاقتصاد التي تدرس اقتصاديات الإبداع والتوزيع واستهلاك الأعمال الفنية والأدب والمنتجات الإبداعية و/ أو الثقافية المماثلة. لفترة طويلة، اقتصر مفهوم «الفنون» على الفنون المرئية وفنون الأداء في التقاليد الأنجلو ساكسونية.

ثم يزعم أن مقياس القيمة الاقتصادية يمكن تطبيقه على أي شيء، بل إن مقياس القيمة الاقتصادية هو الشيء الوحيد الموجود ولا شيء غيره. فالاقتصاد ليس العلم الذي سيجعلنا نكرس أنفسنا لأجل أشياء أكثر أهمية. والمنطق الاقتصادي هو الشيء الوحيد الحقيقي على الإطلاق.

لقد أراد كينز أن تفسخ البشرية اتفاقها مع الرجل الاقتصادي. فالجشع شيء طيب. والاتفاق كان مجرد شيء قلناه فقط.

على الرغم من النمو المادي، فإن «المشكلة الاقتصادية» ما زالت قائمة ولم تحل. وإذا لعبنا اللعبة وقسمنا النمو السنوي للعالم إلى أجزاء متساوية، أي واحد لكل ستة مليارات ونصف المليار نسمة من سكان الأرض، فإننا سوف نوفر نحو 11000 دولار لكل شخص ولن يجوع أحد بعدها. إذا توقفنا عن لعب هذه اللعبة وتلفتنا حولنا، فستبدو الأمور مختلفة تمامًا.

إن نصف سكان العالم يعيشون بأقل من دولارين في اليوم، وأغلبهم من النساء، ومن ثم أصبح الفقر قضية نسائية. وبالنسبة لملايين النساء، فإن السعي وراء حياة أفضل شيء صعب المنال، وغالبًا ما يبتعدن عن أطفالهن، كي يحبوا أطفال شخص آخر مقابل أجر. فهي عاملة نظافة، نادلة، عاملة في مصنع، عاملة في مزرعة، أو أي شيء آخر وهو ما يبقيه الاقتصاد العالمي في الظل.

وكذلك تفرض الدول الغنية حدودًا صارمة على الدول الفقيرة، ويعيش الأغنياء على مقربة من الفقراء الذين يعيشون في فقر مدقع، سواء في البلدان الغنية أو الفقيرة. لقد جمع الاقتصاد العالمي بين المرأة الغربية وشقيقاتها الأقل حظًّا من الجنوب والشرق. وهن يعشن اليوم تحت سقف واحد في أغلب الأحوال، ولكن ليس في نفس العالم. إنهن يجتمعن كصاحب عمل وموظف، كسيد وخادم.

ويموت في كل عام نحو نصف مليون امرأة أثناء الولادة. ولو حصلن على الرعاية الطبية لعاش معظمهن. وحيث إنه لا توجد منظمة دولية تصدر بيانات صحفية منمقة حول كيف أن المرأة هي مفتاح التنمية في البلدان الفقيرة، فالعالم ما زال يواصل فشله المنهجي في الاستثمار في التعليم والرعاية الصحية للنساء. وفي الولايات المتحدة الأمريكية، أغنى دولة في العالم، نجد أن نسبة خطر وفاة المرأة أثناء الحمل أعلى من مثيلتها في أربعين دولة أخرى.

إن حياة الرجال ذات قيمة أكبر، وحياة المرأة ذات قيمة حسب أهميتها بالنسبة لحياة الرجل. تمنح الرعاية الصحية والغذاء للرجال قبل النساء، هذا إذا منحت أصلًا للنساء. وهذا يؤدي إلى ارتفاع معدلات الوفيات بين النساء في أجزاء من شمال إفريقيا والصين وجنوب آسيا. ولأن الصبي يمثل قيمة اقتصادية بالنسبة

لأسرته، ولأن استخدام التكنولوجيا الحديثة أتاح إمكانية معرفة نوع الجنين أثناء وجوده في رحم الأم، فإن الإجهاض الانتقائي للإناث فقط يتم في جنوب آسيا والصين وكوريا الجنوبية وأيضًا في سنغافورة وتايوان.

وفي الصين يوجد 107 رجال لكلَ 100 امرأة ولكل 108 نساء في الهند. ويرى الاقتصادي أمارتيا سين[49] أنه إذا تلقت النساء نفس الرعاية والتغذية، فسيزيد عدد النساء وسيكون هناك 100 مليون امرأة أخرى على وجه الأرض.

وهؤلاء الـمئة مليون من «المفقودات» هن النتيجة الأكثر تطرفًا لنظام تمثل فيه النساء 70٪ من فقراء العالم، حيث يكسب 1٪ فقط من سكان الولايات المتحدة الأمريكية ربع الدخل التراكمي. ولتنظيف منازلهم ورعاية أطفالهم تستخدم العائلات الثرية في هونج كونج، وبالم سبرينجز وبودابست مدبرات منازل ومربيات يعشن في الأحياء الفقيرة.

ويعاني عالم اليوم من مشاكل اقتصادية من نوع لم يكن كينز يتخيله. فالفقراء يموتون من سوء التغذية في الجنوب ومن السمنة

49- Amartya Sen أمارتيا كومار سن هو عالم اقتصاد وفيلسوف هندي. يعمل بالتدريس في المملكة المتحدة والولايات المتحدة. قدم إسهامات عديدة حول اقتصاد الرفاه أو الرفاهية وهو فرع من علم الاقتصاد يعنى بإدخال القيم الأخلاقية والمفاهيم الإنسانية في عمليات التحليل الاقتصادي وفي معالجة النظم الاقتصادية وتقويمه. اسهم كذلك في نظرية الخيار الاجتماعي، العدالة الاجتماعية والاقتصادية ونظريات اقتصادية حول المجاعات. ومؤشرات قياس رفاه مواطني الدول النامية.

في الغرب. وكذلك نجد أن ولاية أمريكية ثرية مثل كاليفورنيا تنفق أموالاً على السجون أكثر مما تنفق على الجامعات.

ويعمل الآباء بجد لشراء احتياجات أسرهم لدرجة أنهم لا يجدون وقتًا لمقابلتهم، وينتاب معظمهم القلق لأن المال لن يكفيهم، حتى في الطبقات المتوسطة.

وفي الوقت نفسه، تم إنتاج عالم من الاستهلاك اللامتناهي والفصل الاجتماعي مما أفرز نخبة كونية صغيرة. وهم يرتقون لمستوى المثل الأعلى وليس لمستوى زنابق كينز. فقد افترض الاقتصادي الشهير أننا سنعمل أقل ونستهلك أقل عندما نصبح أغنى. ولك أن تتخيل مدى الخطأ الذي وقع فيه.

وفي 12 ديسمبر عام 1991، قبل وقت طويل من توليه منصب وزير المالية في عهد بيل كلينتون، ومنصب رئيس جامعة هارفارد أو منصب مدير المجلس الاقتصادي الوطني للولايات المتحدة في عهد باراك أوباما، وقع لورانس سمرز[50] مذكرة داخلية. وفي ذاك الوقت، كان سمرز كبير الاقتصاديين بالبنك الدولي، وتم إرسال المذكرة إلى أربعة أشخاص آخرين.

50- Lawrence Summers اقتصادي أمريكي كان نائب رئيس اقتصاديات التنمية وكبير الاقتصاديين في البنك الدولي. وكان من كبار موظفي وزارة الخزانة في إدارة بيل كلينتون. وأصبح وزير الخزانة بين عامي 1999-2001. والمدير السابق للمجلس الاقتصادي الوطني في إدارة باراك أوباما.

وكتب سمرز: «هذا الأمر سرًّا بيننا، ألا ينبغي على البنك الدولي تشجيع هجرة الصناعات القذرة إلى البلدان الأقل نماء[51]؟» وتابع قائلًا: «لطالما اعتقدت أن البلدان ذات الكثافة السكانية المنخفضة في إفريقيا ملوثة تلوثًا شديدًا... وأعتقد أن المنطق الاقتصادي وراء التخلص من حمولة من النفايات السامة في دولة ذات أجور متدنية لا غبار عليه وينبغي علينا أن نستوعب ذلك».

واتضح فيما بعد أن سمرز لم يكتب المذكرة بنفسه بل كتبها اقتصادي شاب كان يعمل لديه. كان لورنس سامرز قد قرأ النص ووضع اسمه على المذكرة حتى تكتسب وزنًا. ودافع سمرز عن المذكرة كما لو كانت مذكرته، فقد كان المنطق الاقتصادي بالطبع «لا غبار عليه».

ومع ذلك، فقد أكد أن المنطق قد تم إخراجه من السياق. إن المذكرة كتبت من أجل التحريض، ولا شك في أنها فعلت. ثم قام وزير المالية بتسريب المذكرة لوسائل الإعلام فاستشاط أنصار البيئة غضبًا. كيف يمكن لمنظمة تابعة للأمم المتحدة مثل البنك الدولي أن تفكر بهذه الطريقة؟ هل ينبغي التخلص من إلقاء النفايات السامة ودفنها عند الفقراء؟

أما مجلة الإيكونوميست The Economist، التي نشرت مذكرة

51- قائمة البلدان النامية التي تظهر، حسب الأمم المتحدة، أدنى مؤشرات التنمية الاجتماعية والاقتصادية، مع أدنى تصنيف لمؤشر التنمية البشرية لجميع البلدان في العالم.

سمرز، فقد تناولت الأمر بجدية وقالت إن لهجة المذكرة بالطبع «حادة»، حتى مع أنها «مذكرة داخلية»، لكن المنطق الاقتصادي حسبما قال سمرز «لا غبار عليه».

وبالنسبة لشخص لم يدرس حتى أسس علم الاقتصاد، فقد يكون من الصعب عليه استيعاب ذلك. ولكن يجب على المرء أن يستوعب أولًا أن «المنطق الاقتصادي» ليس مجرد منطق، بل إنه قصة عظيمة عن معنى الإنسان والمعنى العميق للوجود.

وطالما أن دافع الإنسان الأعمق هو دافع اقتصادي، فإن الاقتصاديين هم الأقدر على فهم هذا الإنسان. وبوسعهم أن يخبرونا كيف ينبغي أن ننظم العالم كي نستفيد أقصى استفادة من دوافعنا العميقة أي كيف نستغل الأشياء ونستفيد منها.

ابحث عن الأشياء الأقل سعرًا، بأي ثمن.

إن منطق سمرز هو أنه إذا نقلنا الصناعات القذرة من فرانكفورت إلى مومباسا، فسوف تستفيد كل من فرانكفورت ومومباسا. وسوف تتمتع فرانكفورت ببيئة أنقى، وستتوفر في مومباسا المزيد من فرص العمل. فدعهم إذًا يأكلون النفايات.

قد تبدو القصة فظة، وقد يكون لدى الآخرين قصص أجمل لكن هذه هي قصة الاقتصاديين الحقيقية. الرجل الاقتصادي هو نحن، سواء شئنا أم أبينا، هكذا تفترض النماذج القياسية للاقتصاد.

وبالطبع فإن النفايات سوف تضر البيئة ضررًا بالغًا وتجلب مشكلات لسكان مومباسا مثلما حدث مع سكان فرانكفورت. ولكن «من المرجح أن «المطالبة» ببيئة نظيفة نسبيًّا يتطلب نسبة عالية جدًّا من مرونة الدخل»، كما ورد في مذكرة سمرز. وقد كتب أن زيادة خطر الإصابة بسرطان البروستاتا، على سبيل المثال، يكون بطبيعة الحال أسوأ بالنسبة لأناس يعيشون في بلد لمدة طويلة بما يكفي للإصابة بسرطان البروستاتا. أما في البلدان التي تبلغ فيها معدلات وفيات الأطفال دون سن الخامسة نسبة 20٪، فسوف يعانون على الأرجح من مشكلات أخرى تدعو للقلق بخلاف سرطان البروستاتا.

ومن ثم يعد تصدير الغرب لخطر الإصابة بسرطان البروستاتا مع نفاياته أبسط المشكلات بالنسبة لسكان مومباسا. وسوف يوافقون على العرض لأنهم بحاجة إلى المال وإلى فرص العمل. وعلينا أن نتسم بالعقلانية وإلا فلن يوافقوا لأن كل ما يفعله الإنسان عقلاني.

تخيل أن كينيا ليست دولة، ولكنها فرد. ويمكننا بسهولة أن نتخيل أن الدولة هي فرد، فالدول تتصرف مثل الأفراد العقلانيين بالضبط. تخيل إذًا أن ألمانيا هي أيضًا فرد عقلاني، وسنسمي كينيا «السيد كاف» وألمانيا «السيد ألف».

فنجد أن السيد «كاف» فقير وجائع والسيد «ألف» غني ومتخم،

لكن لدى السيد «ألف» أيضًا دلو كبير من النفايات المشعة. لذلك، يعرض السيد «ألف» على السيد «كاف» 200 يورو لو تولى السيد «كاف» أمر التخلص من نفاياته.

إن مئتي يورو ليست مبلغًا كبيرًا للسيد «ألف»، ولكن 200 يورو بالنسبة للسيد «كاف» مبلغ ضخم جدًّا. وطالما أن السيد «كاف» لا يمانع في أن يكون مشعًّا (فهو مشغول بالجوع)، فقد قبل العرض، وبذلك تصبح كل الأطراف أكثر ثراءً. فالسيد «ألف» يصبح أكثر ثراء لو تخلص من النفايات المشعة والسيد «كاف» يصبح أكثر ثراء لأنه حصل على مئتي يورو. إن الجميع سعداء، والجميع يفوز حسبما تملي عليه تفضيلاته.

يستند هذا المنطق إلى فكرة أننا جميعًا ندرج الأفراد العقلانيين الذين لديهم تفضيلات واضحة وثابتة في حساباتنا.

لا يأخذ النموذج في الاعتبار ما سيحدث إذا اضطر السيد «ألف»، على سبيل المثال، العيش مع نفاياته داخل شقته في فرانكفورت. وقد يجد السيد «ألف» حينها حلًّا تقنيًّا طويل الأمد للتخلص منها.

وبدلًا من ذلك، ليس أمامه إلا أن يصدر المشكلة للسيد «ك». والسيد «ك» ليس متعلمًا بما يكفي كي يجد حلًّا طويل الأمد. وبالتالي لن يجد العالم حلًّا واحدًا وسوف يخسر المجتمع على المدى الطويل. فإلى أي مدى يعتبر ذلك عقلانيًّا من وجهة نظر

النموذج الاقتصادي؟

هذا النوع من الفرص هو أحد السيناريوهات التي لا يضعها النموذج في اعتباره. ولا يهم كم كان السيد «ك» جائعًا. إنه لا يزال مجرد شخص عقلاني يحسب ويسيطر تمامًا على ما يفعله، ويوافق على أن يكون بمثابة بالوعة يفرغ فيها السيد «ألف» نفاياته لأن هذا عقلاني.

والمنطق الاقتصادي الذي لا غبار عليه يراهما مجرد فردين على جزيرة نائية مهجورة، كل منهما له مرجعية تخصه. فأحدهما يريد التخلص من نفاياته والآخر بحاجة للمال كي يشتري طعامه، لا يوجد سياق، ولا مستقبل، ولا تواصل. ومن ثم ليس هناك حل آخر سوى أن يبيع السيد «ألف» نفاياته للسيد «كاف».

وكتب خوسيه لوتزينبارجار، وزير البيئة البرازيلي آنذاك، إلى لورنس سمرز قائلًا: «إن تفكيرك عقلاني تمامًا ولكنه مجنون تمامًا».

إن المنطق الاقتصادي الذي لا غبار عليه هو حالة غير أن المنطقة المحيطة ببلدة جويو في الصين حالة أخرى.

إنهم يشحنون كل عام مليون طن من النفايات الإلكترونية إلى جويو في بلدية جوانجدونج الصينية. وفي الصين يعمل مئة وخمسون ألف شخص في فرز وتفكيك تلك النفايات. ومعظمهم

جزء من شركات عائلية صغيرة، وأغلبهم من النساء.

إن أجهزة الكمبيوتر، الشاشات، الطابعات، مشغلات الدي في دي DVD، آلات النسخ، بطاريات السيارات، أفران الميكروويف، مكبرات الصوت، أجهزة شحن الهواتف والهواتف يتم فرزهم بأدوات صغيرة وبأيدٍ مكشوفة ويفصلون كل صنف عن الآخر. ويقومون بغلي لوحات الدوائر الكهربائية لاستعادة الشريحة، ويحرقون الأسلاك للحصول على المعادن.

ولاستخراج الذهب من الرقائق الدقيقة، أنت بحاجة إلى حمام سام ومسبب للتآكل باستخدام الأحماض، الأرض حول المدينة مكتظة بالرصاص والكروم والقصدير ومعادن ثقيلة أخرى. وهناك تسمم في المياه الجوفية، والنهر بات أسود، ومستويات الرصاص في دم الأطفال أعلى بنسبة 88٪ من المناطق المجاورة.

والقانون الصيني يحظر استيراد النفايات الإلكترونية حتى إن بكين وقعت على اتفاقية بازل ضد نقل النفايات الإلكترونية إلى الدول الأكثر فقرًا، لكن هذا القانون لم يفعل على أرض الواقع حتى الآن. ويتم تصدير 90٪ من إجمالي النفايات الإلكترونية في الولايات المتحدة إلى الصين أو نيجيريا.

ولأن المنطق الاقتصادي لا غبار عليه فقد تضاعف سعر المياه في جويو عشر مرات مما هو عليه في بلدية شنديان المجاورة

حيث الماء النقي، فقد تسممت مياه جوانجدونج وهذا يكلف.

وبعد كينز بثمانين عامًا، كانت هناك أقلية مثله يعرفون مهمة الاقتصاد على أنها معالجة مشكلة الفقر في العالم إلا أن علم الاقتصاد لم يعد يرى نفسه الآن بهذه الطريقة.

وعندما حان وقت اختيار أحد الجانبين: أغنياء أم فقراء، أقوياء أم ضعفاء، عمال أم شركات، رجال أم نساء، فإن الاقتصاديين في العقود الأخيرة ظلوا على نفس الجانب، فما هو صالح للأغنياء والأقوياء يكون صالحًا دائمًا للاقتصاد. وفي الوقت نفسه، أصبح علم الاقتصاد علمًا مجردًا بشكل متزايد: الأعمال المنزلية الخيالية والشركات الخيالية والأسواق الخيالية، فكل شيء مبني على الرجل الاقتصادي.

أصبح الاقتصاديون مهتمين أكثر بمحاولة تطبيق نماذجهم على كل شيء بدءًا بالعنصرية وانتهاءً بهزات الجماع وأصبحوا أقل اهتمامًا بدراسة كيفية عمل الأسواق الحقيقية.

في الوقت نفسه، ما زالت المشكلات التي كان كينز قلقًا بشأنها مستعصية على الحل. وقد تعاملوا مع هذه المشكلات في معظم الأحوال على أنها غير مرئية.

وإذا أصبحنا جميعًا أفرادًا عقلانيين، فإن قضايا مثل العرق والطبقة والجنس تصبح غير ذات صلة. فكلنا أحرار مثل المرأة

في الكونغو التي توافق على أن يمارس معها رجال الميليشيات الجنس مقابل ثلاث علب من الطعام أو مثل المرأة في تشيلي التي تعمل في قطف الفواكه على الرغم من أن استنشاقها للمبيدات الحشرية سيؤدي إلى أمراض تتلف أعصاب الطفل الذي ستلده بعد ذلك بعامين، أو مثل المرأة في المغرب التي تَعمل في مصنع وتضطر إلى إجبار ابنتها الكبرى إلى ترك المدرسة حتى ترعى أشقاءها. إن لديهن دائمًا فهمًا كاملًا لعواقب أفعالهن، فهن يتخذن دائمًا أفضل القرارات الممكنة.

الحرية مجرد كلمة تعبر عن أن المرء ليس لديه ما يخسره.

إن الاقتصاديين مقتنعون بأنهم يجسدون أعمق بواعث السلوك البشري. إن النقد الموجه إليهم لا يمس سوى القشور السطحية فقط، إذا قمت بالنبش أكثر في البيانات ستكشف الحقيقة: كل شيء هو الرجل الاقتصادي. منطق واحد. عالم واحد. طريقة واحدة للوجود. فعن أي زنابق تتحدث؟

الفصل الخامس

وفيه نقوم بإضافة النساء ثم نقلب

إن جوديث ريجان، وهي واحدة من أكثر سيدات الأعمال التي أصابها الذعر في الولايات المتحدة، فهي معتادة على الصراخ من مكتبها في دار النشر التي تديرها قائلة: «لدي أكبر ديك في المبنى».

لقد أوشكنا، نحن النساء، أن نصبح الرجال الذين كنا نرغب في أن نتزوجهم، هكذا هتفت الحركة النسائية بانتصار في حقبة السبعينيات.

وتحولت النساء من الرغبة في الحصول على رجل إلى الحصول على ما يملكه الرجل. وبرغم التقدم الذي ينطوي عليه ذلك كان المشروع النسوي لا يزال على حاله تقريبًا أي يدور حول نفس الشيء ألا وهو: الرجال.

وكتبت مجلة الإيكونوميست على غلاف طبعتها بمناسبة حلول عام 2010: «لقد نجحنا!». لقد تخطت النساء الرجال ويشكلن اليوم الغالبية العظمى من خريجي الجامعات في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OEC. وتزايد عدد النساء اللواتي يعملن في البلدان الغنية أكثر من أي وقت مضى. وهن يعملن بإدارة العديد من شركات تعاملن معها من قبل باعتبارهن مواطنات من الدرجة الثانية.

غير أن فكرة العمل بدوام كامل من أجل المستقبل المهني لا

تزال قائمة حول فكرة الاستعانة بآخرين بدوام كامل للمساعدة في المنزل. واليوم، من المفترض أن تعمل النساء بدوام كامل ولكن الحصول على المساعدة بدوام كامل متاحة فقط لمن تستطيع تحمل تكاليفها. من ينظف بيت عاملة النظافة؟ من سيرعى أولاد المربية؟ هذه ليست مجرد أسئلة بلاغية بل أسئلة لا يمكن إيجاد إجابات لها إلا من خلال اتباع شبكة رعاية معقدة تدور حول الاقتصاد العالمي.

اليوم نجد أكثر من نصف عدد المهاجرين في العالم من النساء. وفي بلدان معينة تتراوح نسبتهن بين 80 إلى ٪90. وحياتهن هي أيام عمل طويلة وأجور متدنية. إن العمل في المنزل صعب ومعزول وبلا ضوابط. وغالبًا ما تعيش النساء حيث يعملن، في منزل شخص آخر. إنها جزء من الأسرة، ولكنها ليست كذلك.

يتم تحديد جودة عملهن إلى حد كبير عبر العلاقات التي استطعن تكوينها. إذا ربطت نفسها بالعائلة، فستكون مربية أطفال أفضل، وسوف يراها الأطفال أكثر من أمهم، وبالتأكيد أكثر من الأب، وفي بعض الحالات، يحبونها، ولكن إذا أحبت العائلة فسيكون الأمر أكثر صعوبة عندما يحين وقت إعادة التفاوض بشأن راتبها وظروف عملها. وفي هذه الحالة سيكون من المستحيل تقريبًا فصل الأدوار. هل تعمل بدافع المنفعة الخاصة أم بدافع الحب أم كلاهما؟

إنها ترعى الأطفال: ومن ثم لا تستطيع أن تستقيل. فكيف سيتدبرون أمرهم دونها.

وغالبًا ما يعتقد صاحب العمل أن من حقه استغلال هذ المأزق والاستفادة منه.

وإذا أدت المربية عملها بشكل سيئ، فسوف تفشل، وإذا قامت بعملها بشكل مرضٍ جدًّا، فسوف تفشل أيضًا. إذا ارتبط الأطفال بها أكثر من الأم والأب، فلن يسعدهما ذلك، وسوف يكون مستقبل المربية المهني قصير الأجل. إنها عملية من الصعب الحفاظ على توازناتها وضبط معادلتها.

إن متوسط ساعات عمل الخادمات في الولايات المتحدة تبلغ 14 ساعة. وغير مسموح لهن بمغادرة المنزل دون إذن، بحسب دراسة أجرتها منظمة مراقبة حقوق الإنسان أو هيومان رايتس واتش. والتحرش اللفظي والجسدي والجنسي أمر شائع، ولكن نادرًا ما يتم الإبلاغ عنه. علاوة على أن الخادمة غالبًا ما تكون مقيمة في البلاد بشكل غير شرعي وتخشى ترحيلها. إن القلق يسيطر عليها طوال الوقت تقريبًا، قلقها أولاً على أطفالها على الجانب الآخر من الكوكب.

وهذا جانب من القضية.

أما الجانب الآخر هو أن الخادمات الفلبينيات يكسبن أموالاً في

هونج كونج تعادل ما يكسبه الأطباء الذكور في ريف الفلبين. وأن المربيات الأجنبيات العاملات في إيطاليا يحصلن على راتب أعلى مما يحصلن عليه في بلدانهن الأصلية بنسبة تتراوح من 7 إلى 15 مرة. هل هن ضحايا؟ وإن كن كذلك، فبالمقارنة بمن؟

وبهذه الطريقة، تعول المرأة نفسها وأسرتها مما يمنحها السلطة في مواجهة والدها وزوجها السابق، بل السلطة والحرية معًا. وتساهم الأموال التي ترسلها العاملات المهاجرات إلى وطنهن في اقتصاد العديد من البلدان أكثر مما تسهم المساعدات والاستثمارات الأجنبية مجتمعة. ففي الفلبين تبلغ نسبة هذا الإسهام ٪10 من إجمالي الناتج المحلي[52].

من ناحية أخرى، إذا لم يستمر خفض أجر الساعة للخادمة عن ذلك الذي يتقاضاه الشخص الذي كان سيقوم بالتنظيف كل ساعة (أي المرأة/ الزوجة في العائلة الغربية)، فلن يكون استئجار من يقدم المساعدة المنزلية عملًا اقتصاديًّا. وبعبارة أخرى فإن هذا النهج بني في مبدأ عدم المساواة بين النساء.

52- إجمالي الناتج المحلي (GDP) هو القيمة السوقية لكل السلع النهائية والخدمات المعترف بها بشكل محلي والتي يتم إنتاجها في دولة ما خلال فترة زمنية محددة. غالبًا ما يتم اعتبار إجمالي الناتج المحلي للفرد مؤشرًا لمستوى المعيشة في الدولة. ولا يعد إجمالي الناتج المحلي للفرد مقياسًا لدخل الفرد. وبموجب النظرية الاقتصادية، يساوي إجمالي الناتج المحلي للفرد تمامًا إجمالي الدخل المحلي للفرد GDI. ويتعلق إجمالي الناتج المحلي بالحسابات القومية. وهي مادة في الاقتصاد الكلي. ويجب ألا يتم الخلط بين إجمالي الناتج المحلي وإجمالي الناتج القومي (GNP) الذي يخصص الإنتاج حسب الملكية.

لقد تمكنت المرأة من الالتحاق بسوق العمل بأجر، وتمكنت من تحرير نفسها من قدر كبير من الأعمال المنزلية. إنها مضطرة للقيام بذلك، فإذا كانت تريد مستقبلًا مهنيًّا والحصول على وظيفة، فعليها ترك حياتها العائلية عند باب المكتب.

حان وقت إثبات ذاتك، حان الوقت لتكوني أنانية.

ولا يزال سوق العمل قائمًا -إلى حد كبير- على فكرة أن البشر بلا أجساد، وبلا جنس وعلى تعظيم المنفعة لأفراد بلا عائلات ولا سياقات. يمكن للمرأة أن تختار بين أن تكون واحدة من هؤلاء، أو أن تكون عكس ذلك: غير مرئية ومضحية وهو ما يلزم لخلق توازن بين طرفي المعادلة.

وغالبًا تكون الظروف هي التي تختار وتقرر نيابة عنها.

إنها تستيقظ في الرابعة صباحًا لتحمل دلوًا وتمشي به، ذهابًا وإيابًا، نحو أحد عشر كيلومترًا إلى البئر وتعود به مملوءًا عن آخره. وبعد ثلاث ساعات، تعود إلى المنزل بالماء. فتقوم بجمع الحطب، وغسل الأطباق، وطهي الطعام، ثم تعود وتغسل الأطباق المتسخة مرة أخرى بعد تناول الطعام، ثم تخرج كي تحضر الخضار. وتذهب لإحضار الماء مرة ثانية، ثم تعد العشاء، وتصحب صغارها إلى أسرتهم حتى يناموا وينتهي يوم عملها في التاسعة مساءً. ووفقًا للنماذج الاقتصادية، فهذه السيدة غير

منتجة، ولا تعمل، وخاملة وغير نشطة اقتصاديًّا.

وهي تفرم اللحم، تعد المائدة، تجفف الأطباق، تلبس الأطفال ليذهبوا للمدرسة وتقود السيارة إلى المدرسة. وهي تفرز القمامة، وتنظف النوافذ، وتفرز الغسيل المتسخ، وتبدل الأغطية، وتصلح جزازة العشب، وتزود السيارة بالوقود، وترفع الكتب المتناثرة، وتجمع مكعبات لعبة الليجو، وترد على الهاتف، وتكنس الصالة بالمكنسة، وتساعد أطفالها في عمل الواجبات المدرسية، وتغسل الأرضيات، وتنظف الدرج، وترتب الأسرة، وتدفع الفواتير، وتدعك الحوض وتبدل ملابس الأطفال.

والحجة الرئيسة لعدم إدراج الأعمال المنزلية ضمن إجمالي الناتج المحلي هو أنها لا قيمة له. وسيظل مقدار الأعمال المنزلية في المجتمع ثابتًا دائمًا.

ولكن كيف يمكن للاقتصاديين أن يحسبوه إذا لم يدرجوه في إحصاءاتهم؟

تقضي المرأة في عالمنا ما يزيد قليلًا على ثلثي يومها في عمل دون أجر. والإحصاء المكافئ للرجال هو ربع يومهم، ويتسع الفارق في البلدان النامية ذات القطاعات الزراعية الكبيرة. ففي نيبال تعمل النساء أكثر من الرجال بإحدى وعشرين ساعة كل أسبوع، وباثنتي عشرة ساعة تقريبًا في الهند.

وفي أجزاء من آسيا وإفريقيا، حيث يهاجرالرجال غالبًا إلى المدن وتبقى نساؤهم في المنزل بلا أي دعم من الرجال/ أزواجهن أو من الدولة لا يزال يقع على عاتقهن العبء الثلاثي: العمل المهني، والأعمال المنزلية ثم العمل الزراعي.

ويمزح الاقتصاديون عادة قائلين إنه إذا تزوج الرجل من خادمته سيقل إجمالي الناتج المحلي للبلاد. ومن ناحية أخرى، إذا أرسل والدته إلى دار للمسنين، سيرتفع إجمالي الناتج المحلي مرة أخرى. إلا أن هذا المزاح يعبر كثيرًا عن تصورهم الخاص بأدوار الجنسين في الاقتصاد، كما يخبرنا عن الطريقة التي يمكن بها حساب نفس النوع من العمل أو عدم احتسابه في إحصاءات إجمالي الناتج المحلي.

وعندما دخلت المرأة المتزوجة سوق العمل بدأت في قضاء مزيد من الوقت في أعمال تحسب إحصائيًّا (العمل خارج المنزل) وقضاء وقت أقل في أعمال تحسب إحصائيًّا (العمل داخل المنزل) مما أدى هذا إلى زيادة كبيرة في إجمالي الناتج المحلي في العالم الغربي. والسؤال هو: إلى أي مدي يعتبر هذا صحيحًا؟ وبما أن لا أحد كلف نفسه مشقة نفسه تحديد الأعمال المنزلية تحديدًا كميًّا، فلعلنا نكون قد بالغنا في تقدير الزيادة الحقيقية في معدل الرخاء. وبالطبع، فإن أجهزة مثل الغسالات والميكروويف والخلاطات جعلت العمل المنزلي أقل استهلاكًا للوقت؛ لذا فإن

الفارق ليس بالضرورة بهذا المعدل الكبير جدًّا. لكن القضية هي أننا لا نعلم.

وإذا كنت تريد صورة كاملة عن الاقتصاد، فلا يمكنك تجاهل ما يقومِ به نصف سكان الأرض لنصف الوقت.

لا يعد قياس الأعمال المنزلية أكثر أو أقل صعوبة من قياس الكثير من العناصر التي ندرجها في إجمالي الناتج المحلي. على سبيل المثال، نحن نبذل جهدًا كبيرًا في قياس قيمة الطعام الذي ينتجه المزارع من أرضه ولكن لا يبيعه في السوق، إلا أننا لا نبذل نفس الجهد في قياس قيمة الأعمال المنزلية. إن عمل المرأة وهو مورد طبيعي لا نعتقد أننا بحاجة إلى قياسه وحسابه طالما أننا نفترض، من حيث المبدأ، أنه سيكون موجودًا على الدوام. إنه يعتبر بنية تحتية غير مرئية.

ولما حاولت وكالة الإحصاء الوطنية الكندية **BNP** قياس قيمة العمل غير مدفوع الأجر خلصوا إلى أنه يتراوح بين 30.6 و41.4٪ من إجمالي الناتج المحلي. ويتم احتساب الرقم الأول على أساس تكلفة استبدال العمل غير مدفوع الأجر بعمل مدفوع الأجر، بينما يعتمد الثاني على المبلغ الذي سيكسبه الشخص إذا كان/ كانت يتقاضى أجرًا من عمل أثناء قيامه/ قيامها بالأعمال المنزلية.

وبغض النظر عن الطريقة فالمبلغ هائل.

ولكي يتحقق الرخاء الاقتصادي، لا بد للمجتمع أن يمتلك الناس والمعرفة والثقة. ويتم إنتاج كل هذه الموارد إلى حد كبير من خلال العمل المنزلي غير مدفوع الأجر. إن الأطفال الأصحاء السعداء هم أساس جميع أشكال التنمية الإيجابية، وحتى الاقتصادية أيضًا. والرجل الاقتصادي، من ناحية أخرى، ليس لديه طفولة ولا سياق.

إنه ينمو مثلما ينمو الفطر في الأرض. وعندما يفترض أن يكون كل الناس مثله، يصبح من المستحيل رؤية جانب كبير من الاقتصاد.

وفي الواقع العملي، هناك وسيلة واحدة لاستبعاد وإقصاء النساء.

ومن أجل التمسك بفكرة أن الرجل الاقتصادي رجل عالمي، يجب أن يزج بالمرأة في النموذج كما لو كانت مثل الرجل تمامًا. تفضلي! ها أنت تتمتعين بنفس الحقوق ونفس حرية المنافسة في السوق. هيا، تقدمي وخذي ما تريدين!

لهذا السبب ينبغي على المرأة أن تثبت قيمتها في سوق العمل والتي ما زالت تتشكل، إلى حد كبير، حسب احتياجات الرجال. إنها تمضي قدمًا بطريقة خلقها الرجل من أجل الرجل، وبناءً على واقع يقصي النساء مما يخلق إشكاليات، ليس من السهل أن

تضيف النساء ثم تقلب.

في عام 1957، قامت بيتي فريدان[53] التي تبلغ ستة وثلاثين عامًا وكانت أمًّا لطفلين، بإرسال استبيان إلى زميلات صفها السابقين. لقد مرت خمسة عشر عامًا منذ تخرجهن من كلية سميث. وانشغلت معظم المتخرجات من مدرسة النخبة هذه، مثل فريدان تمامًا برعاية منازلهن وتربية أطفالهن. لكن فريدان عملت أيضًا ككاتبة حرة وفصلت من عملها كصحفية عندما حملت، ولهذا أرادت أن تعرف كيف ترى زميلاتها حياتهن لعلها تتمكن من كتابة مقال عن الموضوع.

أدرجت بيتي فريدان بعض الأسئلة ذات طابع نفسي في الاستبيان ووزعته. ووجدت الإجابات التي وردت إليها صادمة. فمعظم هؤلاء النساء اللواتي لديهن كل شيء على الورق كن في الواقع بائسات تمامًا. وكان محرمًا عليهن الإفصاح عن هذه المشاعر.

كان القلق، والإحباط الجنسي، واليأس، والاكتئاب هي مشاعر ربات البيوت الحقيقية والتي تتناقض بشكل صارخ مع الصورة التي ترسمها وسائل الإعلام للنساء السعيدات في الضواحي

53- Betty Friedan كاتبة وناشطة نسوية أمريكية. ومن أبرز الشخصيات في الحركة النسائية في الولايات المتحدة. اشتهرت فريدان بكتابها اللغز الأنثوي واعتبر أحد أهم الكتب التي ألهمت الموجة النسوية الثانية.

السعيدة. كانت هذه أمريكا ما بعد الحرب: سباق الفضاء، نمو قياسي مسجل ومرصود وأطفال وجوههم باسمة يقفون في مدخل المرآب. لم تعرف فريدان بماذا ينبغي أن تسمي اكتشافها هذا. لم تكن هناك كلمات متاحة يمكن أن تعبر عنه، فأسمته «المشكلة التي لا اسم لها».

ولما كتبت فريدمان مقالًا تصف فيه كيف أن زميلاتها يشعرن بالاستياء، والارتباك، ويتعاطين المهدئات، ويضللهن التحليل النفسي ويتجاهلهن المجتمع، وأن هؤلاء هن ربات البيوت الحقيقيات، لم توافق أي صحيفة على نشره، وفي النهاية لم يكن لديها خيار آخر سوى تطوير مادة الاستبيان وتحويلها إلى كتاب.

في عام 1963، نشرت كتابها «اللغز الأنثوي Den feminina mystiken» في الولايات المتحدة الأمريكية. وكتبت بيتي فريدان عن بكاء نساء الطبقة المتوسطة العليا على الوسائد، وهن حبيسات منازل فخمة في الضواحي. كيف كانت رؤيتهن للحياة تدور حول اصطياد رجل، والاحتفاظ بالرجل، وإنجاب الأطفال، وتجاهل احتياجاتهن الخاصة، التي سيكون مثاليًّا للرجال لو قمن بابتلاعها مع الحبوب المهدئة وقمعها. كيف خدعوا النساء بفكرة أنهن مثل الأطفال وكائنات ناعمة حساسة خلقت من أجل الحياة المنزلية وولادة الأطفال والاستهلاك. وإذا أردن القيام بشيء آخر مثل: تناول حبوب منع الحمل، أو إقامة علاقة غرامية، أو شراء

غسالة ملابس، فهن مخطئات. لقد باع الكتاب أكثر من مليوني نسخة و»أطلق رصاصة على التاريخ»، كما قال الكاتب الأمريكي ألفين توفلير[54].

وعلى مدار جيل واحد تحطمت حدود ما يمكن للمرأة أن تقوم به، وأن تكونه وأن تفكر فيه، وَأن تقوله، وما يثير اهتمامها. لقد حدث ذلك بسرعة لدرجة أن الثورة بدت وكأنها انتهت قبل أن يكون لدى الفصائل المتناحرة الوقت الكافي لكي يتشكلوا. واليوم، نشاهد ونتابع بانبهار بيجي وجوان وبيتي، في الدراما التلفزيونية الأمريكية «رجال مجانين Mad Men». وقالت وكالة إعلانية في نيويورك في بداية حقبة الستينيات: أن النساء يتم تجاهلهن، وتشييئهن، وجعلهن غير مرئيات في عالم لا يقهر من رجال بيض، يظنون أنهم القوامون ويعكسون ذواتهم بعضهم في بعض ويدخنون بلا توقف وكؤوسهم ممتلئة دائمًا عن آخرها بالويسكي. فهل هذه كانت طبيعة سوق العمل بالفعل منذ ما يزيد قليلًا على خمسين عامًا؟

ولكن على الرغم من التقدم الهائل للحركة النسائية -فلا يبدو أننا نجحنا في تربية بنات تملأهن الثقة بالذات، ورغم أن أداء البنات في المدارس اليوم أفضل من أداء الأولاد- إلا أن أحوالهن أسوأ بكثير. لقد أصبح الاكتئاب مرض المرأة، فهي ليست بحالة

54- Alvin Toffler كاتب ومفكر أمريكي وعالم في مجال المستقبليات.

طيبة بما فيه الكفاية، وليست قوية بما فيه الكفاية، ولا تملك ما يكفي من الوقت. تعاني من زخات من المخاوف التي بلا حدود، ولا تقتصر على الممرضات والعاملات في مجال الرعاية اللواتي استنفدن طاقة أجسادهن وأرواحهن، بل والنساء اللواتي يعملن في القطاع الخاص ويحصلن على أجور عالية، يصيبهن الانهيار بمعدل أعلى ويأخذن إجازة مرضية طويلة الأجل، حتى في دول الرفاه الاسكندنافية أيضًا على الرغم من أن فرص الجمع بين الأسرة والعمل فيها أكبر من أي مكان آخر هنا.

وتظهر الدراسات أن النساء في العالم الغربي أصبحن أكثر تعاسة فيما بعد حقبة السبعينيات، بغض النظر عن طبقتهن الاجتماعية، وسواء كن متزوجات أو غير متزوجات، أو كم من المال يكسبن، أو في أي بلد يعشن، أو إذا كان لديهن أطفال أم لا. والمرأة النموذجية في الغرب (باستثناء النساء السود في الولايات المتحدة) باتت أقل رضا عن حياتها. ومن ناحية أخرى، أصبح الرجال أكثر سعادة. ربما هي «المساواة». ولعلنا نحسب الأمر بطريقة خاطئة. ربما هذا النوع من الأشياء غير قابل للقياس على الإطلاق. وهذه الدراسات محل جدل غير أن العديد من النساء وجدن أنفسهن في نتائج الدراسة التي عبرت عن حقيقة أحوالهن.

ويقولون إن جينجر روجرز[55] فعلت كل ما فعله فريد

55- Ginger Rogers ممثلة سينمائية ومسرحية وراقصة ومغنية أمريكية.

أستير[56]، إلا أنها فعلت ذلك بشكل عكسي وبالكعب العالي. وهذا ما تواصل النساء القيام به. لقد خرجت المرأة إلى سوق العمل ولكن في المقابل لم يدخل الرجل المنزل بنفس القدر. وأفكارنا حول الحدود بين العمل والحياة الأسرية لم تتغير بشكل راديكالي. ونحن نحاول التوفيق بينهما بشتى الطرق بدلًا من ابتكار طريقة جديدة، طريقة أفضل نعيش بها الحياة. وبغض النظر عن الطريقة التي ننتهجها، يبدو أن هناك نقصًا مخيفًا في الخيارات.

لقد أصبح لدينا الآن جيل من النساء يجلدن أنفسهن. لم تعد كثير من النساء اليوم بحاجة إلى مديرين لوكالات تسويق ينظرن للنساء باعتبارهن بلا قيمة، لأن النساء ينظرن لأنفسهن نفس النظرة، حتى لو كن مديرين في نفس الوكالات. إن النسوية لم تكن معنية بحصول النساء على قطعة أكبر من الكعكة بل كانت معنية بصنع فطيرة جديدة تمامًا.

وقد أثبت الواقع أن قول هذا أسهل من فعله. لقد أضفنا النساء إلى المزيج ثم قلبنا. وفسر جيل كامل التصريح الماكر القائل: «يمكنك أن تكوني أي شيء» على أنه «عليك أن تكوني كل شيء».

وإلا ستكونين بلا قيمة.

56- Fred Astaire راقص أمريكي، ومدرب رقص، ومغنٍّ، وممثل، ومقدم تلفزيوني، وهو يعد أكثر الراقصين تأثيرًا في تاريخ الأفلام.

بعد نصف قرن من كتاب بيتي فريدان :»اللغز الأنثوي»، واجهنا «مشكلة جديدة ليس لها اسم». فقد كتبت الناشطة النسوية نعومي وولف[57] أننا فشلنا في تقديم تعريف للنجاح إلى بناتنا يحققن من خلاله ذواتهن.

قومي بعمل المزيد! قومي به بشكل أفضل! نافسي الآخرين!

وهكذا أصبح الرجل الاقتصادي المثل الأعلى الذي ينبغي على المرأة أن ترتقي إلى مستواه. وقد تحول معنى تحرير المرأة في الغرب إلى مجموعة من المهام التي يتعين عليها إنجازها. وبدلاً من ذلك، كان ينبغي أن يكون امتدادًا لجميع أنواع الحريات.

بما في ذلك حرية أن تكون!

لست بحاجة إلى أن يكون لديك أكبر ديك في المبنى. ولا ينبغي أن يكون لديك ديك على الإطلاق، حتى لو كنت امرأة.



57- Naomi Wolf كاتبة سياسية، وناشطة، ومستشارة سياسية، وكاتبة غير روائية من الولايات المتحدة الأمريكية. ولدت في سان فرانسيسكو. كانت مستشارة سياسية لآل جور وبيل كلينتون. برزت وولف على الساحة عام 1991، كمؤلفة كتاب » لغز الجمال The Beauty Myth» .

الفصل السادس

وفيه ندمج لاس فيجاس مع وول ستريت

إذا وجدت نفسك قابعًا على الأرض وتحمل مدفعًا مضادًا للطائرات ومكلفًا بإسقاط طائرة تمر فوقك، فلن يجدي أن تصوب على المكان الذي توجد فيه الطائرة الآن. فأثناء الوقت الذي سيمر بين إطلاقك للقذيفة ووصولها إلى مكان الطائرة، ستكون الطائرة قد تحركت ووصلت إلى مكان آخر.

وبالتالي ينبغي على الشخص الذي يقوم بإطلاق القذيفة أن يوجه المدفع إلى النقطة التي ستصل إليها الطائرة في تلك اللحظة. حتى الطيار نفسه يعرف ذلك ومن ثم فهو يراعي قيادة الطائرة على نحو لا يمكن التنبؤ به قدر الإمكان.

إلى اليمين. إلى اليسار. إلى اليسار. إلى اليمين.

وعندئذ يمكن للشخص الذي يطلق عليه القذيفة أن يقرر إلى أين يصوب: اليسار أم اليمين؟ إذا انطلقت قاذفات المدافع المضادة للطائرات في نفس الاتجاه الذي اختار الطيار أن يستدير إليه، سيحدث انفجار ويموت الطيار.

ولكن إذا انطلقت القذائف في الاتجاه المعاكس لاتجاه الطائرة، فسوف ينجو الطيار.

لذلك فإن أفضل طريقة يعمل بها الطيار هي الطيران بشكل عشوائي وغير متوقع إلى اليمين أو إلى اليسار. وأفضل طريقة لمن يستهدفه على الأرض أن يفعل الشيء نفسه. وبمجرد أن

يحدد الطيار نمط إطلاق النار، يمكنه الرد تبعًا لذلك، ومن ثم تزيد فرصة النجاة من وابل القذائف. وينطبق الشيء نفسه على الجانب الآخر: إذا رأى الرجل الذي يحمل مدفعًا مضادًّا للطائرات أن الطيار يميل إلى الطيران يسارًا؛ فإن لديه فرصة أكبر لإصابته.

وفي عام 1944، خلص عالم الرياضيات جون فون نيومان[58] إلى أن المشهد أعلاه كان بمثابة لعبة محصلتها صفر لكلا الطرفين، ولا يهم ما إذا كانت الطائرة أو المدفع المضاد للطائرات يتم تشغيلهما بواسطة شخص أو بواسطة آلة. وتصرفات الطيار يقررها منطق نظام لا علاقة له به كفرد.

ولا يهم نوع علاقته بوالدته، ولا إلى أي طبقة اجتماعية ينتمي، ولا أنه صنف على أنه من نوع الشخصيات التنفيذية في الاختبار النفسي ESTJ، ولا أنه لا يزال يشعر بالخجل لأنه كان يتبول على نفسه حتى بلغ عمره تسع سنوات.

والطيار سوف يتصرف بطريقة يستطيع الأستاذ فون نيومان حسابها، وسوف يحكم تصرفه منطق الموقف وقواعد اللعبة التي تنبثق عندما يلتقي العقلانيون.

يعتقد جون فون نيومان أنه بدلًا من دراسة تفاصيل حياة

58- John von Neumann رياضياتي أمريكي مجري الأصل وينحدر من أسرة يهودية. قدم مساهمات واسعة وهامة في كثير من المجالات. ويعتبر من أهم علماء الرياضيات في التاريخ الحديث.

الناس، ينبغي علينا أن نغوص فيما هو مشترك بين الناس وأجهزة الكمبيوتر، أو بالأحرى، الفوضى الهائلة للصمامات والكابلات وعناصر التحكم المنسدلة على الشاشات التي كان اسمها في ذاك الوقت «آلات الرياضيات» أو «العقول الإلكترونية».

إن الوجود هو مجموعة من الألعاب، أما تصرفات اللاعبين المشاركين العقلانيين فيقررها نظام أكبر. فأنت تمضي قدمًا، لكن ليس أنت من يتحكم في القرارات التي تتخذها. إن شخصًا ما قد أربك حياتك ووضعك على المحك. والبشر والعالم وتطور التاريخ أشياء ميكانيكية، والكل مبرمج مسبقًا ومدفوع بقوى غير شخصية، كسفينة دون قبطان. وتطورت فكرة رجل آدم سميث الاقتصادي وانطلقت بأقصى سرعة لتدخل إلى عصر الفضاء.

وفي عام 1944 نشر كتاب جون فون نيومان وأوسكار مورجينشتيرن[59] :»نظرية الألعاب والسلوك الاقتصادي[60]»، وولدت معه نظرية اللعبة. وتحول الرجل الاقتصادي الى قطعة شطرنج يتحكم فيها جهاز التحكم عن بعد، وحملت نظرية اللعبة المبكرة الحلم القديم لعلم الاقتصاد، وإذا استطعت قراءة كتاب

59- Oskar Morgensterns اقتصادي. وأستاذ جامعي. متخصص في الرياضيات من الولايات المتحدة من أصول نمساوية.

60- Games and Economic Behavior of Theory نظرية الألعاب والسلوك الاقتصادي. التي نشرتها مطبعة جامعة برينستون عام 1944. هي كتاب أعده عالم الرياضيات جون فون نيومان والاقتصادي أوسكار مورجنسترن الذي يعتبر النص الرائد الذي أنشأ مجال البحث متعدد التخصصات لنظرية اللعبة.

المجتمع رياضيًا فسوف تفهم كل شيء. كان جون فون نيومان مقتنعًا بأن المرء يمكنه أن يفسر المجتمع بأكمله شيئًا فشيئًا باستخدام نظرية اللعبة.

ولد فون نيومان في بودابست عام 1903 ونشأ في مدينة كان تَمر بأبهى عصورها: العلماء والكتاب والفنانون والموسيقيونَ والعديد من المليونيرات المهتمين بالثقافة.

وسأل فون نيومان البالغ من العمر ستة أعوام والدته ذات مرة، عندما كانت ساهمة تحدق في الفضاء: «ماذا تحسبين؟». وفي الواقع كان اسم فون الحقيقي يانوس، لكنهم ينادونه بجون، والده مصرفي يهودي اشترى لقبه الأرستقراطي، ولم يستخدمه أبدًا، ونقله إلى ابنه. في سن الثامنة عشرة، انتقل فون نيومان إلى برلين ثم إلى زيورخ كي يكون كيميائيًّا. ثم حصل على درجة الدكتوراة في الرياضيات. ولما اقتربت الحرب العالمية الثانية، رحل فون نيومان إلى جامعة برينسيتون في الولايات المتحدة الأمريكية. وهناك بدأ العمل مع أوسكار مورجينشتيرن النمساوي، الذي كان في الولايات المتحدة عندما احتل أدولف هتلر وطن نويمان وضمه لألمانيا، ولذلك قرر البقاء على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي. وقد قيل إن جد مورجينشتيرن هو فريدريك الثالث، إمبراطور ألمانيا.

وفي ربيع عام 1945، بعد عام واحد من نشر كتابيهما الرائد،

رشح فون نيومان للانضمام إلى اللجنة المكلفة باختيار المدن اليابانية التي ينبغي إلقاء القنبلة الذرية الأمريكية المطورة حديثًا عليها. وأشرف نيومان على جمع الإحصائيات ومنها: «معدلات الوفيات، وحجم انفجار القنبلة، ومقدار الضرر المتوقع، وأقصى نطاق ستقتل القنبلة فيه الناس».

ووقع الاختيار الأول على مدينة كيوتو لكن وزير الدفاع [61] اعترض عليه. وكانت المدينة التي تعتبر هدفًا مدنيًّا بحتًا تتمتع بأهمية على الصعيدين الثقافي والتاريخي. وفي الساعة 8.10 صباحًا بالتوقيت المحلي، أسقطوا القنبلة من ارتفاع 600 متر فوق مدينة هيروشيما بدلًا من كيوتو، وكانت المدينة تسمى «الصبي الصغير». وأدت الحرارة التي بلغت خمسة آلاف درجة مئوية إلى ذوبان المنازل وهبوب الرياح التي حطمت الجسور ودمرت المباني. واحترق الآلاف من الناس، وذابت جلودهم وتدلت كالشرائط من أجسادهم، وأخذوا يلقون بأنفسهم وهم يصرخون في نهر أوتا حيث غرقوا وأصبحوا أكوامًا مشوهة من الجثث. ثم جاءت الأمطار المشعة، فمات الذين نجوا من الحريق من جراء الأمطار المشعة. وفي الأشهر التالية انتشر الموت في دوائر أخذت تتزايد في الاتساع ومنها انتشار الطفح الجلدي. وبعد بضعة أيام تم إسقاط قنبلة أخرى على مدينة ناجازاكي. انتهت الحرب

61- كان هنري ستيمسون وزيرًا للدفاع في ذاك الوقت.

العالمية الثانية وبدأت الحرب الباردة. واستحوذت نظرية اللعبة لجون فون نيومان على روح العصر. وارتدى الرجل الاقتصادي القبعة الخفية وأخذ يتجسس على صراع القوى الدائر بين الشرق والغرب. وبدا أن حياة الكوكب وموته يقررهما الحركة التالية التي ستقوم بها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على رقعة الشطرنج. كان هذا قبل الإنترنت وقبل الخلايا الإرهابية متعددة الجنسيات. وكان اللاعبون يتحدثون مع بعضهما عبر هواتف حمراء عما إذا كان ينبغي إبادة بعضهم بعضًا أم لا. والتعامل مع علاقات أخرى، مثلما نتعامل مع لعبة الشطرنج لم تكن بمعزل عن طريقة التفكير! إن المستقبل هو من سيقوم بالخطوة العقلانية المنطقية التالية، سواء كانت خانقة أو تحررية، فقد وقع الجميع في براثن نفس المعضلة، والخصوم على طرفي رقعة الشطرنج يحركون كل قطعة بإملاء حتمي نابع من العقل.

إنهم يقولون إن هناك منطقًا يقر بأن ضرب هيروشيما كان حتميًّا. وحددت أذكى عقول القرن الماضي الطريقة وعبرت عنها رياضيًّا.

وحسبما يرى منظرو اللعبة الأوائل، فإن أفضل طريقة لهزيمة الاتحاد السوفيتي كانت إبادة البلد من على ظهر الأرض بضربة ذرية واحدة، قبل أن يسبق الاتحاد السوفيتي ويبيد أمريكا في ضربة واحدة. ووراء تفكك الاتحاد السوفيتي المزيج التالي:

المظاهرات السلمية، وأطباق الأقمار الاصطناعية، والبابا البولندي، والحادث النووي المروع، وموسيقى الروك آند رول، وكاتب مسرحي تشيكي وسياسيون محليون في مدينة ليبزج يرفضون إطلاق النار على الحشود المدنية في يوم عادي من أيام الإثنين، وكل ذلك لم يذكر في أي من النماذج الاقتصادية.

وفكرة أن الحروب والصراعات هي اعتبارات عقلانية منطقية بحتة لا تزال قائمة حتى اليوم. وحتى الملاعب التي تتصارع على أرضها القوى العظمى لم تعد برلين، فيينا، ووارسو، وبدلًا منها انتقل الصراع إلى ملاعب كابول وطهران وبيشاور. وما زال منظرو الألعاب يدعون أنه بدلًا من النظر إلى تفاصيل الصراع، ينبغي أن ننظر إلى العوامل التي يمكن أن تجعل الحرب عقلانية ومنطقية، بغض النظر عن السياق. ويرون أنه علينا أن ندرس الحرب كما «ندرس داء السرطان». فبدلًا من محاولة علاج المرضى فرادى واستنفاد الجهد في معرفة تفاصيل حالاتهم الصحية، علينا أن ننظر في سلوك الخلايا السرطانية نفسها.

الحرب عقلانية ومنطقية، وإلا لما كانت موجودة. والحل هو إقناع العقلاء الاقتصاديين بالتوقف عن الحروب لأنها ببساطة ذات «تكلفة باهظة». فالرجل الاقتصادي يلجأ إلى العنف فقط عندما لا يكون هناك خيار أرخص. لذلك دعونا نعطيه واحدًا.

وقد توفي جون فون نيومان في عام 1957. وبالإضافة إلى

مشاركته في ضرب هيروشيما، فإنه ترك إرثًا يشمل تطوير الحاسوب الحديث، بالإضافة إلى مقترحه الذي حظي بنجاح أقل وهو طلاء القمم الجليدية القطبية باللون الأسود حتى يمكن لأيسلندا أن تتمتع بنفس مناخ هاواي. وأصبحت نظريته في اللعب هي ركيزة الاقتصاد المالي الحديث. ولطالما كانت العلوم الاقتصادية، بنماذجها ونظرياتها منفصلة منذ زمن طويل عن طريقة البيع والشراء التي يستخدمها المحللون والتجار في الأسواق المالية. وهذا ما تغير في الخمسينيات والستينيات.

ويصبح من الممكن لأي شركة أن تبيع الأسهم لزيادة رأس المال، وأن تقوم بالتوسع، أو فتح متجر جديد، أو تعين مزيدًا من الموظفين أو تقوم بعملية تجديد، ويمكن لأي شخص شراء أسهم التداول والمتاجرة بها في البورصة، ثم يشترون بها أسهمًا في شركات أخرى. ويترتب على هذه التجارة مكاسب وخسائر، فقيمة السهم ترتفع وتنخفض، وهو ما يؤثر بدوره على قدرة الشركة في الحصول على رأس المال. هناك مستوى أعلى من التجريد فيما يتعلق، على سبيل المثال، بمؤشرات الصناديق ومشتقاتها المالية. إذا كانت الأسهم المالية وسوق الأوراق المالية تراهن على الشركات، فإن أسواق المشتقات المالية ومؤشرات الإرادات تراهن على الرهانات. والأموال المستثمرة هنا لا تتسرب إلى الواقع بنفس الطريقة، إلا أنها تستمر بدلًا من ذلك في نسخ وعكس نفسها ذهنيًّا.

أما النماذج الرياضية فيمكنها حساب المخاطر المحتملة في هذه الأسواق وتقديم تصور أوضح وأسهل في التعامل معها. وهذا مفيد للاقتصاد ومفيد للمجتمع. ولا ينبغي أن تكون النماذج الرياضية خارقة أبدًا في الواقع وبالطريقة التي كانت عليها في زمن جون فوَن نيومان. وقد كان لذلك عواقب وخيمة؛ فقد أصبح الاقتصاد المالي في الأساس صفقة كبرى. وبحلول حقبة الثمانينيات، كانت صناعة المال تعتمد بشكل كامل تقريبًا على الرياضيات المجردة. وبنفس الطريقة التي صاغ بها الفيزيائيون قوانين للمادة والطاقة، حاول اقتصاد التمويل صياغة قوانين للأسهم ومشتقاتها المالية.

وتكمن المشكلة في أن الاقتصاد ليس علمًا يماثل الفيزياء، إذ لا يمكن للمرء صياغة قوانين للاقتصاد بنفس الطريقة التي يصوغ بها قوانين للطاقة أو المادة. ففي الفيزياء، يمكنك إجراء نفس التجربة مرارًا وتكرارًا والحصول على نفس النتيجة في كل مرة. إذا تركت التفاحة، سوف تسقط على الأرض، أما في الاقتصاد فالأمر مختلف. وكما قال الفيزيائي الأمريكي موراي جيل-مان ذات مرة: «تصور كم ستكون الفيزياء صعبة إذا أصبحت الإلكترونيات قادرة على التفكير». والسوق يتكون من أشخاص يمكنهم أن يفكروا، ويمكنهم أن يشعروا أيضًا. والسوق لا يكون لعبة إذا لم يحوله المرء إلى لعبة.

في ضوء رؤية نظرية اللعبة للعالم، بدأ الاقتصاديون في دراسة ألعاب النرد والروليت كي يفهموا السوق. وإذا كان العالم لعبة، فإن الأسواق المالية يمكن أن تكون كازينو للقمار. وبدا هذا منطقيًّا.

وقال إدوارد ثورب[62]: «إن وول ستريت مثل كازينو كبير للقمار ونظرية اللعبة أكبر بكثير وأكثر إثارة للاهتمام بالنسبة لي مقارنة بلعب القمار في الكازينو».

كان ثورب أستاذًا في الرياضيات ولاعب بلاك جاك[63] وأصبح في النهاية مديرًا لصناديق التحوط[64]. وفي عام 1962، نشر كتاب «اهزم الموزع Beat the Dealer» عن كيفية استخدام الرياضيات للفوز في لعبة البلاك جاك. بعد خمس سنوات، صدر كتابه «اهزم السوق Beat the Market» حول كيفية استخدام الرياضيات في هزيمة سوق الأوراق المالية، ألعاب حظ في

62- Edward Thorp أستاذ رياضيات أمريكي، ومؤلف، ومدير صندوق تحوط، وباحث في لعبة ورق. لقد كان رائدًا في التطبيقات الحديثة لنظرية الاحتمالات، بما في ذلك تسخير الارتباطات الصغيرة للغاية لتحقيق مكاسب مالية موثوقة.

63- blackjackspelare لعبة تلعب بأوراق الكوتشينة والمعروفة أيضًا باسم 21، هي أكثر ألعاب القمار انتشارًا في العالم. تقوم اللعبة على أن يكون مجموع قيمة الأوراق التي يملكها اللاعب هو 21.

64- صناديق التحوط أو ما تعرف بالمحفظة الوقائية هي صندوق استثمار يستخدم سياسات وأدوات استثمارية متطورة لجني عوائد تفوق متوسط عائد السوق أو معيار ربحي معين دون تحمل نفس مستوى المخاطر. من الأدوات التي تستخدمها صناديق التحوط هي المشتقات المالية والعقود الآجلة والمقايضات. أما أمثلة على السياسات الاستثمارية المستخدمة فهي الرفع المالي والبيع المكشوف.

كازينو القمار أم قيمة الشركة، لاس فيجاس أم وول ستريت. إن كل الأشياء تتداخل وتندمج.

عندما بدأ الاقتصاديون بناء نماذج تعتمد على ألعاب النرد والروليت، كانوا يفترضون تلقائيًّا أن السوق يعمل بنفس الطريقة. إن طريقة إلقاء كرة الروليت في الكآزينو لا تؤثر على كيفية سقوطها وأين ستستقر في المستقبل. وضمن الافتراض الذي يبدو بريئًا أن السوق المالي يعمل مثل كازينو القمار، فإن الافتراض الأكبر هو أن السوق ليس له ذاكرة. وكل استثمار أو رهان مستقل عن الاستثمار أو الرهان الذي سبقه. وكما يمكن أن تقف وتستقر كرة الروليت على اللون الأحمر أو الأسود، يمكن أن يرتفع السهم أو ينخفض، دون أن يتأثر بما حدث في الماضي. إن السوق ينسى ويغفر. ويبدأ كل شيء مجددًا في صباح اليوم التالي. وقد تطورت هذه المبادئ شيئًا فشيئًا في فرضية كفاءة السوق (EMH)[65].

وتنص الفرضية على أن تحديد الأسواق المالية للأسعار يمثل دائمًا أفضل تقييم لما تساويه قيمة أي شيء. والسوق دائمًا على حق؛ لذلك لا ينبغي أن تتشكل فقاعات الهواء، وإذا تكونت، فإن

65- فرضية كفاءة السوق EFFICIENT MARKET HYPOTHESISوالتي طورها يوجين فاما. على أن أسعار الأسهم في سوق الأوراق المالية الكفء تعكس جميع المعلومات المتوفرة والمتعلقة بالسوق وبالتالي فهي محصلة آراء جميع المستثمرين. إذًا تستنتج الفرضية أن أسعار الأسهم دائمًا عادلة وبالتالي من المستحيل التغلب على السوق بشكل مستمر غير عشوائي.

السوق سوف يصحح نفسه.

ولا ينبغي لأحد أن يتدخل في هذه الحالة.

إن هذا المنطق يقوم على عدة فرضيات. أولًا: أن كلًّا من المستثمرين والمشترين عقلانيون تمامًا. ثانيًا: أن كل شخص لديه حق الوصول إلى نفس المعلومات حول عملية الشراء تحديدًا، وما يصلون إليه من المعلومات يفسرونها بعد ذلك بنفس الطريقة تمامًا. ثالثًا: أن يتخذ المشترون والمستثمرون القرارات بشكل مستقل، دون أن يتأثر بعضهم ببعض.

ولأن المعلومات تنتشر بهذه السرعة الفائقة، يفترض أن السوق يعرف تلك المعلومات أكثر من أي شخص آخر في أي وقت مضى. ومن المفترض أن بوسعه استيعاب جميع المعلومات المتاحة تلقائيًّا وعلى الفور. إن يد آدم سميث الخفية التي تعرف كل شيء تخلق نظامًا لولاه لعمت الفوضى بسبب الرغبات والمتطلبات البشرية. ويشكل السوق وعيًا جماعيًّا فوقيًّا يوجهنا ويهذبنا، ولا يمكن أن يخطئ أبدًا؛ لأنه مجرد حصيلة لنشاط لامتناهٍ لاستقراء المعلومات التي تتحكم في كل سعر وكل تحول في سوق الأوراق المالية.

وقام اللاهوتيون بمضاهاة فرضية كفاءة السوق بكلمة الله. وليس من الصعب فهم السبب.

السوق يعرف أكثر مما تعرف، ويمكنه إرضاؤك، وفي الوقت نفسه هو الذي يتخذ القرارات. وفي الواقع، هذا هو الخيال القديم، ولكن لم يتم الأخذ به من قبل إلى أبعد مما كان عليه في فرضية كفاءة السوق.

ذكر آدم سميث أن هناك «سعرًا طبيعيًا» لكل سلعة. وتم الدفع بجميع الأسعار باستمرار نحو هذا السعر. فقد يكون السكر، لعدة أسباب، أكثر تكلفة أحيانًا أو أرخص في أحيان أخرى، ولكن يتم الدفع به دائمًا نحو سعره الطبيعي. الاقتصاد لا يقف ساكنًا أبدًا في هذه الحالة وإلا سوف تتوقف الساعة الآلية برمتها. وبدلًا من ذلك فإن علم الاقتصاد يدور حول التوازن، ويجذب باستمرار إلى الاتجاهات المختلفة للمصالح المتنافسة والمتضاربة.

وفي نهاية المطاف، فقد تم تطوير نظرية رياضية لهذه القصة. فالسوق مدفوع بالعرض والطلب: إذا كان هناك كثير من المظلات (العرض الكبير) والطلب المحدود (الشمس المشرقة)، فإن سعر المظلات سينخفض. إذا كان هناك، من ناحية أخرى، عدد قليل من المظلات (العرض المحدود) والطلب الكبير (المطر المنهمر)، فإن السعر سيرتفع.

هذه النظرة إلى السوق شاعرية أكثر منها علمية. وفي عالم إحصائي، لا توجد مشكلة في الحصول على المعلومات. وفي النهاية سوف تتدفق جميع المعلومات المطلوبة بسلاسة إلى

الشخص الذي يعرف كيف يستغلها. وبالطبع، فإن الأسواق الخالية من الاحتكاك التجاري[66] لا تعمل، لكن هذه أولًا وقبل كل شيء قصة عن الكمال الكامن في اقتصاد السوق، ولا نريده أن يكون كما كان في الاتحاد السوفيتي.

ولعلها قصة مطمئنة. وفي الوقت نفسه، لن يكون مجديًا أن نتساءل عما إذا كان اقتصاد السوق سيعمل بكفاءة في عالم ثابت حيث كل الناس رجال مثاليون وعقلانيون واقتصاديون. ولو أن كل الناس مثل الرجل الاقتصادي علاوة على أن العالم استاتيكي، فإن أي نظام اقتصادي سينجح. وإذا كان لدى الجميع كل المعلومات وكان بإمكانهم دائمًا تحديد عواقب أفعالهم، فيمكن التنبؤ بالاقتصاد لدرجة أنه بات من الممكن التخطيط له مركزيًا من موسكو.

ومهما كانت النماذج الرياضية التي يبتكرها الاقتصاديون معقدة، فهي عاجزة عن قول أي شيء عن الواقع طالما أنها تستند إلى افتراضات ليس لها أي علاقة بالواقع. ووصفت فرضية كفاءة السوق الفعالة بأنها «أبرز خطأ في تاريخ اقتصاد المال».

والسوق ليس آلة محايدة تقوم بتسعير كل شيء بشكل صحيح.

66- الاختناقات والضغوط والعوائق التي تقف حجر عثرة أمام التغيرات الاقتصادية.

ويزعم الممول جورج سوروس[67] أن العكس هو الصحيح. فالسوق ليس على خطأ في بعض الأحيان بل هو دائمًا على خطأ. وأولئك الذين يلعبون في السوق يتعاملون معه بطريقة خاطئة، لكن طريقتهم الخاطئة تؤثر على الكيفية التي تسير بها الأوضاع. وبمجرد أن يبدأ المرء في فهم ذلك، يمكنه أن يصبح غنيًّا مثل جورج سوروس، وهذا وفقًا لجورج نفسه.

في عالم نظرية اللعبة، لن يفرق إذا كان هناك شخص في الطائرة التي سوف يتم إسقاطها أم لا. ويتم تحديد كيفية تحرك الطائرة في الفضاء وسط مقذوفات المدافع المضادة للطائرات من خلال منطق النظام. لكن الأسواق المالية ليست أنظمة عقلانية ومنطقية. إنهم يتكونون من البشر. والسلوك الاقتصادي يحكمه المشاعر والسلوك الجماعيان وليس الفردية واللاعقلانية.

الاقتصاد ليس آلة تتقدم ميكانيكيًّا إلى الأمام، وتعمل الملايين من أجزائها بشكل مستقل، لقد تم تنظيمه حسب مخطط بسيط من أنظمة عقلانية في سعي أبدي لتحقيق التوازن. إنها شبكة علاقات، والمخطط الوحيد المتوفر ينبع من الداخل ولا يمكن فهمه إلا في سياق علاقته بالكل.

67- George Soros ولد عام 1930،وهو مجري المولد أمريكي الجنسية. رجل أعمال ومستثمر ومهتم بالعمل الخيري. عرف بدعمه للسياسات الليبرالية وبدوره الفعال في مرحلة التحول من الشيوعية إلى النظام الرأسمالي في المجر.

ومع ذلك، يبدو أن الرجل الاقتصادي في النظريات المالية يعيش في عالم يشكل الزمن فيه سلسلة من الأحداث المنفصلة عن بعضها. فاللحظة تموت بمجرد أن تبدأ الأخرى: الماضي والحاضر والمستقبل منفصلون عن بعضهما تمامًا. وفي الواقع، يعمل المستثمرون معًا:؛ إنهم أسرى ومبدعون للمنطق العقلاني الذي يتحول بعد ذلك إلى تحركات في السوق. الكل هو محصلة لأجزائه ولكن لا يمكن اختزاله. والوقت شيء معقد؛ فذاكرة الأمس وتوقعات الغد تخلق الحاضر، والتوقعات تحدد ما تتذكره، وذاكرتك تحدد توقعاتك.

كما لم يقدَّم تفسير للنظريات التي تدور حول التوازن الطبيعي للسوق بشكل صحيح حتى حقبة التسعينيات. وقد كان السوق ببساطة أنيقًا للغاية، ومثيرًا في آلياته البسيطة، وممتعًا وهو مسربل في ثوب من الأعداد التي تزداد تعقيدًا. ومن وول ستريت إلى الحرم الجامعي، أراد الناس أن يصدقوا هذا الحلم. وهكذا فعلوا حتى يوم 15 سبتمبر 2008.

الفصل السابع

وفيه نصب اللعنة على الاقتصاد العالمي

إن الفصل الثاني من مسرحية فاوست الرائعة ليوهان فولفجانج فون جوته، أغرب بكثير من الفصل الأول. فقد عقد الدكتور فاوست اتفاقًا مع مبعوث الشيطان، ميفيستوفيليس[68]، وعندما يبدأ الفصل الثاني من المسرحية يجدان نفسيهما في بلاط الإمبراطور.

وكانت الإمبراطورية تواجه مشكلات اقتصادية خطيرة. فالذهب هو عملة البلد ولكن لا يوجد منه ما يكفي لتغطية النفقات. فالإمبراطور ينفق بتهور، وأوشكت الكارثة المالية أن تقع.

غير أن الشيطان ميفيستوفيليس الماكر اقترح على الإمبراطور ما يلي: حتى لو لم يكن هناك ما يكفي من الذهب، فمن المحتمل أن يكون هناك ذهب في أعماق الأرض لم يتم اكتشافه بعد، وسيتم العثور عليه في يوم من الأيام. وحتى إذا لم يكتشف هذا الذهب حتى الآن ونحن نعتقد أنه موجود، فلا يزال له قيمة. ولأن الإمبراطور يمتلك الأرض، فينبغي أن يكون قادرًا على إصدار الأوراق المالية مقابل قيمة ما لم يتم اكتشافه بعد من الذهب،

68- باللاتينية: Mephostopheles, Mephistophilis, Mephistophilus, Mephistopheles Mephisto وهو اسم يعطى غالبًا للشخصية التي تمثل الشيطان. كما أنه اسم الشيطان في الأسطورة الفاوستية. وعلى العكس من الشيطان الذي يمثل عادةً في المخيلة الغربية في هيئة شبه حيوانية بحوافر وقرون. فإن مفستوفيليس أكثر إنسانية حيث إنه يظهر في هيئة رجل طويل مسربل بالسواد عادة. ويحمل في الصور كتابًا أحمر يوقع فيه الأشخاص الذين يبيعون أرواحهم له. ويبدو أنه أوثق علاقة بهيئة الجحيم من الشكل الشبيه بالعنزة. غالبًا ما يظهر مفستوفيليس في هيئة راهب فرانشسكاني. وبهذه الهيئة يظهر في نصي مارلو 1616 وجوته 1725.

هكذا اقترح ميفيستوفيليس.

وهنا، بعدما قدم مبعوث الشيطان مقترح الأوراق المالية، يتحول الإمبراطور من مديون إلى متحرر من الديون. وكالسحر، فقد بات ثريًا وأخذت أرضه تزدهر غير أن أساس إمبراطوريته تحول في الوقت نفسه أيضًا، من الذهب الحقيقي إلى مجرد وعود جوفاء على الورق.

إن إمكانات الرخاء هائلة، وكذلك المخاطر أيضًا.

لم يكن جوته مجرد واحد من أعظم الشعراء في تاريخ العالم فقط، بل كان وزيرًا للمالية في مقاطعة فايمار.

*

إن تاريخ النقود هو رحلة من الملموس إلى اللاملموس. عندما كان علم الاقتصاد ما زال في مهده، كانت من المفترض أن تكون العملة النقدية سهلة الاستخدام والعد، فالأصداف والماشية والملح هي أفضل العملات. وعندما أشتري منك أرضًا مقابل عشر أبقار، فإن هذه الأبقار تساوي شيئًا لسبب بسيط وهو أن بوسعك أن تأكلهم كي تبقى على قيد الحياة وكي تتحمل برد الشتاء القارص. وفي العصور الحديثة، استخدم شعب قيرغيزستان خيول السهوب الروسية كوسيلة للدفع أي كعملة. وكانت الخراف إحدى فئات العملة الأصغر وكانت جلود الخراف تمثل فكة النقود.

في كتاب فلسفة المال The Philosophy of Money، قال جورج سيميل[69] إن علاقتنا بالنقود تشبه علاقتنا بالرب، فالنقود وسيط مبادلة مطلق مثلما الله مطلق.

ويمكن للنقود أن تسعر جميع السلع الأخرى. وفي عالم بلا نقود، إذا كنت في حاجة إلى غلاية الشاي التي أملكها، فلا يمكنك الحصول عليها إلا إذا كنت أنا في حاجة إلى مجرفتك فقط. لماذا أرغب في أن أقايضك بغلاية الشاي التي أملكها؟ ينبغي أن يكون لديك شيء أريده منك كي تتم هذا المقايضة التي نريدها نحن الاثنان. وبعبارة أخرى، يجب أن ينشأ ما يسميه الاقتصاديون «الاتفاق المتبادل بين الأطراف».

من ناحية أخرى، إذا كانت هناك نقود، فلن أحتاج إلى مقايضة مجرفتك بغلاية الشاي الخاصة بي. يمكنك إعطائي النقود بدلًا من ذلك، ومن خلال توفير النقود، يمكنني توفير قيمة ما قمت بتبادله معي. وفي المستقبل، يمكنني أن أبدله بشيء آخر.

إن واحدة من وظائف النقود هي أنها تحفظ قيمة الشيء. ويصبح التداول التجاري أسهل بكثير وأكثر شيوعًا. وبدلًا من استكماله، يمكن تأجيل عملية التبادل التجاري لبعض الوقت في المستقبل.

69- Georg Simmel فيلسوف وعالم اجتماع ألماني اشتهر بتحليل الظواهر والتفاعلات الاجتماعية.

في الصين، في نحو عام 1200 قبل الميلاد، بدأ استخدام الصدف الحلزوني، من المياه الضحلة في المحيطين الهندي والهادئ كعملات نقدية. وفي نهاية العصر الحجري، تم صنع نسخ من الأصداف من البرونز والنحاس، وهكذا ولدت أول عملات معدنية حقيقية في التاريخ. في النهاية أصبحت عملات مستوية أو ذات ثقوب في مركزها كما في الصين، حتى يمكن تجميعها في سلاسل طويلة.

وخارج الصين، كانت العملات المعدنية قطعًا من الفضة مدموغة بصورة إله أو بختم الإمبراطور. والتقنية التي تم تطويرها فيما يعرف اليوم بدولة تركيا؛ انتشرت بسرعة عند الإغريق والفرس والمقدونيين، وبعد ذلك الرومان. وعلى عكس الصين، حيث تم استخدام معادن بسيطة، بدأ آخرون في صك العملات المعدنية من الذهب والفضة والبرونز.

وصنعت أول عملة ورقية في العالم من الجلد، وكانت على شكل مربع من جلد الغزال طوله ثلاثون سنتيمترًا مربعًا من أطرافه مزركشة بألوان زاهية. وفي نحو عام 800 بعد الميلاد، بدأ استخدام العملات الورقية في الصين، واستمر هذا لأكثر من 500 عام حتى تم التخلي عنها بسبب التضخم. كان إغراء صك مزيد من النقود كبيرًا للغاية وخاصة مع تمويل حروب جديدة، وسرعان ما أصبحت قيمة الأوراق النقدية لا علاقة لها بقيمة أي

شيء آخر، وتحولت الصين إلى تأسيس اقتصادها على العملات الفضية.

كانت عملة معظم البلدان تعتمد على الفضة أو الذهب حتى قبل بضعة عقود. في عام 1816 تم ربط العملة الإنجليزية بالذهب. وفي ذلك الوقت، كانت الأوراق النقدية مستخدمة لمئات السنين ولكن قيمتها كانت مرتبطة بشكل مباشر بالمعادن. وتم تمرير تشريع معيار الذهب الأمريكي في عام 1900 وأدى إلى إنشاء نظام الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي. وأصبح بوسعك أن تأخذ أوراقك النقدية إلى الدولة وتعطيك في مقابلها ذهبًا بسعر صرف ثابت.

وفي عام 1945 تم تأسيس نظام بريتون وودز[70]. والتقى أربعة وخمسون من الحلفاء في الحرب العالمية الثانية في بلدة

70- Bretton Woods الاسم الشائع لمؤتمر النقد الدولي الذي انعقد من 1 إلى 22 يوليو 1944 في غابات بريتون في نيوهامبشر بالولايات المتحدة الأمريكية. وقد حضر المؤتمر ممثلون لأربع وأربعين دولة. وقد وضعوا الخطط من أجل استقرار النظام العالمي المالي وتشجيع إنماء التجارة بعد الحرب العالمية الثانية. وتمنى الممثلون إزالة العقبات على المدى الطويل بشأن الإقراض والتجارة الدولية والمدفوعات. وقد رفع مؤتمر غابات بريتون خططه إلى منظمتين دوليتين هما: صندوق النقد الدولي والبنك الدولي للإنشاء والتعمير. وقد عمل الصندوق على تشجيع الاستقرار المالي الدولي وذلك من خلال توفير المساعدات قصيرة الأجل لمساعدة الأعضاء الذين يواجهون عجزًا في ميزان المدفوعات. وقد أعطى البنك قروضًا دولية ذات آجال طويلة خاصة للدول ذات النمو المتدني. تم الاتفاق في تاريخ 1 إلى 22 يوليو 1944 بثبيت عملات أجنبية مقابل الدولار حيث تم تحديد الدولار بسعر 35 دولارًا مقابل أونس من الذهب. في عام 1967, رفض مصرف في شيكاغو منح قرض بالجنية الإسترليني لأستاذ جامعي اسمه ميلتون فريدمان لأنه كان ينوي استعمال الأموال لإنقاص العملة البريطانية. رفض المصرف منح القرض كان بسبب اتفاقية بريتون وودز. وكان هدف هذه الاتفاقية تأسيس استقرار مالي دولي بمنع تبادل العملات بين البلدان والحد من المضاربة في العملات الدولية.

بريتون وودز الصغيرة، في نيو هامبشاير، وانضموا إلى هيكل تم فيه تحديد سعر صرف ثابت لعملة الدولة مقابل الدولار الأمريكي. وتم تأمين قيمة عملة الدولة التي يمكن استبدالها دائمًا بالدولار، كما يمكن استبدال الدولارات بالذهب، والذهب لا يصدأ، والذهب يدوم إلى الأبد. ويمكن كبس كل الذهب الذي تم العثور عليه على وجه الأرض في مكعب يبلغ كل ضلع فيه أربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر فقط. واكتسب كل ما هو نادر قيمة أيضًا.

وفي عام 1971 تم التخلي عن نظام بريتون وودز. واليوم، نجد الأوراق النقدية هي مجرد قطع من الورق تضعها في محفظتك. وتكتسب قيمتها بنفس الطريقة التي تكتسب بها السلع الأخرى قيمتها، لأننا نحتاج إليها.

أنت تريد المال لأن الآخرين يريدون المال. وهذه الرغبة المشتركة تعني أنك تعرف أنه يمكنك استخدام أموالك لشراء السلع والخدمات. طالما أنك تعتقد أن الأموال ستظل ذات قيمة، فسوف تستمر في العمل كي تحصل عليها؛ ومن ثم يعمل النظام.

واليوم تتمثل مهمة البنوك المركزية في طمأنتنا وإقناعنا بأننا نستطيع الوثوق بالدولار والكرونا واليورو والجنيه. فهم مهتمون بمصداقيتهم وسمعتهم وشرعيتهم أكثر من كمية الذهب التي في بعض الأقبية. إن الأمر يتعلق بالصورة الذهنية والتوقعات وعلم النفس. وإذا توقفنا عن الإيمان بالمال، سينهار الاقتصاد. والمال

بنية اجتماعية، وهو يمثل للأسواق المالية ما قد يمثله الإيمان بالنسبة للدين، وفي البدء كان هناك إيمان.

وقد تحدث أرسطو[71] منذ ألف ومئتي عام، عن الفيلسوف طاليس الذي تنبأ ذات مرة بأن كمية محصول الزيتون في العام المقبل ستكون وفيرة وسوف تبلغ رقمًا قياسيًا. وكانَ طاليس قد تواصل مع ملاك معاصر الزيتون المحلية، وعرض شراء حقوق تأجير جميع المعاصر خلال الموسم. لم يكن أحد يعرف كيف سيكون حال المحاصيل. وبأموال طاليس، كان يمكن للملاك تأمين أنفسهم ضد الخسائر. لقد وافقوا على الصفقة. وبعد أشهر، تبين أن طاليس كان على حق؛ كان محصول الزيتون بالفعل هائلًا جدًّا في ذلك العام. ومن ثم احتاج كل المزارعين إلى معاصر الزيتون فجأة. وبما أن طاليس اشترى حق تأجيرها بسعر محدد، يمكنه الآن تأجيرها بسعر أعلى.

واليوم، يطلق على الاتفاقية التي أبرمها طاليس «تداول الخيارات».

لطالما كان الابتكار في التمويل يتعلق بتغيير العلاقة بين الوقت والمال والتلاعب بها بشتى الطرق. ولعدة قرون كان الناس يشككون في الأدوات المالية، لأنهم يتلاعبون بالوقت تحديدًا.

71- Aristoteles رياضي وعالم فلك وفيلسوف يوناني من المدرسة الأيونية. وهو أحد الحكماء السبعة عند اليونان. وهو من قال بأن الماء أصل الأشياء كلها. واكتشف عددًا من النظريات الهندسية. رفض الأخذ بالخرافات والأساطير. وقيل إنه تنبأ بكسوف الشمس الكامل الذي حدث في 28 أيار من عام 585 قبل الميلاد كما حاول تحديد الأفلاك السماوية بالنسبة للأرض. فجعل النجوم أقربها إلى الأرض. ثم القمر وبعده الشمس

إن الزمن لله ولله وحده. والعقيدة اللاهوتية الخاصة بالرب كانت تدور حول كيف أن الشخص الذي يقرض المال مقابل فائدة «يبيع وقتًا». فعندما أمنحك قرضًا، فأنا أمنحك الفرصة لشراء شيء ما كنت لتتمكن من شرائه إلا في العام المقبل. وتصبح الفائدة التي تدفعها هي سعر الوقت الذي يمر بين فرصة الحصول على القرض والفرصة التي سوف تأتيك في العام المقبل.

وتسعير الوقت، كان يعد كفرًا.

وقد قال أرسطو إنه من غير الطبيعي فرض فائدة على اقتراض المال لأن «المال نفسه يحقق ربحًا». فالمال نجس، وغير مشروع. إن توالد النقود كمن يجامع نفسه، أي إن ولادة النقود لنقود أخرى يعتبر نوعًا من الانحراف الجنسي[72].

لقد تغير هذا الموقف لأول مرة بمجيء جون كالفن[73] والإصلاح البروتستانتي. لماذا لا يمكن للمرء أن يكسب بنفس القدر أو أكثر من نمو الشركات أو المتاجر ومن امتلاك الأراضي في الريف؟

72- يرى أرسطو أن للنقود قوة تستمدها من القانون المطبق في البلد وهي وسيلة لتبادل السلع وأن النقود عقيمة وغير منتجة ولا تدر ربحًا وليست ذات أصل طبيعي وهي وسيط في المبادلة توفر علينا المبادلة العينية وهي مقياس للقيمة وكذلك نعبر عن مبادلة كل سلعة بعدد من وحدات النقود. كما كان يرى أن النقود لا يمكن أن تولد نقودًا.

73- John Calvin مصلح ديني ولاهوتي فرنسي (1905 - 1964)، مؤسس المذهب الكالفيني المنتشر في سويسرا وفرنسا. في الرابعة عشرة من عمره أرسله أبوه والذي كان يعمل محاميًا إلى جامعة باريس لدراسة القانون والعلوم الإنسانية. وفي عام 1532 كان قد تخرج ليعمل دكتورًا في القانون في مدينة أورلينز الواقعة في الشطر الشمالي لفرنسا. كان أول أعماله المنشورة كتاب دي كلامنتيا للفيلسوف الروماني لوسيوس أنايوس سنيكا والملقب بسنيكا الأصغر مصحوبًا بتعليقاته الشخصية. كان من أشد أتباع المذهب اللوثري (نسبة إلى مارتن لوثر).

إن ربح التاجر يجيء من اجتهاده وينبغي أن يعود هذا الربح إليه؛ فلماذا لا تتزايد الرباح؟ هكذا سأل كالفن، الذي حاول تكييف المسيحية بما يتواءم مع طبقة البرجوازية الناشئة في المدن.

ولم يعد الربا والفائدة والربح مشكلة لاهوتية. وهكذا كانت المسيحية الإصلاحية تسير جنبًا إلى جنب مع الرأسمالية في العصر الحديث.

إن الغرض من الأدوات المالية هو إدارة المخاطر الاقتصادية بطرق شتى، فلتنقلها بعيدًا عن الأشخاص الذين لا يستطيعون إدارتها إلى آخرين يستطيعون. كان يمكن أن يكون محصول الزيتون في ذلك العام ضئيلًا، أو كان يمكن أن يحترق أو يزوره الصقيع. وتحمل طاليس هذه المخاطرة بدلًا من المزارعين، ومن ثم تمكن من تحقيق الأرباح لاحقًا. إن الأسواق المالية تعد مفارقة، بمعنى أنك لا تستطيع تحقيق ربح دون مخاطرة. وفي الوقت نفسه، فإنك تنهار إذا جازفت بكثير من المخاطر.

في عام 1997، كان أسطورة الروك ديفيد باوي[74] بحاجة إلى المال، وكان قد بلغ الخمسين من عمره وأراد شراء حصة مدير أعماله السابق توني ديفريز، الذي كان لا يزال لديه الحق في بعض أرباح ألبوم ديفيد باوي على الرغم من أنهم انفصلوا

74- David Bowie ديفيد روبرت جونز، معروف مهنيًّا باسم ديفيد بوي كان مغني روك بريطانيًّا، شاعرًا وملحنًا وممثلًا.

منذ عدة سنوات. لم يكن باوي بالتأكيد فقيرًا، فالمال كان يتدفق عليه باستمرار من ريع أغانيه: «غرائب الفضاء Space Oddity» و«التحدي Rebel Rebel» و«المارد جين Jean Genie» و«زيجي ستار دست Ziggy Stardust». وستستمر الأموال في التدفق خلال العقود القادمة من حقوق استخدام الألبومات الخمسة والعشرين و287 أغنية التي سجلها.

غير أنه أراد الحصول على المال الآن.

وطرح في السوق ما يسمى بـ«سندات بوي Bowieobligation»، وهو شكل جديد من المنتجات المالية[75]. ومن ثم أصبح المال وقتًا والوقت مالًا، ويمكنك على ما يبدو تحريف تلك العلاقة والتلاعب بها.

باع بوي دخله المستقبلي[76] من الموسيقى التي تم تأليفها وتسجيلها بالفعل. وفي المقابل حصل أولئك الذين اشتروا سندات بوي على جزء من عائداته المستقبلية مدى الحياة، ومن ثم يمكن لبوي أن يبيع سندات مقابل نصف مليار كرونا على الفور.

75- هي الأدوات التي تساعد على الادخار والاستثمار أو الحصول على التأمين أو الحصول على قرض عقاري ومنها: الأسهم والسندات، سندات الخزينة، الخيارات، صناديق الاستثمار المشتركة، وشهادات الإيداع والمعاشات.

76- سندات المشاهير هي سندات دين تجارية صادرة عن صاحب حقوق الملكية الفكرية القائمة على الشهرة لتلقي الأموال مقدمًا من المستثمرين نيابة عن جهة إصدار السندات وعملائهم من المشاهير مقابل تكليف المستثمرين بالحق في جمع أموال الملوك المستقبلية للأعمال المشمولة، من حقوق الملكية الفكرية المدرجة في السند.

ولم تعد الأموال تدر عليه عامًا تلو الآخر، بل حصل على مبلغ إجمالي واحد بدلًا من ذلك.

ولم يقتصر هذا الأمر على الفنانين الآخرين فقط بل بدأت البنوك الأمريكية أيضًا في التفكير على نفس المنوال. ومثلما تدفقت الملايين ببطء على بوي على مدار عدة عقود تالية، أقرضت البنوك الناس مليارات من الأموال لشراء منازل. كانت هذه الأموال تدر على البنوك لأن الناس كانوا يسددون قروضهم.

فلماذا لا تبيع هذه القروض، مثلما باع بوي حقوقه؟

لقد أقرض أحد البنوك 100,000 دولار لكل 10,000 عائلة أمريكية، أي إن مليار دولار سوف يستردها البنك على مدى السنوات الخمس والعشرين التالية. الآن أصدر البنك ورقة تقول إن من يملك هذه الورقة سيكون له الحق في الحصول على المال من القروض. ثم قام البنك ببيع الورقة إلى شخص آخر (على سبيل المثال، صندوق معاشات). وكالسحر استطاع استرداد مليار جديد رائع بعدما أقرض لــ 100,000 عائلة جديدة.

كان الأمر مثل تعويذة سحرية. أنت تقرض مليارًا وتبيع القرض وتحصل على مليار آخر. ولكن الشيء الوحيد الذي قمت ببيعه حقيقة هو حزمة من الديون. مال أكثر، ومخاطر أقل، والكل فائز. وقد تغيرت كثير من الأنشطة المصرفية جذريًا. بالطبع، كانت

المشكلة أن الخطر لا يزال قائمًا، إنه كامن هناك في مكان ما في النظام.

وكان من المرجح أن أغاني ديفيد بوي سوف تستمر في توليد المال ودره عندما أنشأ سنداته في عام 1997 وحصل على نصف مليار كرونا. وكان هذا هو دخل الفنان المستقبلي مقابل موسيقاه. كيف كان يمكن لأي شخص في عام 1997 إذًا أن يتنبأ بما ستكون عليه ظاهرة تحميل الموسيقى الهائلة؟ أو ما مدى انخفاض أرباح الفنان من جراء ذلك؟ نحن نعرف الإجابة اليوم. لكن هذه ليست مشكلة ديفيد بوي.

إنها مشكلة من اشتروا السندات.

وفي السابق، كان البنك يتحمل العواقب إذا تخلف المقترض عن سداد أقساط الرهن العقاري. وبطبيعة الحال كانت البنوك أكثر حذرًا في منح القروض في ذاك الوقت. الآن انقلبت العلاقة رأسًا على عقب. وبدأ اهتمام البنوك بمن يقترضون الأموال يقل تدريجيًّا إلا أنهم يبيعون القروض في كل الأحوال. وكلما زاد المال الذي أقرضه البنك، زادت القروض التي كان عليه بيعها؛ لأنه حقق مزيدًا من الأموال.

كان يجب على شركات التصنيف الائتماني التي كان من المفترض أن تستخدم هذا النوع من المنتجات المالية أن ترى

المخاطر. ولكن تم الدفع لهم من قبل نفس البنوك التي أنشأت الأوراق المالية والتي طلب منهم تصنيفها. وكانت شركات التصنيف الائتماني شركات في السوق، وإذا لم يرُق للبنك هذا التصنيف الائتماني يتوجه إلى جهة أخرى. علاوة على أن البنوك وشركات التصنيف الائتماني استخدمت نفس النماذج الاقتصادية التي بنيت على فكرة أن كل الناس كانوا مثل الرجل الاقتصادي. لقد كان من المستحيل ببساطة أن تنخفض أسعار البيوت دون رادع. لا يمكن للسوق أن يخطئ وكذلك السندات، أي إنها «آمنة».

وأبقى مجلس الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي على أسعار الفائدة عند مستوى منخفض غير مسبوق بدلًا من القيام بعمل شيء حيال الموقف.

وأخذ المستوى المعيشي للطبقة الوسطى الأمريكية يرتفع ارتفاعًا طفيفًا منذ السبعينيات. وبالنسبة للسياسيين من جميع الأطياف، كان من المهم أن تشعر الطبقة الوسطى بأنها فائزة، على الرغم من الفجوة التي تتسع. وماذا ستكون الولايات المتحدة إذا لم يتحسن حال الطبقة الوسطى؟ أصبح حلم الحصول على منزل تتملكه هو الحل. يجب أن تتاح لكل عائلة أمريكية الفرصة –ليس المال ولكن الفرصة– كي تشتري منزلًا. لقد بنيت هذه الفكرة على القدرة على بيع الوقت. وبما أن أسعار المنازل ترتفع، فلماذا لا ترتفع الديون بنفس المعدل؟

وبين عامي 1997 و2006 ارتفعت أسعار المساكن في الولايات المتحدة بنسبة ٪124. ولما كان الوضع في أسوأ حالاته، كان 160 ألف شخص يشترون منازل أسبوعيًا. لقد كانت هذه أكبر فقاعة اقتصادية في تاريخ البشرية.

أقرضت البنوك الأموال للأشخاص الذين لم يتمكنوا من سدادها. والأكثر من ذلك، أنهم أقرضوا الكثير من المال، وفي النهاية قاموا هم أنفسهم بإعادة شراء العديد من القروض لأن وكالات التصنيف الائتماني قالت إن هذه الأوراق كانت آمنة تمامًا. وعندما انفجرت الفقاعة، ظلت البنوك هناك دون أموال ومع أوراق اتضح أنها بلا قيمة. إنها أوراق انتشرت في جميع أنحاء العالم. ولا أحد يريد أن يلمسها.

وفي 15 سبتمبر 2008، انهار بنك الاستثمار ليمان براذرز وكانت تلك بمثابة إطلاق إشارة بدء السباق. فقد جرت البنوك الأمريكية الاقتصاد العالمي معها إلى الانهيار.

أدت المضاربات والجنون المالي إلى كوارث اقتصادية ستبقى راسخة في ذاكرة الناس. «هذه المرة مختلفةThis time is different »، هكذا نقول مرارًا وتكرارًا. ووفقًا لما أورده كل من

كارمن إم. رينهارت[77]، وكين إس روجوف[78] في دراستيهما «هذه المرة مختلفة»: ثمانية قرون من الحماقة المالية Eight Centuries of Financial Folly فإن التكهنات تنشأ عندما يغلق خيالنا الجمعي بصره عن شيء نعتقد أنه جديد وفريد تمامًا. نحن نخلق قيمة من خلال خلق أشياء تختلف عنا، ثم نحاول سد الفجوة.

عندما يعرف أن الناس يكسبون الكثير من المال في سوق معين، يبدأ المزيد والمزيد منهم في استثمارأموالهم فيه، فترفع الأسعار، وكلما ارتفعت الأسعار، زادت استثمارات الناس. وبالطبع، كلما استثمروا أكثر، ارتفعت الأسعار أكثر. حتى عندما يبدأ الناس في رؤية ما يحدث، فلا يبدو أن ذلك يؤثر فيهم كثيرًا، فهم يواصلون القذف بأموالهم داخل الفقاعة مباشرة.

وحتمًا سوف يصل الأمر إلى النقطة التي يتحول فيها كل شيء ويهتف شخص ما قائلًا «بع». فينتشر الذعر، ويندفع الجميع في الوقت نفسه إلى باب الخروج بسرعة، فتنخفض الأسعار بنفس السرعة، وغالبًا بسرعة تفوق سرعة ارتفاعها. لذلك فإن المزيد من الاندفاع نحو باب الخروج يؤدي إلى المزيد من الانخفاض في الأسعار. ويتحول التفاؤل المفرط إلى تشاؤم مفرط. الجميع

77- Carmen M. Reinhart اقتصادية أمريكية وأستاذة الاقتصاد ومدير مركز الاقتصاد الدولي في جامعة ميريلاند.

78- Kenneth S. Rogoff أستاذ الاقتصاد والسياسة العامة في جامعة هارفارد.

يطاردون جرة الذهب في نهاية خطوط قوس قزح، ثم يتبخر الحلم. فعندما ينتابك اعتقاد بأنه يمكنك صنع شيء من لا شيء، فمن الصعب جدًّا إيقاف هذا الاعتقاد.

والقيمة الاقتصادية تظهر وتختفي عبر هوس جماعي، أسرع وأسرع. ويتدفق رأس المال عبر الحدود بسرعة الضوء. لم تعد القيمة الاقتصادية توجد في المصانع حيث يتم صنع الأشياء ولا حيث يتم استخراج الموارد الطبيعية. ولم يعد البحث عن الأرباح يشبه تنافس الشركات على العملاء وكذلك لا يشبه تنافس تقنية جديدة مع أخرى، ولكن الأرباح، في حد ذاتها، أصبحت نوعًا من التكهنات. ومع التقلبات الكبيرة تأتي الأموال السريعة والمخاطر الأكبر والخسائر الأكبر. إنه رهان على رهان وحول رهان.

وكما قال جوردون جيكو [79] في فيلم وول ستريت، الذي أخرجه أوليفر ستون عام 1987: لقد أصبح الأمر مجرد لعبة محصلتها صفر. إن المال لا يضيع ولا يصنع، بل يتنقل من تكهن إلى آخر. «الوهم أصبح حقيقيًّا. وكلما أصبح الوهم حقيقة واقعة أرادوا ذلك بشدة»،هكذا قال جيكو بفظاظة.

وهذا ما أدركه ميفيستوفيليس، ممثل الشيطان، في مسرحية «فاوست». وأخذ ميفيستوفيليس يتحين الفرصة ليقبض روح

79- Gordon Gekko جوردون جيكو شخصية مركبة في فيلم وول ستريت عام 1987.

«فاوست» ويأخذها معه إلى الجحيم. و»فاوست» نفسه لم يكن يبغي شيئًا سوى أن يعيش سعيدًا. كان يبغي لحظة استمتاع بالعلم والمعرفة ويبغي كل ما يجعلك تتوسل وتصلي حتى تبقى تلك اللحظة للأبد. فهل هذا كثير؟

واليوم حلت الخوارزميات[80] المجردة شيئًا فشيئًا، محل جهود الوسطاء في الأسواق المالية. ونجد أجهزة الكمبيوتر تشتري وتبيع تلقائيًا وفقًا للنماذج الرياضية. ونجد أن الوسطاء والسماسرة الذين يرتدون قمصانًا بيضاء، تفوح منها راحة العرق ويصرخون ويشيرون إلى الأرقام على الشاشات الكبيرة مثل فيلم وول ستريت، سوف يختفون قريبًا. لقد حلت محلهم شركات متخصصة ذات أنظمة كمبيوتر فائقة السرعة تقوم بتجارة جماعية آلية تعتمد على الرياضيات المتقدمة، حتى البنوك الكبرى لم تعد تعيش في وول ستريت.

لقد انتقلوا إلى أماكن ملائمة أكثر لأنظمة الكمبيوتر الهائلة. وأكبر الموارد تشتري أكبر حاسوب ليكون الفوز أسرع. إنهم يحاولون كسب المال بناء على تقلبات الأسعار بين لحظة وأخرى في مختلف الأسواق. وقد يحدث خطأ في هذا الكون الذي لا وجه

80- algoritmer أصل هذا اللفظ عربي. وهو مشتق من اسم الخوارزمي الذي كان لكتابه «في الجبر والمقابلة» أثر كبير في تاريخ الرياضيات. والخوارزميات هي في الأصل الترقيم العشري أو إجراء العمليات الحسابية بإحلال الأرقام الهندية محل الحروف والألفاظ كما نطلق على مجموعة الرموز والطرق المستخدمة في العمليات الحسابية.

له، يمكن للعدد 10.8 مليارات دولار أن يصبح 10.8 ملايين دولار بسبب خطأ تقني، ويمكن لما يسمى بالخوارزميات أن تصاب بمس من الجنون وتفقد توازنها. قم بشراء الكون كله قبل أن تطرف أعيننا. ولذلك فإن أنظمة الأمن متأهبة جيدًا وتم تدريبها جيدًا على المناورات. وهذا النوع من التجارة يحدث أسرع 1000 مرة من طرفة العين. ويمكن أن يؤدي خطأ تقني في الخيال المالي إلى الانهيار الكبير التالي، وقد يحدث ذلك في غضون دقائق.

وفي أعقاب طفرات سوق الأوراق المالية العالمية مفرطة النشاط نجد ملايين العاطلين وبدورهم سيتركون وراءهم عجزًا في الموازنات المالية للدول، وقد تضطر الحكومات إلى تقليص ميزانية رعاية المسنين. ولكن عدد المسنين الذين يحتاجون إلى طعام ورعاية لن يقل.

وسوف يضطر عدد أقل من الممرضين القيام بنفس القدر من العمل ولن تصمد ظهورهم ومفاصلهم. وبالتالي فإن تكلفة رهان خاطئ على تقلبات الأسعار في الكازينو المالي ستصيب حتمًا الركبة اليسرى لأحد هؤلاء الممرضين. إنها ركبة لم يأخذها آدم سميث ولا زعماء العالم المالي بعين الاعتبار.

عندما باتت الأزمة حقيقة في خريف عام 2008، تم استجواب آلان جرينسبان، محافظ بنك الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي، في

الكونجرس. فسأله الديمقراطي هنري واكسمان: لقد أدركت إذًا أن رؤيتك للعالم، وأن أيديولوجيك لم تكن صحيحة، ولم تكن ناجحة؟

فأجاب: بالفعل.

لقد أصبح الاقتصاد في ذاته منطقًا ولعبة. وكل الناس في كل مكان هم الرجل الاقتصادي. إنها تعبيرات فردية عن نفس الوعي الاقتصادي المعصوم من الخطأ. وكل ما يحدث عقلاني.

لقد عم الرخاء في عالم مالي آخر، شبه منفصل تمامًا عما فعلته برهنك العقار أو عن مدى نجاح الأعمال التجارية حيث يمكن أن تزيد القيمة في كل الأحوال. حدث كل ذلك على مستوى آخر؛ ظهر الذهب واختفى خلال عمليات غامضة، وكأن الاقتصاد والأسواق لم يعد لهما أي علاقة بنا، ولا بما ننتجه، ولا بما نقوم به، ولا بما نبتكره وما نحتاجه.

إن التغيرات التكنولوجية تغير الأسواق على الدوام. وتصبح النقود مجردة بشكل متزايد. ففي البدء كانت من جلد الغزال والقطع المعدنية وأخيرًا أصبحت حزم قروض يتم شراؤها وبيعها، ويبدأ المزيد والمزيد من الناس في الاعتقاد بأنها في متناول اليد. وقد يكون صحيحًا أن إمكانات تحقيق الرخاء هائلة إلا أن المخاطر هائلة بنفس الدرجة.

وبغض النظر عن قدرتنا على إنشاء أنظمة الكمبيوتر التي يمكنها شراء وبيع العالم كله لنفسها اثنتي عشرة مرة في 300 ميكروثانية، وبغض النظر عن الأناقة المغرية لعلم الرياضيات، لا يمكننا تجاوز حقيقة أن الاقتصاد يعتمد في الأساس على جسد الإنسان. الأجساد التيَ تعمل، والأجساد التي تحتاج إلى رعاية، والأجساد التي تخلق الأجساد الأخرى: الميلاد والشيخوخة والموت. إنها الأجساد التي يتحدد نوع جنسها. الأجسام التي تحتاج إلى المساعدة عبر مراحل الحياة.

علاوة على مجتمع يمكنه دعم كل ذلك.

الفصل الثامن

وفيه نرى أن الرجال ليسوا مثل الرجل الاقتصادي!

منذ خمسينيات القرن الماضي وما بعدهما، وعلماء النفس والاقتصاد يختبرون بشكل منهجي افتراضات علم الاقتصاد عن الإنسان. من هو الرجل الاقتصادي؟ لقد أجروا تجارب على عمليات التفكير واتخاذ القرار وقاموا بفحص الأدمغة بالرنين المغناطيسي.

وقد نشر أول هجوم عنيف على الرجل الاقتصادي في عام 1979 عندما أثبت الباحثان الإسرائيليان دانيال كانيمان(81) وعاموس تفرسكي(82) أن الرجل الاقتصادي على عكس ما ادعاه الاقتصاديون، فإن قراراته ليست موضوعية أو عقلانية(83) على الإطلاق. وحصل كانيمان على جائزة نوبل في العلوم الاقتصادية لعام 2002 ومن ثم كانت هذه نهاية الرجل الاقتصادي.

لقد أثبت كانيمان وتفرسكي أننا نهتم بتجنب المخاطرات أكثر من تحقيق أقصى أرباح. وغالبًا ما نتوصل إلى استنتاجات متباينة للغاية اعتمادًا على الطريقة التي وصفت بها المشكلة،

81- Daniel Kahneman اقتصادي إسرائيلي أستاذ فخري في علم النفس والشؤون العامة في كلية وودرو ويلسون للشؤون العامة والدولية بجامعة برنستون حصل كانمان على جائزة نوبل في العلوم الاقتصادية عام ٢٠٠٢م؛ تتويجًا لعمله الرائد مع عاموس تفرسكي حول عملية اتخاذ القرار.

82- Amos Tversky عالم إسرائيلي في علم النفس الرياضي والعلم الاستدراكي. باحث مشترك مع دانيال كانيمان وأحد مكتشفي نظام الانحياز المعرفي البشري والتعامل مع المخاطر. وتركز عمله في وقت مبكر مع كانيمان على التنبؤ النفسي واحتمالية الأحكام.

83- العقلانية الاقتصادية هي التصرف الاقتصادي الاستهلاكي أو الإنتاجي الذي يوفر تعظيم المنفعة الاستهلاكية بأقل تكلفة ممكنة ويزيد في العائد الاقتصادي من الموارد الموضوعة في العملية الإنتاجية.

وعلى النقيض من عالم الرجل الاقتصادي، فإن السياق يلعب دورًا مهمًا.

وعلاوة على ذلك، فإن تفضيلاتنا ليست ثابتة لكنها تتأثر بالكيفية التي تقاس بها. فعندما نمتلك منتجًا، فإننا نعتقد تلقائيًّا أنه أكثر قَيمة. ونرى أن خسارة 100 كرونا تؤلمنا أكثر مما تفرحنا لو كسبناها. ونحن نفضل في العموم بقاء الأشياء على ما هي عليه، حتى لو لم نجنِ من ورائها أرباحًا.

وفي كثير من المواقف نضع مصلحة الآخرين فوق مصالحنا حتى لو خسرنا بسبب ذلك.

يدفع الزبائن الموقرون بقشيشًا في المطاعم، حتى وهم يعرفون أنهم لن يزوروها مرة أخرى مطلقًا. أما الرجل الاقتصادي فلا يفعل ذلك. ولن تتمكن النادلة أبدًا من الانتقام منه بوضع ذبابة في حسائه، لذلك فهو يحتفظ بنقوده ويغادر دون أدنى تفكير في الأمر. وغالبًا ما يبدي الزبائن الموقرون استعدادًا للتعاون، أما الرجل الاقتصادي فيتعاون فقط عندما يخدم التعاون مصلحته. كما أنه لا يبالي بأن يتمتع بميزة غيرعادلة في موقف ما، فلا شيء يهمه سوى أن يكون هو الفائز.

لكننا، نحن والآخرين، نبالي.

من المهم أيضًا أن يتفاوض الناس مع بعضهم وجهًا لوجه. إذا

نظرنا في عين شخص، فنحن نكون أكثر حذرًا. وبالنسبة للرجل الاقتصادي فإن الربح هو الأهم وفيما عداه كل الخيارات سيان، علاوة على أن كل الأشياء الأخرى عرضية، وكل المواقف متشابهة؛ لا يهم إذا كان من يحسب الأرباح فردًا واحدًا أو عدة أفراد، فليس هناك سياق، وكل شيء كامل ولا مجال لاقتسامه مناصفة، نعم، إنها في الواقع «منافسة».

وفي الواقع نحن، الرجال والنساء والأطفال والبالغين والشباب وكذلك كبار السن أيضًا لسنا أفرادًا عقلانيين، ولا أنانيين. فنحن غالبًا نبالي، ولكننا غالبًا مرتبكون، ناكرون لذواتنا، قلقون، لامنطقيون. والأهم من كل ذلك أن لا أحد منا في جزيرة منعزلة.

إن قصصنا عن الاقتصاد لا تنفصل عن بعضها، بل إنها تتشكل من حركة الاقتصاد في صعوده وهبوطه. فنحن نسمع كيف يصبح الآخرون أثرياء وكيف تحقق الشركات أرباحًا قياسية، ولا يهم إذا كان ذلك صحيحًا أم لا. وهذه القصص تجعلنا نظن أن كل شيء في مكانه. ويتحول ذلك، جزئيًّا، إلى حقيقة بمجرد أن نبدأ في الإنفاق كما لو كان صحيحًا.

وبنفس الطريقة، فإن القصص المخيفة عن انهيار قيم السوق وتدهورها بلا قيد ولا شرط، وعن الوسطاء الذين أصابهم الذعر وأخذوا يصرخون «بع» تجعلنا نتمسك أكثر بمدخراتنا ونتشبث بها. وعندما نفعل ذلك، فنحن نسهم أيضًا في تعميق الركود.

إن مشاعرنا تخلق قصصنا، وتصبح قصصنا هي تحركات في السوق.

إذا كان كل شخص تعرفه مستعدًّا لأن يدفع ثلاثة ملايين ثمنًا لشقة جديدة، فلن تبدو العناوين السوداء على أغلفة الصحف حول فقاعة العقارات المستمرة مخيفة بنفس القدر، وسوف تطلب من الوكيل العقاري رفع عرض التسعير الخاص بشقتك بمقدار 000100. وقد وصفت هذه الطفرة بأنها أثر التفاؤل الجمعي الذي ينتشر عبر المجتمع، فلا يمكن كبح مشاعرنا الجمعية. إذا كانت لدينا نظرية اقتصادية تضع المشاعر في الاعتبار، لكان بإمكاننا تجنب الكثير من المشكلات، وربما فهمنا أشياء عن أنفسنا.

ومن عدة نواح فإن السلوك الاقتصادي مدفوع بالعواطف -وليس العقل، والسوك جمعي- وليس فرديًّا. ولا يمكن لأي شخص عاصر انهيار الاقتصاد العالمي في عام 2008 أن يصدق أن كل شيء كان مدروسًا أو بني جيدًا على القرارات الاقتصادية المستنيرة التي زعموا أننا، نحن البشر، لا يمكن أن نتخذ سواها.

كتب جون مينارد كينز بالفعل في ثلاثينيات القرن العشرين عن المشاعر والدوافع وسوء الفهم الناجم عن حماسة الاندفاع والذين يدفعون بالاقتصاد، إلى حد ما، نحو الصعود أو الهبوط. بعد الأزمة المالية عام 2008، أثيرت هذه الأفكار مجددًا. ويعتقد

عالِما الاقتصاد جورج أكريلوف[84] وروبرت شيلر[85] أننا نسينا هذا الجزء من تفسير كينز لأزمة الثلاثينيات، على الرغم من أننا اعتنقنا أجزاء أخرى من نظرياته. وبقينا متشبثين بفكرة الشخص العقلاني العاجز عن رؤية جوانب السوق الجمعية أو العاطفية.

ولكن إذاً لم يكن الرجل الاقتصادي مثلنا، فمن هو إذًا؟

هل الرجل الاقتصادي يبلغ من العمر خمس سنوات؟ هكذا تساءل الباحثون.

عادةً ما تؤثر التوقعات الخاصة بالعدالة والتعاون على سلوك البالغين، ومن المتوقع من الآخرين التعاون والمشاركة. وإذا كان السلوك غير عادل، فإننا نرفض التعاون والمشاركة حتى لو أضر هذا بنا.

وأجرى علماء النفس تجربة على أطفال الحضانة وعلى الطلاب في الصفين الثاني والسادس الابتدائي لمعرفة ما إذا كانوا يتصرفون مثل الرجل الاقتصادي أم لا. كان رد فعل الطلاب الذين تزيد أعمارهم على سبع سنوات على الظلم مثل البالغين تمامًا.

84- George Akerlof هو اقتصادي أمريكي وأستاذ في الاقتصاد بجامعة كاليفورنيا، بركلي. فاز بجائزة نوبل في الاقتصاد عام 2001 بالمشاركة مع مايكل سپنس وجوسف ستيجليتس.

85- Robert Shiller اقتصادي، أكاديمي، وكاتب أمريكي شهير، وصنف ضمن أكثر 100 اقتصادي تأثيرًا في العالم. وقد نافسه طومسون رويترز على جائزة نوبل في الاقتصاد عام 2013 لإسهاماته الرائدة في تقلبات الأسواق المالية وديناميكية أسعار الأصول. في 14 أكتوبر 2013، أعلن عن فوز شيلر، بالاشتراك مع أوجين فاما ولارس پيتر هانسن، بجائزة نوبل في الاقتصاد، "لتحليلهم التجريبي لأسعار الأصول".

أما أطفال روضة الأطفال فقد تصرفوا مثل الرجل الاقتصادي.

عندما كان من المفترض رصد نمط رد فعل الأطفال البالغين من العمر خمس سنوات من العرض الخاص بتوزيع مبلغ من المال عليهم، فإنهم لم يهتموا إذا كان المبلغ قد قسم بالعدل أم لا؛ فهم لم يريدوا سوى الحصول على أكبر قدر ممكن منه فحسب ورأوا أن حصولهم على مبلغ زهيد أفضل من لا شيء. لقد استمتعوا بانتزاع أكبر مبلغ ممكن، تمامًا مثل الرجل الاقتصادي، لكن الأطفال في سن الخامسة ليسوا من يتحكم ويدير الاقتصاد العالمي.

أم أن الأمر كذلك بالفعل؟

أثبت الباحثون الذين أجروا الدراسة أننا ومنذ سن السابعة نبدأ في مراعاة قيم مثل العدالة، وأن مرحلة الرجل الاقتصادي هي مرحلة عابرة، أو على الأقل بدا ذلك في تجربة مبسطة كالتي أجراها الباحثون بالمختبر واستخدموا فيها اللعب. وعلى الأرجح فإن الأطفال في سن الخامسة قد يتصرفون بطريقة أكثر تعقيدًا في مواقف العالم الحقيقي.

ليس هناك مجتمع بشري يدار بالجشع والخوف والمنفعة الخاصة والعقلانية فقط، فهذا لن يفلح أبدًا. وقد أوضح الاقتصادي

والفيلسوف أمارتيا سين[86] هذا في الحوار التالي:

يسأل الغريب: «أين محطة السكة الحديد؟».

أجاب رجل من المدينة وهو يشير في الاتجاه الآخر نحو مكتب البريد: «هناك. هل تتفضل وترسل هذه الرسالة لي في طريقك؟».

يقول الغريب : «بالطبع».

وكان الغريب عازمًا على فتح المظروف ليرى ما إذا كان يحتوي على شيء له قيمة، ولكن العالم لا يعمل بهذه الطريقة.

والعمليات التي أجريت لفهم سبب قيام الرجل الاقتصادي بما يفعله هي معادلات رياضية معقدة نسبيًّا. وفي الوقت نفسه، تظهر الأبحاث النفسية أن الأشخاص الحقيقيين في موقف ما لا يختارون في كثير من الأحوال الخيار الأكثر عقلانية، بل إننا لا نفهم في كثير من الأحيان حتى ما هو «الخيار الأكثر عقلانية».

وتستخلص هذه النتائج من تجارب مبسطة استخدمت فيها نقود غير حقيقية في لعبة بالمختبر، وحتى عندما نفعل ذلك لم ننجح في أن نكون عقلانيين. الأمور في العالم الحقيقي أكثر تعقيدًا بالمطلق. كيف يمكن لأي شخص أن يكوّن رؤية عن كل شيء؟ فيقارن بين كل احتمال ونقيضه، ويتمكن من إجراء

86- Amartya Sen ولد في 3 نوفمبر 1933 في الهند فاز بجائزة نوبل عام 1998 لعمله عن المجاعة واقتصاديات الرفاة وأساس الفقر والليبرالية السياسية.

الحسابات وتحقيق أقصى أرباح ممكنة؟

هل نحن حتى قادرون على أن نكون مثل الرجل الاقتصادي؟

إن الاقتصادي النيوليبرالي الشهير ميلتون فريدمان[87] اعترض على هذا النوع من الانتقادات المتعلقة بلعبة البلياردو. ويرى أننا لو تخيلنا أن لاعب البلياردو الماهر لا يعرف بالضرورة قوانين الفيزياء، ولكنه يلعب كما لو كان يعرفها، فإن هذا كل ما نحتاج إلى معرفته. والآن يمكننا أن نتنبأ بسلوكه من خلال إنشاء نموذج يفترض ببساطة أن لاعب البلياردو هذا يعرف قوانين الفيزياء، وقد لا يكون ذلك صحيحًا، لكن النموذج سيعمل على أي حال طالما أن لاعب البلياردو يلعب كما لو كان يعرف قوانين الفيزياء.

وبعبارة أخرى، ربما لا يكون البشر مثل الرجل الاقتصادي. ولكننا ما زلنا نتصرف، وفقًا لفريدمان، كما لو كنا مثله. ومن ثم، يمكن للنموذج القائم على الرجل الاقتصادي أن يتنبأ بما سيفعله البشر وبالتالي التنبؤ بمجريات الاقتصاد.

ووفقًا لهذا المنطق، لا ينبغي الحكم على الاقتصاديين على أساس مدى صحة وجهة نظرهم تجاه البشر. ينبغي الحكم على

87- Milton Friedmans أحد أبرز منظري «الليبرالية» في القرن العشرين. وكانت مساهمته الرئيسة هي النظرية القائلة إن «تقليص دور الدولة في اقتصاد السوق يمثل الوسيلة الوحيدة لبلوغ الحرية السياسية والاقتصادية». وبهذا المعنى كان فريدمان هو «الأب الروحي» للنسخة الليبرالية التي سعى المحافظون الأمريكيون الجدد إلى تطبيقها في ظل إدارة جورج دبليو بوش وتعميمها في إطار العولمة السائد.

الاقتصاديين على أساس مدى اتساق استنتاجاتهم مع تصرفات البشر الواقعية التي يمارسونها في السوق.

وبكل صراحة فإن التنبؤ بالسوق ليس شيئًا نجح فيه علم الاقتصاد، فعندما ضربت الأزمة المالية العالم في خريف عام 2008، زارت ملكة بريطانيا كلية لندن للاقتصاد. وهناك وصف الخبراء المجتمعون الأزمة بأنها مستمرة. وبدا على الملكة الاستغراب وسألت: «لماذا لم يتوقع أحد حدوث هذه الأزمة؟». وكان هذا سؤالًا جيدًا.

وحلل جون كينيث جالبريث[88] الأزمة ذات مرة، بأن الله خلق الاقتصاديين كي يحسن صورة وسمعة المنجمين، وكان هو نفسه واحدًا من أشهر الاقتصاديين في العالم. وشعر الاقتصادي الأمريكي روبرت لوكاس [89] الحائز على جائزة نوبل بأنه مضطر للرد على سؤال الملكة. وأوضح في مجلة الإيكونوميست أن الاقتصاديين لم يتنبؤوا بتلك الأزمة لأنهم توقعوا أن مثل هذه الأحداث لا يمكن التنبؤ بها.

والسؤال هو: هل أفادت هذه الإجابة الملكة أم لا؟

88- John Kenneth Galbraith اقتصادي أمريكي كندي وأستاذ في جامعة هارفارد ودبلوماسي. ومؤيد رائد لليبرالية الأمريكية في القرن العشرين.

89- Lucas Robert الاقتصادي في جامعة شيكاغو. فاز بجائزة نوبل التذكارية في العلوم الاقتصادية في عام 1995م.

واليوم يتحكم السوق في الاقتصاد العالمي أكثر من أي وقت مضى، ونتبع ما يقوله الاقتصاديون في العقود الأخيرة أكثر من أي وقت مضى. وكانت هذه الفترة نفسها تعج بالأزمات: انهيار سوق الأسهم الأمريكية عام 1987، الانهيار الاقتصادي في اليابان، الأزمة المالية في المكسيك عام 1994، ثم انهيار صندوق التحوط لونج تيرم كابيتال Long Term Capital في عام 1998 (بعد مرور عام على فوز ميرون سكولز Myron Scholes وروبرت سي ميرتون Robert C. Merton بجائزة نوبل في الاقتصاد[90] لما توصلوا إليه من نظريات حول الأسباب التي تجعل من المستحيل أن ينهار بنك لونج تيرم كابيتال أبدًا). وفي نفس العام اندلعت الأزمة المالية الروسية، والأزمة الآسيوية، وانهارت تكنولوجيا المعلومات في مطلع الألفية، وأخيرًا، الأزمة المالية العالمية عام 2008 التي تعد الأزمة الأسوأ منذ الانهيار العظيم. وباستثناء حفنة من الاقتصاديين كانت هذه صدمة هائلة للجميع. ولم يكن ذلك بسبب توقعات النماذج الاقتصادية فنادرًا ما كانت توقعاتهم صحيحة عندما يطبقونها في الواقع المضطرب.

وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي، عمل صندوق النقد الدولي ووزارة الخزانة الأمريكية على خصخصة روسيا بسرعة قياسية. حاول عدد من الاقتصاديين تحويل البلاد من الاقتصاد المخطط

90- فاز بجائزة نوبل للاقتصاد لإيجاد طريقة لتحديد قيمة العقود الاشتقاقية وتسعير الخيارات.

إلى اقتصاد السوق في غضون أيام وليس سنوات. وإذا أزيحت الطبقات الشيوعية، فسوف يصبح بلدًا من الأفراد الاقتصاديين العقلانيين الذين يمضون قدمًا ويتطلعون إلى المستقبل، هكذا اعتقدوا. وسيبدأ الناس في بناء مجتمع رأسمالي نابض بالحياة وكأنهم لم يفعلوا ذلك من قبل. ولم يكن من المفترض أن تلعب المؤسسات الروسية أو التاريخ أو توزيع الدخل أو العادات الاجتماعية أي دور، ولم يكن هناك داعٍ للخوض في التفاصيل، فالمبادئ الاقتصادية كانت عالمية.

والمذاهب الاقتصادية سوف تعمل بغض النظر عن أي شيء آخر وسوف تتجاوز كل السياقات، وكل التاريخ، وكل تلك الظروف التي تشكل ما نسميه عادة «الوجود». ففي تلك النماذج لا يوجد سوى عالم واحد فقط، الطبيعة البشرية، والرجل الاقتصادي.

والنتيجة معروفة مسبقًا: فقد سيطرت طبقة من الأوليجاركية [91] سريعًا على الموارد الروسية. وعجزت الدولة حتى عن دفع المعاشات التقاعدية، وفي الوقت نفسه تم بيع أصول موارد البلاد من أجل حياة مرفهة. كما تم تحويل أصول الأموال إلى حسابات مصرفية في بنوك سويسرا وقبرص. وبدا الأمر برمته أشبه بالجريمة المنظمة أكثر منه أسواقًا منظمة. وما تبقى هو دولة ذات

91- oligarker الأوليجاركية هي سيطرة صفوة تصطبغ عادة بصبغة عشائرية على الاقتصاد والسياسة في الدولة من خلال شبكة علاقات داخلية تصون تماسك تلك الصفوة. وتعزز سلطانها الذي لا يرجع بالضرورة إلى أغلبية شعبية حقيقية.

مستوى معيشي أقل مما كانت عليه قبل الإصلاحات. أما ملايين الناس الذين تساءلوا عما إذا كان هذا هو التوجه الديمقراطي فقد قالوا: لو أن هذا هو التوجه الديمقراطي، فلا نريده، شكرًا. ومن ثم صوتوا لصالح فلاديمير بوتين ليكون رئيسًا لروسيا على وعد منه بالاستقرار واسترداد الكرامة.

وعلى مدار أعوام حقبة التسعينيات، أخذ دخل الفرد في روسيا ينخفض، حتى أوكرانيا مرت بتطور مماثل، إلا أن العكس صحيح في بولندا التي تجاوزت الموقف بشكل أفضل كثيرًا لأنها لم تبالِ بنصائح صندوق النقد الدولي.

وقد قال الزعيم النقابي ليخ فاونسا[92]، الذي أصبح فيما بعد رئيسًا للجمهورية، إن جعل الاقتصاد الرأسمالي شيوعيًّا يشبه ببساطة «صنع حساء سمك من أسماك زينة». وتكمن الصعوبة في تغير اتجاه الخدعة إلى الاتجاه المعاكس.

ويعتبر السوق بعيدًا كل البعد عن سمة التناغم، وعن كونه نتيجة حتمية وحيدة للأفراد العقلانيين والبشر الذين يتبعون مسارًا واحدًا في الحياة، بل إنه أكثر تعقيدًا من ذلك كما يتسم بوجود ضغوط هائلة عليه من أجل إحداث التغيير. وتلك الضغوط

92- Lech Wałęsa. سياسي بولندي شغل منصب رئيس بولندا بين. وحاز جائزة نوبل للسلام سنة 1983. عمل كاختصاصي كهرباء سنة 1970. وترأس نقابة العمال «تكافل» من سنة 1980 وحتى 1990. وهو أيضًا أحد مؤسسي «تكافل». فاوينسا ساهم في تحول بولندا إلى النظام الديمقراطي الرأسمالي.

تجتاح، بلا هوادة، الشركات والتقنيات القديمة وكل شيء آخر لن يستفيد منه؛ وفي كثير من الحالات، تجتاح البشر. إن السوق لا يعتد إلا بالقليل من الاعتبارات، ولذا بوسعه أن يدفع بالتنمية إلى هذا المستوى المرتفع، ولكن بوسعه أيضًا تدمير التنمية لنفس السبب، وبنفس القوة.

إن السوق فعال بشدة في بعض الجوانب وغير فعال بشدة في جوانب أخرى. إنه أي شيء إلا أن يكون ميكانيكيًّا وبسيطًا وحتميًّا.

وعادة ما يدعي الاقتصاديون الذين يؤمنون بالرجل الاقتصادي أن الصورة التي رسموها للإنسان غير مكتملة، لكنها مكتملة بما يكفي لتكون صالحة للاستخدام. ولا يمكن إنكار أن الاقتصاديين علمونا أشياء حول كيفية عمل العالم مما ساعدنا على جعله أفضل، فإذا قالوا لك إن الرجل الاقتصادي يمكن أن يساعدهم، فلماذا لا تصدقهم؟ لماذا لا نبسط صورة الإنسان والسوق؟

إن التبسيط أداة نستخدمها في شتى المجالات. فعلى سبيل المثال نحن نقول إن الأرض كروية، بالرغم من أنها ليست كذلك. فالأرض بيضاوية تعج بالجبال والوديان وذوبان القمم الجليدية القطبية. وحتى لو قلنا إن الأرض كروية، فلن نبحر أبدًا في سفيننا (أو حتى في صواريخ الكروز) وفقًا لخرائط مرسومة كما لو كانت الأرض كرة أرضية مثالية. وعندما نرسم الخرائط،

نحاول قياس كل ما يخالف القواعد على الأرض ثم نأخذه بعين الاعتبار بطريقة أو بأخرى. فلندع الرجل الاقتصادي وشأنه، فقد استخدمت الأنظمة التي تم إنشاؤها من بعده كأساس لفرض الهيمنة على الاقتصاد العالمي بأسره، ووزعت تلك الأنظمة على الدول الفقيرة كوصفات لحل معضلاتها الاقتصادية. تفضلوا ها هي، انطلقوا! وعلى الرغم من أننا عرفنا على مدار أكثر من ثلاثين عامًا أن الرجل الاقتصادي، في أفضل الأحوال، مجرد تبسيط، وفي أسوأ الأحوال، مجرد هلوسة.

وحتى اليوم ما زال الرجل الاقتصادي هو الوحيد الذي يعرف المنطق الاقتصادي. وما زالت تلك الصورة المرسومة للبشر هي التي تدرس في الاقتصاد في الجامعات، ناهيك عن كتب العلوم الدارجة التي تطبق منطق السوق بشكل متزايد على أجزاء أكبر من حياتنا. لقد ظل الرجل الاقتصادي مهيمنًا، على الرغم من أن البحوث كانت قادرة لسنوات على إثبات أنه لا يمت للواقع بأي صلة، ولكننا ما زلنا عرضة للإغراء والانجذاب إليه، فهو يصر على أننا جميعًا مثله، سواء ندرك ذلك أم لا، وبغض النظر عما نفعله.

لو تسلق رجل برج الكنيسة وأخذ ينعق كالغراب، ستقول إنه مجنون. ولكن كيف عرفت أنه مجنون؟ هناك بعض الناس يقفزون بالمظلات، وآخرون يتسلقون جبال الهيمالايا، وهذا أمر خطير أيضًا ومع ذلك لا نعتبرهم مجانين. ولو حاولت قتل

صديقتك بورقة خس عندئذ سيقولون إنك مجنون، وسوف تحاول قتل صديقتك بسكين، ثم تدعي أنك مجنون، لكن الرجل الاقتصادي أعلم منك. إنه يعلم أنك عقلاني دائمًا حتى لو ادعيت غير ذلك.

وإذا سدد أحدهم مسدسًا إلى رأس مدمن كحول حتى لا يشرب، فسوف يعيد كوبه إلى الطاولة وقد يكف عن شرب الخمر نهائيًّا لكنه لا يرغب في ذلك ولا يجد سببًا يجعله يكف. فمن أنت لتقول إن هذا أو ذاك مجنون؟ من أنت لتقول إن هذا أو ذاك لا يعرف مصلحته؟

ويحكى أن رجلًا أحضر أحد عشر بجعات في شقته وعاش معهم، وكان قد أمسك بهم وأخذ يلف الواحدة تلو الأخرى ببطانية وينقلهم ليلًا من الحديقة إلى منزله. ولما وجد الرجل أن جناح واحدة من البجع مكسور قام بتثبيته بقطعة مطاط وشريط لاصق. ولما جاءت الشرطة كي تسترد البجع، حزن الرجل. فهل أخطأ الرجل؟ أم أنه ببساطة كان يفضل العيش مع البجع، كما يقول الرجل الاقتصادي؟

هناك أناس يغسلون أيديهم 200 مرة يوميًا، والبعض الآخر يرفض أن يستدير بالسيارة إلى اليسار. وهناك أناس يمكنهم مشاهدة الرياضة لمدة عشر ساعات متتالية يوميًّا. وهناك أناس يمكنهم مسح أرضية الحمام لمدة 15 ساعة يوميًّا. وإذا انتابك

قلق خشية ألا يفوز فريق أرسنال لكرة القدم، فسوف يتمكن منك القلق. إذا كنت تخاف من البكتيريا فسوف يتمكن منك الخوف. هناك منطق واحد، وعقلانية واحدة. إذا كانت حياتك لا تروق لك فسوف تنتحر. وهذا المعنى لم يجسدوه في الصورة الكبيرة. إنه في حاوية مغلقة لا ينبغي فتحها. وكل من بالحاوية مقتنعون بأن كل الآخرين مجانين إلا هم. إن الأحداث والطقوس الملزمة هي نواتج طبيعية لظروف غير طبيعية. عندما تطفئ الأضواء في العنبر، وتعبر عن خوفك بالصراخ فإن الصوت الخاوي الذي يخرج من فمك هو أيضًا شكل من أشكال المطالبة. يستمر العالم في الدوران في المسارات التي عبدها لنفسه وتمسك بها. إنها عجلة ملعونة تظل تدور فيها. وعليك أن تخرج منها بأكثر من الذي وضعته فيها، وأي شيء بخلاف ذلك لا معنى له. وحتى وأنت تسير مع جيش في نفس الاتجاه، تكون وحدك، دائمًا وحدك. منطق واحد، عالم واحد. وأنت تموت بطريقتك الخاصة.

هذا هو العالم الذي نتشبث به.



الفصل التاسع

وفيه يتضح أن المحفزات الاقتصادية[93] ليست معقدة كما نظن

93- مصطلح يستخدم على نطاق واسع يدل على مجموعة من الفوائد المصممة لتعزيز نشاط تجاري جديد أو تشجيع الأعمال التجارية. شيء يدفع الفرد لأداء عمل أو تحقيق أمر معين أو الوصول لهدف وغاية مرجوة. وتعتبر دراسة التركيبة والهيكلة للمحفزات هي محور الدراسة لجميع الأنشطة الاقتصادية.

ذات يوم كان لدى رجل وامرأة إوزة من نوع خاص جدًّا. فعندما يستيقظان كل صباح يجدان الإوزة قد وضعت بيضة من الذهب. في البداية، لم يفهم الزوجان نوع هذا البيض الغريب، فهو ثقيل كالرصاص وأكبر بكثير من البيض العادي. وشيئًا فشيئًا أدركوا أنه من الذهب. بدأ الزوجان في بيع البيض الواحدة تلو الأخرى، وبمرور الوقت أصبحا فاحشي الثراء.

قال الرجل للمرأة : «تخيلي لو أن هناك طريقة تجعلنا نستخرج كل الذهب الذي ببطن الإوزة».

أجابت المرأة: «عندها لن نضطر إلى انتظارها لتضع البيضة كل صباح».

فذهب الزوجان إلى الفناء وذبحا الإوزة. ولكن عندما فتحا بطن الإوزة وتطلعا بحماس داخلها، لم يجدوا بيضًا ذهبيًّا. لم يجدوا سوى الدم والأوردة والشرايين والأمعاء والأعشاب، مثلها مثل أي طائر آخر. ولم يعد هناك المزيد من البيض الذهبي، فقد ماتت الإوزة التي كانت تبيض لهما ذهبًا لأنهما قتلاها.

*

لا توجد لغة على وجه الأرض تؤخذ على محمل الجد مثل لغة الاقتصاد:

«تحسن آفاق النمو يؤدي إلى زيادة الموارد مالية»، «تطبيع

الاقتصاد»، «دع السوق يقرر»، «قم بتسوية وتمهيد أرض الملعب»، «تكافؤ الفرص»، «قم بتخفيض الحد الأدنى»[94]، «اتخذ القرارات الصعبة»، «اشحذ الأدوات لتحفيز الطلب»، «تحسين التوقعات الإنتاجية»، «تطوير العملة الأقل تفضيلًا»، «السوق التنافسي»، «المؤثرات الهامشية الحائدة».

إنها لغة الضرورة المحضة. نحن جميعًا نعرف ما يجب علينا فعله، وإذا فعلناه فنحن لا ندري كيف سيعطوننا أصواتهم في الانتخابات مرة أخرى. إنها نشوة العقل.

لقد ظهرت أول أسواق في التاريخ في محيط المستوطنات وفيما بين القرى. كان من المهم إبقاء التجارة خارج المجتمع البشري، فلا يجب أن يمتزج منطق السوق في الشراء والبيع مع بقية المجتمع. يجب أن تبقي الأسواق نفسها على هوامش القرى والمدن، وعلى الحواف ويؤدي الناس طقوسًا سحرية كي تبقى الحدود الفاصلة بين أماكن التجارة وبينهم مقدسة ومستقرة. وقاموا بتحديد أماكن التجارة بعلامات وضعوها على الحجر، ومن المفترض أن يبقى منطق السوق داخل الحد الذي يشير إليه الحجر.

94- الحد الأدنى يعني ٪10 عند الإغلاق. وبعد التعديل بعد ذلك. بعد أي إصدار من أوراق المعاملات عن طريق ضرب الحد الأدنى الساري قبل هذا الإصدار. معبرًا عنه بالعشرية المنقولة إلى المركز الثالث. بواسطة عامل التخفيف؛ شريطة أنه. في حالة إصدار مثل هذه الأوراق المالية للمعاملات. يتم تقديم عرض سهم أساسي من قبل شركة Newco وفقًا للقسم 3.01 (د) من هذا القانون. يتم زيادة الحد الأدنى على الفور. ولكن ليس أعلى من 100.

لقد مرت آلاف السنين منذ ذلك الحين، وتسبب منطق السوق في إغراق البنوك تمامًا. وأصبحت الإشارة إلى «الاقتصاد» مرادفًا «للعقلانية». ويتم رسم صورة البيع والشراء والتنافس وكأنها صورة للمجتمع بأسره. ويقال إنه يمكن تحليل السياسة بهذه الطريقة، كما هي الحال في القانون، في الحب، وفي كل الوجود. ومع كل تصرف نجد شخصًا يخبرنا كيف يرتبط هذا التصرف بالأفكار الاقتصادية مثل المنفعة الخاصة والمنافسة وتحقيق أكبر قدر من الإشباع بأقل تكلفة ممكنة. وكتب أوسكار وايلد أن: «كلنا نعرف سعر السلعة ولكننا لا نعرف قيمتها»، ولم يخبره أحد أن قيمتها تقاس بالطلب.

ولم ينتقل السوق فقط إلى مراكز أكبر بالمدن، بل إلى المباني التي أقيمت على شرفه والتي أكسبت المدن الكبرى معناها مثل: نيويورك، شنغهاي، طوكيو، لندن، كوالالمبور. وهيمنت ناطحات السحاب الخاصة بالقطاعين المصرفي والمالي على صورة المدن. ولم نتمكن من بناء مبانٍ بهذا الارتفاع الشاهق وبمثل هذه الضخامة من قبل، ولكن اضطررنا إلى وضع شبكات أمان فوق قمم ناطحات السحاب، وإلا فإن الناس سوف يلقون بأنفسهم عبر السحب، ويهبطون 100 طابق، إلى أسفل، إلى الشارع مباشرة، إلى الموت.

وفي الوقت الذي نما فيه رجل الاقتصاد وهيمن على العالم،

يبدو أن الأسواق كانت لا تزال بحاجة إلى تعويذتنا السحرية، وربما الآن أكثر من أي وقت مضى. نحن دائمًا قلقون على حال السوق. ويمكن للسوق أن يكون إيجابيًّا، قلقًا، محمومًا، سعيدًا ومنزعجًا. إنه وحش غريب رائع مفعم بالمشاعر. إن حياته الداخلية غنية للغاية لدرجة أن بعض أشهر الصحف في العالم كرست إصداراتها لمتابعة كل تحركاته وتقلباته ونوباته.

أحيانًا نجد السوق يفكر ويتأمل:

«يتجاهل السوق توقعات ارتفاع الأسعار»، «كافح السوق أمس لاتخاذ قرار»، «فسر السوق قرار الحكومة على أنه يعني أننا لن تخفض قيمة العملة»، «رد فعل السوق السريع فاجأ الجميع»، «استخلص السوق استنتاجه الخاص».

وأحيانًا نجد السوق غاضبًا وغير راضٍ:

«لم يتأثر السوق بقرار الحكومة »، «السوق غير مقتنع بأن إيطاليا جادة»، «أصيب السوق بخيبة أمل كبيرة بسبب البنك المركزي الألماني».

وقد يصبح السوق عدوانيًّا وعنيفًا:

«وجدت الحكومة اليونانية نفسها منخرطة في حرب واسعة النطاق ضد السوق»، «قد تدع الولايات المتحدة السوق يخفض سعر الدولار»، «تفوح من السوق رائحة الدم»، «لا يزال لدى البنك

المركزي بعض الذخيرة المتبقية»، «علينا إقناع السوق بأننا جادون!».

ولكن السوق يشعر بتوعك أيضًا:

«الأسبوع الماضي كان السوق في حالة توتر»، «أدى تراجع الجنيه إلى إغضاب السوق»، «السوق لا يزال في حالة من التأرجح بعد الضربة الشديدة»، «لعل غضب السوق كان بسبب وزير المالية أندارش بورج»، «ارتبك السوق من جراء تعليقات الوزير».

«كان الشعور السائد لدى السوق هو عدم الأمان»، «السوق يعاني من تشنجات»، «السوق في حالة ركود»، «حاولت البرتغال بالأمس تهدئة السوق».

عندما يكون السوق مضطربًا (مكتئب سريريًّا أو يعاني من متلازمة القلق)، في هذه الحالة لا بد أن يضحي المجتمع من أجله، فيقدم مبالغ مالية ضخمة، حتى «يحفز» الاقتصاد. ينبغي أن يستهلك البشر أو الدولة أو كلاهما المزيد من كل شيء حتى يستمر السوق. وهذا مكلف للغاية، لكن البديل مخيف للغاية لدرجة أنه لا يمكن التفكير فيه. وهكذا يصبح الاستهلاك دمًا مقدسًا طاهرًا، نجسًا، جميلًا، مقرفًا في الوقت نفسه.

إن الاقتصاد، من ناحية، هو الصوت الواضح للعقل (ويفضل التعبير عنه من خلال الرياضيات المعقدة). ومن ناحية أخرى

يتعلق الاقتصاد بالحياة العاطفية للسوق. الحياة العاطفية الجامحة والصاخبة مع آلاف من الفروق الدقيقة التي تصعد وتهبط في أعمدة صحيفة فايننشيال تايمز وداجينس إيندستري[95] وصحيفة وول ستريت[96].

ولكن بينما نصف السوق بأن لديه مشاعر إنسانية، فإننا نصف أنفسنا بأننا متجردون من المشاعر الإنسانية بشكل متزايد كما لو كنا سلعًا أو شركات خاوية.... معروضة في سوق:

«يجب أن أفكر في علامتي التجارية»، «عليك أن تستثمر في علاقتنا»، «من اللطيف أن أعود إلى السوق مرة أخرى»، «أنا مدين لك بما يفوق ما أستطيع تقديمه لك في علاقتنا»، «لا بد أن تصبح أفضل في بيع نفسك»، «إن الأطفال استثمار في مستقبلنا»، «إنه لا يريد تحمل التكلفة العاطفية»، «لقد تجاوزت تاريخ انتهاء الصلاحية».

وبينما تستخدم اللغة الإنسانية لوصف السوق، تستخدم لغة السوق لوصف الناس.

لقد أصبح الاقتصاد هو نحن، وأصبحنا نحن الاقتصاد.

95- Dagens Industri صحيفة مالية بصيغة التابلويد تم نشرها في ستوكهولم، السويد.

96- wall Street Journal جريدة دولية يومية باللغة الإنجليزية تنشرها شركة نشر الأمور الاقتصادية داو جونز في مدينة نيويورك مع طبعات آسيوية وأوروبية.

وفي كتاب «اقتصاديات الزواج Spousonomics»: نجد مبادئ علم الاقتصاد تستغل للتحكم في الحب والزواج والأطباق المتسخة، وفيه تعد باولا زوكمان، وجيني أندرسون بتحسين علاقاتنا الغرامية بمساعدة المبادئ الاقتصادية.

وترى باولا وجيني أن الزواج مقايضة تجارية قائمة على التخمين. والغرض من الكتاب ببساطة أن تتعلم كيف تحصل على أقصى ربح ممكن من تلك المقايضة. إنه منطق السوق الذي يطبق على طول الطريق وصولًا إلى غرفة النوم. ونقطة البداية هي أن كل علاقة حب هي عملية اقتصادية صغيرة: شخصان اقتصاديان عقلانيان يعيشان تحت سقف واحد. والزواج هو عمل تجاري موارده محدودة وينبغي استغلالها بكفاءة حتى تثمر. ووفقًا لباولا وجيني، يمكن أن تساعدنا مبادئ السوق فيما يلي: الشجار حول الغسيل والأطفال وعدم ممارسة الجنس. وقد ضربتا مثلًا برجل يدعى هيوارد الذي كان يستشيط غضبًا كلما عاد إلى بيته كل مساء، لأن ألعاب ودراجات أطفاله مبعثرة في كل مكان. ويظل هيوارد يصرخ ولا شيء يفلح في تهدئته. وفي كل مرة يكرر نفس السلوك حتى بدأت زوجته جيني في تطبيق اقتصاديات الزواج.

وتقول النظريات المعيارية للاقتصاد إن الناس أنانيون ويتفاعلون مع المحفزات الاقتصادية. فعندما تدرب كلبًا، فإنك

تأمره بالجلوس، وإذا نفذ الكلب أمرك وجلس، فإنك تعطيه قطعة حلوى. وقطعة الحلوى هي المحفز التي جعلت جلوس الكلب هو السلوك المستهدف. والرجل الاقتصادي يستجيب دائمًا مع المحفزات، وتقوم الآلة الحاسبة التي تعمل بسرعة البرق بحساب أرباحَه في كل موقف.

ووفقًا لهذه النظريات، يمكن دائمًا إرجاع سلوك الأشخاص إلى ما يكسبونه وما لا يكسبونه في موقف معين. إن نوبات غضب هيوارد ليست سلوكًا مرغوبًا لأنه يضايق زوجته ويخيف أطفاله وبالتالي لا بد أن نعطي هيوارد هذه المحفزات كي يكف عن هذا السلوك. لا بد أن يدرك أنه سوف يربح أكثر لو كف عن غضبه. فتقوم جيني بإنشاء نظام للمحفزات وفقًا لما يقوله وما يفعله. فإذا لم يغضب هيوارد لثلاث ليالٍ متتالية فسوف تمارس الجنس معه. ونجح المحفز وتوقف هيوارد عن الشجار.

وهذا دليل يثبت أن المقايضة الاقتصادية فعالة، هكذا غردت الكاتبتان باولا وجيني.

بالعودة إلى الخمسينيات، قد نجد من يقول إن جيني قد غيرت المبادئ الأسياسية لزواجها وهو الشيء المسكوت عنه في اقتصاديات الزواج. فعندما قدمت جيني محفزات اقتصادية قتلت حياتها الجنسية في الوقت نفسه.

وتحولت الحياة الجنسية من مصدر للمتعة، إلى التواجد مع شخص آخر بنظام المكافأة. إن المحفزات حولت هيوارد من رجل إلى طفل غريب يجب إطعامه بالجنس من أجل الحفاظ على هدوئه. ولم يعد جسد جيني جزءًا منها، بل أصبح أداة تستخدمها كي تحافظ على هدوء زوجها.

إنها قصة قديمة، بغض النظر عن عدد المعادلات الاقتصادية التي تغلفها.

وهنا يتضح أن المحفزات الاقتصادية ليست معقدة كما نظن.

منذ أكثر من قرن بقليل، تفشى وباء الطاعون الدبلي[97] في هانوي. ولمواجهة تفشي المرض، استخدمت البلدية صائدي الفئران وطلبت منهم أن يقتلوا الفئران، خاصة تلك التي تعيش في مجاري الصرف الصحي بالمدينة، وشغل هذا العمل معظم ساعات يومهم إلا أن الفئران تكاثرت بشكل مضاعف عجز أمامه صيادو الفئران عن إيجاد حل وعلى الرغم من قتلهم الآلاف من الفئران كل يوم، لم يقل عدد الفئران.

بدأت القوة الاستعمارية الفرنسية تحث الجماهيرعلى تقديم المساعدة. وعرضت عليهم المحفز التالي: مكافأة مالية مقابل كل

97- bӧldpest الطاعون الدبلي هو أكثر أشكال الطاعون شيوعًا وهو ينجم عن لدغة برغوث مصاب بعدوى المرض. ويتسبب في التهاب العقدة اللمفاوية.

ذيل فأر يحضرونه إلى السلطات. في البداية، بدا البرنامج ناجحًا جدًّا. فقد أخذ العامة من الناس يحضرون للسلطات الآلاف من ذيول الفئران كل يوم، ولكن سرعان ما انتاب السلطات الشكوك فيما يجري. فقد كانت الفئران الحية التي بلا ذيل تركض في كل الشوارع، وقد بدأ الناس حتى في تربية الفئران لغرض وحيد فقط هو قطع ذيولهم وصرف المكافأة المالية من الحكومة.

وفي مثل هذه الحالات تكمن المفارقة في أنك تدفع مقابلًا لما تحصل عليه، ولا يسير الأمر أبدًا كما هو متوقع؛ لأنك حصلت على ما دفعت مقابلًا له.

وكانت هذه نهاية برنامج اصطياد الفئران في هانوي.

وفي أحد مراكز الرعاية النهارية في إسرائيل، كان الموظفون يواجهون مشكلة تتعلق بعدم التزام أولياء الأمور بمواعيد استلام أولادهم وذلك لعدم قدرتهم على مغادرة أماكن عملهم في الوقت المحدد. ويومًا بعد يوم كان على الموظفين أن يعملوا ساعات إضافية في انتظار وصولهم. فقام اثنان من الاقتصاديين بدراسة هذه المشكلة.

وللتعامل مع تخلف أولياء الأمور عن المواعيد، فرض مركز الرعاية النهارية غرامة على من يتأخر. ودفعها الآباء الذين تأخروا عن موعد استلام أطفالهم، إلا أن هذا أدى إلى مزيد من التأخير من

جانب أولياء الأمور. فكيف حدث ذلك؟

عندما فرض مركز الرعاية النهارية غرامة، قتلوا سهوًا الشيء الذي يجعل أولياء يناضلون من أجل استلام أطفالهم في الوقت المحدد. وقتلوا الشعور بالالتزام والواجب وبأنه ينبغي أن تصل الساعة الخامسة، وإلا فسوف ينزعج الموظفون. وعند تطبيق الغرامة، ولم يدرك مركز الرعاية النهارية أنه وضع سعرًا لعملية تأخر استلام الأطفال، وإذا كان هناك سعر، فيمكنك دفعه، وبالتالي فإنك تشعر أنك تفعل الصواب وأنك على ما يرام.

بدأ أولياء ينظرون إلى الغرامة باعتبارها رسومًا مقابل خدمة إضافية. ومات سهوًا الجانب الأخلاقي. تغيرت العلاقة بين أولياء الأمور والموظفين. فالبشر لا يتصرفون بدافع المال، وإذا تصرفوا بدافع المال، فإنهم يغيرون معطيات الموقف.

وعندما تطلب من أحد المارة مساعدتك في إنزال أريكة من شاحنة، فإنه على الأرجح سيفعل ذلك لأنه يحب تقديم المساعدة ولكن إذا أدخلت المال في المعادلة، فسوف يفقد هذا الدافع.

وفجأة، يتحول الأمر ويصبح أداء خدمة مقابل دفع رسوم، وفي هذه الحالة يبدي الناس اهتمامًا أقل بالأمر.

وعادة ما يفترض الاقتصاديون في نماذجهم المعيارية أنه كلما زادت المحفزات كان ذلك أفضل. فواحد زائد واحد

يساوي اثنين، واثنان دائمًا أكبر من واحد. وبنفس المنطق، إذا وجد سببان يبرران القيام بشيء أفضل من وجود سبب واحد. هكذا يعمل الرجل الاقتصادي. إذا كان يريد اصطحاب أطفاله من مركز الرعاية النهارية في الوقت المحدد لأنه يفضل عدم إزعاج الموظفين، فليكن ذلك. وفي الوقت نفسه ليس لديه مانع في التعامل مع أي محفزات نقدية. والأمر بالنسبة لبقيتنا أكثر تعقيدًا، ليس لأن المحفزات الاقتصادية لا تؤثر علينا. ولكن لأنها تؤثر بالفعل.

والمعلم الذي يزيد راتبه في حالة حصول طلابه على درجات أفضل في الاختبار الوطني، قد يحقق طلابه أعلى الدرجات في الاختبار، ولكن هذا لا يعني أن مستوى الطلاب التعليمي قد ارتقى بالفعل.

والمدير التنفيذي الذي يحصل على مكافأة قدرها مليون في حال صعود أسعار أسهم الشركة، سوف يسعى لجعل أسهم الشركة تصعد، لكن هذا لا يعني بالضرورة أن الشركة ستعمل بطريقة أفضل على المدى البعيد.

عندما تقدم المحفزات، يبحث المرء عادة عن شيء يسهل قياسه ويمكن استخدامه كمؤشر لما يريد أن يحسن من شأنه. والنتائج الجيدة في الاختبارات الوطنية تشكل مقياسًا لما حصل عليه الطلاب من علم ومعرفة، تمامًا مثلما تشكل قيمة السهم مقياسًا

لمدى جودة أداء الشركة.

وما يحدث في أغلب الأحوال هو أن الناس يلتفون حول المحفزات. فيبدأ المعلمون في تعليم الطلاب كيفية الحصول على درجات عالية في الاختبار وليس تحصيل العلم والمعرفة. ويبدأ المدير التنفيذي في اتخاذ القرارات التي تجعل الأسهم تصعد على المدى القصير، وليس التي تعزز وضع الشركة في التقرير ربع السنوي المقبل.

لا تكمن مشكلة المحفزات النقدية في أنها لا تعمل ولكن في أنها تعمل ولكنها غالبًا تغير معطيات الموقف. وفي بعض الأحيان لا يعد ذلك من دواعي القلق.

وفي ريف الهند بدأت إحدى المؤسسات الخيرية في تقديم لقاحات مجانية للأطفال. وعلى الرغم من أن اللقاحات كانت متاحة للجميع، لم يقبل على اللقاح سوى ثمانية من كل عشرة أطفال على أخذ التلقيح. وبدأت المنظمة في تجربة طرق شتى لجعل أولياء الأمور يقبلون على تحصين أطفالهم باللقاح. ويبدو أنها وجدت أن المحفز الأكثر فعالية هو تقديم حصة مجانية من مرق العدس لهم. وبذلك فإن أولياء الأمور الذين لم يهتموا في السابق بتحصين أطفالهم باللقاح أصبح لديهم الآن مبرر كي يقوموا بذلك، وارتفع معدل التحصين.

في العديد من المواقف، تعمل المحفزات الاقتصادية بشكل رائع. ومع ذلك، فإن الناس لا يركضون خلف كل جزرة أو أمام كل ضربة سوط. نحن لا نعيش في عالم يحسب فيه كل شيء بالمال. إذا قدمت محفزًا ماليًّا اقتصاديًّا، فإنك تخاطر، مثلما فعل مركز الرعاية النهارية الإسرائيلي، عندما قتل الشيء الذي كان يحافظ على تماسك الوضع.

وحدث أن قامت سويسرا بإجراء دراسة اقتصادية، ضمن استفتاءات عديدة بغرض البحث العلمي. كان الاستفتاء المستهدف يتعلق بالعثور على مكان لتخزين النفايات النووية، وكان العلماء مهتمين بمعرفة كيف ينظر الناس إلى هذه القضية.

وقاموا بتوزيع استبيانهم الذي يتضمن السؤال التالي: «هل يمكنكم تخيل وجود موقع لنفايات نووية في الحي؟».

أجاب خمسون في المئة: «نعم».

ومن المسلم به أن الناس اعتقدوا أن موقعًا من هذا النوع سوف يشكل خطورة عليهم، وبالتأكيد سيقلل من قيمة منازلهم. ولم يعجبهم ذلك، لكن يتعين إيجاد مكان ما يفي بالغرض. وعندما أرادت السلطات اختيار هذا الموقع؛ شعر السكان بالمسؤولية، كمواطنين سويسريين.

وعندما سئل الناس، من ناحية أخرى، عما إذا كانوا يقبلون

تخزين النفايات النووية في مكان يقع بجوارهم، في حال تم تعويضهم عن الإزعاج الذي سوف يسببه لهم بمبلغ سنوي كبير نسبيًا -يعادل ما يتقاضاه عامل عادي في ستة أسابيع- أجاب 25٪ فقط بنعم. وهؤلاء أرادوا أن يكونوا مواطنين صالحين، لكن الأمر لم يعد يتعلق بذلك الآن. وهكذا قتل المحفز الجديد المحفز الحقيقي.

إن الإوزة التي تضع البيض الذهبي غالبًا ما تكون مختلفة عما نظن.

ولهذا السبب نجازف بقتلها.

نحن نقدم محفزًا نقديًا لأننا نعتقد أن الدوافع المادية هي القوى الدافعة الوحيدة. ثم يحدث أن يقوم هذا المحفز بإزاحة جميع القوى الدافعة الأخرى. عندما يجد الرجل الاقتصادي نفسه في موقف، وينجح فيه عن طريق إزاحة اعتبارات أخلاقية وعاطفية وثقافية كانت في السابق لها أهمية بالغة في دفع الاقتصاد وتطويره. من خلال تعريفها بهذه الطريقة، لا تجد مبادئ السوق صعوبة في تحديد الأشياء الأكثر أهمية.

كما أنها تخاطر بتدمير أكثر الأشياء أهمية.



الفصل العاشر

وفيه لا نرى أنك أناني لمجرد أنك تريد المزيد من المال

إن نانسي فولبر[98]، أستاذة علم الاقتصاد النسوية، كانت تعيد دائمًا سرد الحكاية التالية:

حدث ذات مرة أن قرر عدد من الآلهات إجراء سباق أوليمبي للعدو بين دول العالم. لم يكن هذا سباقًا عاديًّا محدد المسافة ويفوز أول من يصل إلى خط النهاية بميدالية، بل كان سباقًا لمعرفة أي مجتمع يمكنه دفع أعضائه إلى الأمام ككيان واحد. تم إطلاق إشارة بدء السباق وسرعان ما تولت إحدى الدول زمام المبادرة.

وقامت هذه الدولة ببحث مواطنيها على العدو بأقصى قوة، وبأسرع ما يمكن تجاه خط نهاية غير معلوم، وافترض المتسابقون أن مضمار السباق لا يمكن أن يكون طويلًا جدًّا. وبدؤوا في العدو بسرعة كبيرة وسرعان ما تخلف الأطفال وكبار السن عن السباق، ولم يتوقف أي من المتسابقين لمساعدتهم. لقد غمرتهم السعادة لسرعتهم الفائقة في العدو، ولم يكن لديهم وقت لمساعدة أحد. ولكن مع استمرار السباق، بدؤوا يشعرون بالتعب. وفي النهاية، شعر كل المتسابقين تقريبًا بالإعياء وتعرضوا للإصابات، ولم يكن هناك من يحل محلهم.

أما الدولة الثانية فقد لجأت إلى استراتيجية مختلفة. فقد وضع

98- Nancy Folbre خبيرة اقتصادية أمريكية تعمل في مجال حقوق المرأة وتركز على الاقتصاد والأسرة والعمل غير السوقي واقتصاديات الرعاية.

هذا المجتمع كل شبابه في الصدارة وطلب من النساء أن تبقى في المؤخرة. وقامت النساء بحمل الأطفال والاعتناء بالمسنين مما جعل الرجال يجرون بسرعة فائقة. وكانت النساء على مقربة منهم يقدمن المساعدة عندما يشعرون بالتعب. بدا هذا النظام في البداية نظامًا رائعًا، ولكن سرعان ما اندلعت الصراعات. فقد شعرت النساء أن جهودهن لا تقل عن جهود الرجال، وإن لم يحملن الأطفال، ليركضن بنفس السرعة. ولم يحاول الرجال فهم وجهة نظر النساء. وما بدأ على أنه استراتيجية رابحة فقدت زخمها وخسرت. وأهدر المزيد والمزيد من الطاقة بسبب النزاعات والمفاوضات والخلافات.

والآن يتجه الاهتمام إلى الدولة رقم ثلاثة التي كانت تتحرك ببطء نسبيًّا. ولما نظرت الآلهات في اتجاهها رأوا أن هذه الدولة تتحرك بخطى ثابتة ومنتظمة أكثر من غيرها. وكان من المتوقع من المتسابقين أن يركضوا وفي الوقت نفسه يقدموا المساعدة للضعفاء. تم تشجيع الرجال والنساء على حد سواء على أن يكونوا في الصدارة وتناوب الجميع على رعاية الأطفال والمرضى. وحظيت كل من السرعة وتقديم المساهمات للآخرين بالتقدير، وخلقت هذه المسؤولية المشتركة التضامن بين الناس. وبالطبع فقد انتصرت هذه الدولة وفازت بالسباق. إنها قصة مذاقها حلو للغاية.

فينبغي على كل مجتمع أن ينظم طريقة رعاية الآخرين، وإلا لن يعمل الاقتصاد ولا أي شيء آخر. والسؤال المحوري لعلم لاقتصاد هو: «كيف تحصل على عشائك؟» وحتى إذا أجاب آدم سميث بأنك تحصل على عشائك بسبب المنفعة الخاصة، فقد كانت والدته هي من وضعت طعامه على الطاولة كل ليلة ومن اعتنى به عندما أصيب بالحمى.

ودون رعاية لا يمكن للأطفال أن يكبروا، ولا يمكن للمرضى أن يشفوا، ولا يمكن لآدم سميث أن يكتب ولا يمكن للمسنين أن يعيشوا. إن رعاية الآخرين هي الوسيلة التي نتعلم من خلالها التعاون والتعاطف والرعاية والمراعاة والانضباط الذاتي. وكل هذا يعد مهارات حياتية أساسية.

إن العلوم الاقتصادية أرادت «الحفاظ على الحب». وكان من المفترض أن تنقذ الحب عن طريق إزاحة القوى الدافعة الأخرى، مثل الرعاية والتعاطف والمراعاة وإبعادهم عن الأسلوب المستخدم في التحليل، لأنهم لا يعتبرونها صفات تجلب الرخاء الذي تحقق مرة من أجل المال، ومرة من أجل الرعاية. ولن يلتقي الاثنان أبدًا.

وحدث نفس الشيء وبنفس الأهمية لكن في الاتجاه المعاكس، عندما تم استبعاد الرخاء والمال من المناقشات حول المراعاة والتعاطف والرعاية. ولعل هذا الأمر أكثر أهمية من أي شيء آخر لأن وضع المرأة الاقتصادي اليوم أسوأ بكثير من وضع الرجل.

فقد كتب الفيلسوف آرثر شوبنهاور[99]: «إن المال هو سعادة مجردة، ومن لا يستطيع الاستمتاع بالسعادة الملموسة يمكنه أن يلاحقها في شكلها المجرد. ويعتبر المال رغبة مجمدة، وليس رغبة في أي شيء على وجه الخصوص، بل مجرد رمز لإشباع الرغبة بشكل عام».

نحن نعبد المال. ولكننا نعتقد أن ذلك، على مستوى ما، شيء قبيح بعض الشيء، مثله مثل معظم الرغبات، خاصة عند النساء.

كانت أعمال الرعاية تتم، تقليديًا، في المنزل وهو المكان الذي يمكن للرجل أن يعود إليه بعد يوم شاق من العمل مدفوع الأجر قضاه في عالم بارد، وبالمنزل يغرق في مملكة المرأة الناعمة المفعمة بالعواطف والأخلاقيات والمشاعر الشهوانية وستائر الدانتيل والكروشيه.

هنا في المنزل، لا يكون الرجل مجرد ترس في آلة تمنحه محفزات مالية كي يتصرف بالطريقة المطلوبة بل على العكس، يمكنه أن يأخذ إجازة من السوق، ويمنح نفسه فرصة كي يكون في حال أفضل وعلى مرمى بصر امرأة جميلة. لم يكن من واجب المرأة أن توازن فقط بين حياة الرجل من خلال الرعاية والتعاطف، ولا أن تجعله يتواصل مع جوانب التجربة الإنسانية التي لا يستطيع قبولها، بل ينبغي أن تخلق هذا التوازن في المجتمع بأسره.

99- Arthur Schopenhauer فيلسوف ألماني (1788- 1860). معروف بفلسفته التشاؤمية يرى في الحياة شرًّا مطلقًا فهو يبجل العدم. وقد كتب كتاب «العالم فكرة وإرادة» الذي وضع فيه زبدة فلسفته فلذلك تراه يربط بين العلاقة بين الإرادة والعقل فيرى أن العقل أداة بيد الإرادة وتابع لها.

وطالما ظل عالمها الناعم مكملًا للسوق، فنحن كعائلة لن ننغمس في الجشع والمنافسة الجامحة. وبفضل رعايتها وتعاطفها، أكسبت المرأة نضال الرجل في السوق معنى. وكان هذا هو وظيفتها الاقتصادية. وهكذا بدأت القصة في بداية العصر الفيكتوري، عندما تنامت الرأسمالية كما نعرفها اليوم بما يكفي كي تبدأ في سرد قصص عن نفسها.

وحتى بعدما نقلت أعمال الرعاية مع الوقت، من المنزل إلى المستشفى ومركز الرعاية النهارية ودار المسنين، كان هناك فصل بين الحب والمال. وبات الاعتناء بالآخرين شيئًا تقوم به لأنك إنسان صالح، أي أنثى وليس لأنك تريد وظيفة لتكون قادرًا على إعالة نفسك.

إن الممرضات الأوائل كن من الراهبات. وقد أقسمن أن يظللن فقراء. وإن لم يحدث ذلك لتشكلت هيئة التمريض من فتيات ينتظرن زوجًا، لأن لا أحد يعولهن وفي نهاية الأمر سيتولى رجل تلك الإعالة ومن ثم لا شيء يدعوهن لإعالة أنفسهن بالعمل. علاوة على ذلك، كانت رسالة الممرضة نبيلة وهامة، هكذا كان الرجال يقولون. ولهذا السبب لم يدفعوا للنساء أجرًا مقابل التمريض.

وبالنسبة للرجال، يطبق منطق معاكس: إن العمل الضروري للمجتمع لا بد أن يدفع لقاءه أجر جيد. فإذا أفلس البنك، فإن الاقتصاد كله سوف ينهار، لهذا السبب ينبغي أن يحصل الرجل على خمسة ملايين كمكافأة. لكن هذا المنطق لا ينطبق على النساء. وبما أن النساء تعمل بشكل رئيس في مجال الرعاية، فإن هذا المنطق لا ينطبق أيضًا على هذا النوع من الوظائف.

وما إذا كانت المرأة تعمل في قطاع الرعاية لأن الأجور متدنية، أو

أن الأجور كانت متدنية لأن النساء يعملن في هذا القطاع، فهذا سؤال لا يمكن الإجابة عنه، غير أننا نعلم أن السبب الرئيس لعدم المساواة الاقتصادية بين الرجال والنساء، هو أن عدد النساء اللواتي يعملن في مجال الرعاية أكبر بكثير، وأن التمريض والرعاية قد بخس قدرهما بشكلٍ كبير وهذا يرجع، إلى حد كبير، إلى الفصل بين الحب والمال.

إن فلورنس نايتنجيل[100]، رائدة مهنة التمريض الحديثة، ولدت عام 1820 لأبوين بريطانيين. وأطلق عليها أبواها اسم بلدة توسكانية تقع على نهر أرنو حيث ولدت، ولأن عائلتها كانت ميسورة الحال أتيحت لها الفرصة لتثقف نفسها. كانت فلورنس مؤمنة جدًّا واعتقدت منذ وقت مبكر أن الله دعاها لتصبح ممرضة مما صدم والدتها وعارضته. فقد كان التمريض حينها مهنة سيئة السمعة ولم يكن يعمل بها سوى النساء الفقيرات. وعلى الرغم من احتجاج الأسرة، تعلمت فلورنس فن التمريض.

وفي عام 1853 اندلعت حرب القرم، التي كانت صراعًا دمويًّا

100- Florence Nightingale رائدة التمريض الحديث (1820 - 1910) تعرف باسم «سيدة المصباح» أو «السيدة حاملة المصباح». تطوعت فلورانس نايتينجيل في حرب القرم عام 1854 وقامت بتمريض الجنود في الجيش. ونتيجة لمجهوداتها في الحرب تبرع لها الشعب الإنجليزي بالنقود لتنشئ مدرسة لتعليم الممرضات في مستشفى سان توماس بإنجلترا وكانت فلورانس تنتقي طالباتها بدقة. ومنذ إنشاء مدرسة فلورانس نايتينجيل اعتبر التمريض مهنة يجب التدريب عليها ووضع خطة تعليمية لها. وكذلك اعتبرت أن التمريض فن وأن الممرضات لا يتعاملن مع رخام أو حجارة ولكنهن يتعاملن مع آدميين أحياء لهم احتياجات ولهم شخصيات وطباع مستقلة وكان من ضمن عباراتها عن التمريض «إن التمريض يمرض أجسامًا حية وأرواحًا». ساهمت حرب القرم أيضًا في ميلاد ما عرف فيما بعد بمنظمة الصليب الأحمر الدولي. فقد نشأت هذه المنظمة الإنسانية من وحي ما قامت به الممرضة الإنجليزية «فلورنس نايتينجيل» من أعمال إنسانية خلال هذه الحرب كمتطوعة لتضميد جراح الأسرى والمصابين من المقاتلين.

طويل الأمد بين القوى العظمى في أوروبا لفرض النفوذ على الإمبراطورية العثمانية الآيلة للسقوط. وكانت تلك حربًا سيئة السمعة بسبب الظروف الرهيبة التي كان المصابون والجرحى يعانون منها وبسبب القصور اللوجيستي الهائل. ومما زاد الطين بلةً أن عاصفة شديدة هبت ودمرت ما يقرب من ثلاثين سفينة، وغرق معهم الدواء والطعام والملابس. كما تفشت الكوليرا بين القوات البريطانية وفي الوطن. وهذه الحرب كانت أول حرب حديثة، ليس فقط لأنها استخدمت الخنادق والقصف الأعمى، ولكن لأنها استخدمت التلغراف أيضًا مما جعل إرسال الرسائل بسرعة عبر مسافات طويلة ممكنًا، وبالتالي كانت أول حرب يمكن لوسائل الإعلام رصدها ومتابعتها متابعة حية.

وفي الوطن نشرت الصحف تقارير عن البؤس الذي لحق بالقوات البريطانية في هذه الحرب. ومثلها مثل الآخرين، شعرت فلورنس نايتنجيل بأنها لا بد أن تفعل شيئًا، فسافرت متطوعة في 21 أكتوبر 1854 مع ثماني وثلاثين ممرضة إلى البحر الأسود.

وكان المستشفى الميداني يقع على جبل في منطقة سكوتاري خارج إسطنبول، وحتى قبل وصول السفينة نشر مقال في الصحافة البريطانية عن قائدة هذه البعثة الرائعة. من هي الآنسة نايتنجيل تلك؟ إن تواجد نساء في الخدمات الطبية العسكرية أثار ضجة هائلة.

وفي مستشفى سكوتاري الميداني في الجزء الآسيوي من القسطنطينية، كان الموظفون يعملون بما يفوق طاقتهم، ومستوى النظافة كان مروعًا، وتفشت العدوى والأوبئة وتسببت الإصابات الجماعية في دمار شامل، وترك الناس على الأرضيات المتسخة حتى ماتوا. ومن أموالها الخاصة ومن الأموال التي جمعها قراء صحيفة التايمز بدأت فلورنس نايتنجيل في شراء احتياجاتها. واستأجرت منزلًا بالقرب من المستشفى الميداني وبدأت في غسيل الملابس، وشراء الخضروات من الأسواق المحلية، وإطعام الجنود الفواكه الحمضية لأنها أدركت أن النظام الغذائي بلا فواكه يؤدي إلى سوء التغذية. وفي السابق، كان الطعام يتكون من اللحوم النيئة التي توزع في حصص، وتكون فاسدة في كثير من الأحيان، كما استأجرت طاهيًا فرنسيًّا ماهرًا من لندن.

وأدت عمليات التعقيم والتنظيف التي قامت بها في خفض معدلات الوفيات تدريجيًّا وبنسبة كبيرة. وحرصت نايتنجيل على تسجيل إحصائيات دقيقة عن مستوى التقدم في هذا الصدد. ورغم المقاومة التي واجهتها من قبل الأطباء العسكريين، فقد أحدثت ثورة في الرعاية الصحية والتمريض. وعندما عادت استقبلتها لندن باعتبارها بطلة قومية. لم يكن ما فعلته فضيحة اجتماعية كما توقعت عائلتها على الإطلاق بل على العكس فقد أصبحت فلورنس نايتنجيل أسطورة ملهمة، وصورت في اللوحات الزيتية

كسيدة عطوف في زي أبيض، تمر على غرف المرضى المكتظة بالجرحى وتتابعهم عن كثب، وهي تحمل مصباحًا ولذلك أطلقوا عليها اسم «السيدة حاملة المصباح»، وتداولت وسائل الإعلام هذا الاسم بمنتهى السرور. لقد باتت نجمة هادئة تجسد اللطف والدعة والشعور بالواجب، نجمة تنير ليالي المستشفى المظلمة.

وما زالت فلورنس نايتنجيل تجسد في صورة ملاك هادئ، متواضع، يعمل في صمت ولا يعبأ بالمال. والحقيقة أن فلورنس كانت مناضلة وناشطة اجتماعية ولديها اهتمام كبير بالاقتصاد. كانت الإحصائيات التي تسجلها هي السلاح الذي تناضل به من أجل طرح فكر جديد في مجال الرعاية الصحية ولم يعد الخجل والإيثار وإنكار الذات هي الصفات التي تقترن بها فيما بعد.

فقد قالت فلورنس نايتنجيل إن الله والمال ليسا أعداء. وإن تنفيذ عمل بتكليف من الله لا يعني أن الممرضات لا ينبغي أن يحصلن على أجر. وفي كتاباتها تناولت مرارًا وتكرارًا فكرة أنه لا يوجد تناقض بين فعل الخير والسعي وراء الموارد المالية. فالمال وسيلة ضرورية لأولئك الذين يريدون القيام بعمل هنا على الأرض نيابة عن الله.

لقد ناضلت فلورنس نايتنجيل طوال حياتها من أجل دفع أجر جيد لمن تمتهن التمريض. ونحن اخترنا أن ننسى ذلك لأننا عالقون في فكرة أنك تفعل شيئًا إما من أجل المال، أو بدافع

التعاطف وعمل الخير، وأن الأداء يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالصورة النمطية المرسومة لدينا عن طبيعة كل الجنس. الرجال مدفوعون بالمنفعة الخاصة بينما يفترض أن النساء يعملن على أن تكون الصورة كاملة ومتناسقة. ويبدو أننا عاجزون عن تخيل أن نفس القوة الدافعة كامنة داخل أي شخص بغض النظر عن نوع الجنس، حتى لو كان ذلك هو الأقرب للحقيقة.

ومثلما تعتبر الدوافع التي تجعلنا نهرول لاستلام أطفالنا من دور الرعاية النهارية في الموعد المحدد بالضبط، أو تجعل السلطات تضع النفايات النووية في فنائنا الخلفي أكثر تعقيدًا من كونها تتعلق بالحسابات المالية والمكاسب الاقتصادية فحسب، فإن الدوافع التي تجعلنا نقوم بأعمال الرعاية هي أيضًا أكثر تعقيدًا، كما أن الأمر لا يتعلق بكيف تكدح النساء حتى تنحني ظهورهن وتستهلك أرواحهن في خدمة الإنسانية، أو منح المجتمع قوى ناعمة تحقق توازنًا هادئًا في السوق الشرسة.

وحتى «فلورنس نايتنجيل» التي تعد رمزًا في مجال الرعاية الصحية وفي التضحية بالذات، ليست هي «فلورنس نايتنجيل» التي تعد رمزًا في مجال الرعاية الصحية باعتبارها موردًا طبيعيًا لا ينضب ولا يمكننا أن نستخلصه إلا من الطبيعة الأنثوية لأننا في حاجة إليه.

لقد صنعنا من فلورنس نايتنجيل ما أردنا لها أن تكونه، جعلنا

منها شيئًا يحتاجه الرجل حتى يحافظ على تماسك واتساق المجتمع.

والسؤال: هل هذا النهج سيكون مستدامًا وطويل المدى أم لا؟

واليوم يعاني مجال الرعاية الصحية في العالم من نقص شديد في العاملين. لقد ولى العهد الذي لم يكن متاحًا فيه لمعظم النساء الحصول على وظائف في أي قطاع سوى التمريض، إنه ولى بلا رجعة على الأقل في الغرب.

وبين عامي 2000 و2003 تمت إعادة تأهيل 3500 طبيبة فلبينية، كي يعملن كممرضات. وقد هاجر أغلبهن إلى الولايات المتحدة. فالممرضة هناك تتقاضى أجرًا أعلى من الطبيب في الفلبين بمعدل يتراوح من 4–6 مرات.

والممرضات المؤهلات من دول عبر القارة الإفريقية يهاجرن إلى جنوب إفريقيا، ومن هناك إلى كندا ومن كندا إلى الولايات المتحدة. ويستوطن بلدان إفريقيا التي تقع جنوب الصحراء الكبرى 24٪ من إجمالي أمراض في العالم، ولكن ليس لديها سوى 3٪ فقط من الممرضات العاملات في مجال التمريض على مستوى العالم. وفي زامبيا يوجد 2.2 ممرضة لكل 10000 شخص. وهذا أقل بأربعين مرة من نسبة الممرضات في الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي هذا السوق يذهب المرء حيث يوجد المال.

إن النساء يرغبن في صنع حياة أفضل لأنفسهن، كما أن العديد من البلدان تعاني من نقص العاملين في مجال الرعاية الصحية، حتى في الغرب. وهذه المشكلة لم يجدوا لها حلًا بعد. ففي السويد، تشير التقديرات إلى أن العجز في عدد الخرجين من العاملين في التمريض سوف يبلغ 130.000 في عام 2030. وفي نفس العام ستعاني الولايات المتحدة الأمريكية من عجز في عدد الممرضين المؤهلين يتراوح بين 400.000 إلى 800.000 ممرض.

وعلى الرغم من أن أجور التمريض في الدول الغربية الغنية أعلى بكثير مقارنة بما يتقاضاه الناس في مناطق أخرى من العالم، فهي ما زالت متدنية مقارنة ببقية الأجور في سوق العمل مما يؤدي إلى صعوبة توظيف عاملين في هذا المجال.

ويبدو أن المال يلعب دورًا هامًّا هنا.

فهل هذا يقلل من نبل وأهمية العمل في مجال الرعاية الصحية ويجعله الأسوأ؟

وبالنسبة للرجل الاقتصادي لا يهم ما إذا كان هناك شيء يتعلق بالمال أم لا. فهو لا يزال أنانيًّا دائمًا، سواء كان ذلك متعلقًا براتبه، أو حتى بقتل نفسه، أو بالطريقة التي يسلكها في العمل. ومن

ناحية أخرى، يحضر الناس الحقيقيون دوافعهم المعقدة وقواهم الدافعة معهم، حتى في علاقتهم بالمال.

لقد درس الباحثون علاقة المال بالرغبة في فعل الخير. ووجدوا الرعاية والأخلاق والولاء والاستمتاع بعمل جيد قد تتلاشى إذا أضيف إليها المال كدافع. الأمر ليس بهذه البساطة فكلما زادت دوافعنا، زاد استعدادنا للقيام بعمل جيد، كما في حالة استلام الأطفال من دور الرعاية النهارية في إسرائيل أو في الاستفتاء السويسري على موقع النفايات النووية.

لكن الدراسة توصلت إلى أنه إذا كان ينظر إلى المال لقاء عمل ما هو بمثابة اعتراف به، فإن ذلك يعزز دوافعنا الخاصة. ثم يجعلنا نشعر بمزيد من الرضا والتحفيز.

يريد الناس أن يشعروا بالتقدير والدعم في وظائفهم، ويمكن أن يكون المال وسيلة للتعبير عن هذا التقدير وهذا الدعم. ويحتاج الناس إلى المال قبل أي شيء آخر، بما فيهم النساء. لا أحد يشعر بالاستغلال، ومجرد أن شيئًا ما يتعلق بالمال لا يعني أن هذا الشيء أناني.

أراد آدم سميث الحفاظ على الحب بوضعه في برطمان، وكتب الاقتصاديون على ملصقه «النساء» لا ينبغي خلط محتويات البرطمان بأي شيء آخر بخلافهن، كما ينبغي الحفاظ على

البرطمان منفصلًا ومغلقًا. وكان ينظر إلى هذا «الاقتصاد الآخر» على أنه شيء منفصل تمامًا عن أي شيء آخر. وإذا لم يمثل أهمية للكل وللحقيقة، فلن يكون اقتصادًا على الإطلاق، غير أنه مورد طبيعي لا ينضب.

وفيما بعد، توصل الاقتصاديون في مدرسة شيكاغو إلى أن هذا المنطق ليس له صلة بكيفية تكوين الثروات وتحقيق الرخاء فقط، بل إنه لم يكن موجودًا من الأصل، ومع ذلك فإنه شيء طيب أن ندير عائلاتنا وزيجاتنا وفقًا لمنطق السوق.

ولا شيء آخر سواه.

وإذا أردنا حقًّا الحفاظ على الحب والرعاية في المجتمع، فينبغي أن نحاول دعمهما بالمال والموارد بدلًا من استبعادهما.

يجب أن ننظم الاقتصاد بحيث يدور حول ما يهم للإنسان، لكننا فعلنا العكس. وأعادوا تعريف «الرجل» بما يتناسب مع فكرتنا عن الاقتصاد.

الفصل الحادي عشر

وفيه نلاحظ أن «واحد ناقص واحد» لا يزال يساوي صفرًا!

في عام 1978، بدأ دنج شياو بينج[101] في تحرير الاقتصاد الصيني. وكان الرئيس ماو قد توفي قبلها بعامين، واجتاح اليابان وتايوان وهونغ كونج وكوريا الجنوبية موجة من الرخاء المتنامي بسبب مبادئ السوق، وليس التخطيط المركزي.

وينبغي حماية مصالح الصين.

وأعلن الحزب الشيوعي أن النمو الاقتصادي كان «المهمة المركزية». وخلال عقدين تحولت الصين من مجتمع مغلق إلى ظاهرة رأسمالية. ولم يكن العالم قد شهد نموًّا اقتصاديًّا بهذا الحجم من قبل، فمن هيمنة طبقة البروليتاريا إلى هيمنة الاقتصاديين الذين كانوا في كل مكان؛ فقد قاموا بوضع خطط الخصخصة، واستحوذوا على الشركات التي قاموا بخصخصتها على الفور، وأزاحوا الحرس القديم من الماويين جانبًا.

وقد واجه دنج شياو بينج معارضة من داخل الحزب فقام بإجراء الإصلاحات تدريجيًّا. ولم يكن العلاج في الصين بالصدمة مثلما حدث في روسيا. لقد توخوا الحذر، أخذوا يخطون خطوة واحدة في كل مرة. ولم يتحدث أحد عن هدف نهائي، ولكن من هو المسؤول عن اتخاذ القرار كان معروفًا وواضحًا وضوح الشمس.

101- Deng Xiaoping سياسي ومنظر وقائد صيني، في عهد رئاسته للبلاد، قاد الصين نحو تبني اقتصاد السوق. تولى قيادة الحزب الشيوعي الصيني بعد إطاحته بهوا جيو فينج. له نبوءة بأن الصين تحتاج إلى نصف قرن لاستكمال عملية التحديث والسيطرة السياسية والاقتصادية.

أصبح الاقتصاديون هم الكهنة الجدد للحضارة الصينية، فقد تلقوا تعليمهم على يد النظريات الاقتصادية الغربية غير أنها كانت موالية للمشروع الصيني. إن أفكار الاقتصاديين النيوليبراليين تم تعبئتها وتغليفها باقتباسات ومقولات على لسان كارل ماركس والرئيس ماو.

واليوم تشيد شنغهاي بسرعة فائقة لدرجة أنهم يعيدون رسم خريطة المدينة كل أسبوعين. لقد انتقل ثلاثمئة مليون نسمة من مجال الزراعة إلى عصر الحداثة في ثلاثين عامًا، وهي نفس العملية التي استغرقت أكثر من مئتي عام في الغرب. وتسارع نمو الطبقة الوسطى على نحو قياسي.

وفي هذه الأثناء، كانت الأمطار الحمضية(102) تسقط على أكثر من ثلث مساحة الصين، علاوة على الضباب الرمادي- البني اللون، وسجلت 400000 حالة وفاة مبكرة بسبب الكبريت كل عام. إنه الانتحار البيئي.

102- تمت صياغة مفهوم المطر الحمضي في عام 1852م من قبل عالم الكيمياء الاسكتلندي روبرت أنجس سميث أثناء قيامه بفحص كيمياء مياه الأمطار بالقرب من المدن الصناعية في إنجلترا واسكتلندا. فدون نتائجه في كتابه (الهواء والمطر: بدايات علم المناخ الكيمياني) في عام 1872م. ومفهوم الأمطار الحمضية (surt regn) أو ما يسمى بالترسيب الحمضي مصطلح واسع يشمل أي شكل من أشكال الترسيب التي تسقط على سطح الأرض من الغلاف الجوي وتحتوي على مكونات حمضية: كأحماض الكبريتيك والنيتريك. بأشكالها الرطبة والجافة. إذ يصل الرقم الهيدروجيني للأمطار في الأوضاع الطبيعية إلى 5.6. بينما يتراوح الرقم الهيدروجيني للأمطار الحمضية ما بين 4.2 - 4.4. مما يعني أنها حمضية نوعًا ما؛ لأن ثاني أكسيد الكربون يذوب في مياه الأمطار منتجًا حمض الكربونيك الضعيف.

ومن ثم اندلعت الاحتجاجات في ميدان السلام السماوي (تيانانمين) في عام 1989 مطالبة بالديمقراطية وحرية التعبير في المقام الأول. وكان لدى معظم المحتجين استياء عام من الإصلاحات النيوليبرالية التي أجرتها الصين في العام السابق والتي أفرزت عم المساواة والتضخم. وبعدما أمر دنج شياو بينج في وقت مبكر من صباح الرابع من يونيو بذبح المتظاهرين المحتجين، تم إسكات نداء الديمقراطية وكل شيء آخر. وبعدما اقتحمت الدبابات ساحة الميدان، مات الجدل العام حول المساواة على مدار السنوات الخمس عشرة التالية على الأقل.

وبات دخل العمال الصينيين يقل ويقل بما يتناسب مع الناتج المحلي الإجمالي للبلاد منذ عام 1983، وساءت ظروف العمل في المصانع للغاية. وعندما انتحر أربعة عشر موظفًا في غضون ستة عشر شهرًا في شركة فوكسكون Foxconn [103] المصنعة للهاتف آي فون iPhone، رفعت الشركة رواتب الموظفين بنسبة

103- هون هاي المحدودة للصناعات الدقيقة (: Hon Hai Precision Industry Co., Ltd، وتقوم بالتداول باسم فوكسكون Foxconn)). وهي شركة متعددة الجنسيات متخصصة في صناعة الإلكترونيات. احتلت المركز 60 على قائمة مجلة فورتشن «فورتشن 500 العالمية» للعام 2011 لأكثر الشركات دخلًا. وتعد أكبر مصنع للمكونات الإلكترونية في العالم. من أبرز المنتجات التي تقوم الشركة بصناعتها لصالح شركات أخرى جهاز بلاك بيري، آي فون، آي باد، آي بود، آي باد، كيندل، بلاي ستيشن 3، بلاي ستيشن 4، وي، وي يو، إكس بوكس ون وإكس بوكس 360. وقعت عدة حوادث انتحار بين العاملين في الشركة في العام 2010. وفي 2012، قام أحد عملاء الشركة «أبل» باستنجار خدمات جمعية العمل العادل (Fair Labor Association) التي تعني بتوفير ظروف العمل الملائمة، للتدقيق في ظروف العمل لدى فوكسكون. ويعمل لدى فوكسكون 1.23 مليون موظف يصنعون الأجهزة لمختلف الشركات التقنية حول العالم.

30٪. وفي الوقت نفسه، كان على جميع العمال توقيع عقد يتعهدوا فيه بألا ينتحروا. وإذا انتحروا، فلن تحصل أسرهم إلا على أقل تعويض ممكن.

لكن الانتحار ليس هو المشكلة الوحيدة: فكلمة «جولاوسي guolaosi»[104] تعني بلغة الماندرين[105] «الموت من العمل المفرط död från överarbete».

وبالطبع من المتوقع أن يكون في لغتهم كلمة تحمل هذا المعنى.

وبعد أشهر من إصلاحات دنج شياو بينج الأولى، تولى بول فولكير رئاسة مجلس الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي في يوليو 1979، وكان التضخم في أمريكا مرتفعًا للغاية آنذاك. وثمة نبوءة كانت في طريقها للتحقق من تلقاء نفسها، حيث توقع الجميع أن تقل قيمة كل دولار غدًا عما كانت عليه اليوم. وتعويضًا عن ذلك، رفعت الأجور والأسعار، وما حدث أن ذلك جعل سعر الدولار يقل أكثر وأكثر ومن ثم أخذت الرواتب والأسعار ترتفع أكثر وأكثر.

قرر بول فولكر أنه يجب مكافحة التضخم، مهما كانت التكلفة، وفي غضون بضعة أشهر، أعاد صياغة السياسة النقدية الأمريكية.

104- karoshi (كلمة مستعارة من اليابانية). الموت من العمل المفرط.

105- الماندراين الصينية mandarin هي اللغات التي يتحدث بها الصينيون في المناطق الشمالية الغربية والجنوبية الغربية من جمهورية الصين الشعبية.

وعندما أصبح رونالد ريجان رئيسًا للولايات المتحدة بعد ذلك بعامين، كان معدل البطالة يبلغ 8.4٪ وكان معدل التضخم يزيد عن رقمين. واتبع ريجان سياسة توسعية من ناحية، وحاول تحفيز الاقتصاد من خلال تخفيضات ضريبية كبيرة ورفع الإنفاق العسكري، وفي الوقت نفسه دعا بنك الاحتياطي الفيدرالي أيضًا إلى القيام بإبطاء معدلات الفائدة المرتفعة وكبح عملية ضخ الأموال.

وفي الوقت نفسه كانت مارجريت تاتشر رئيسة وزراء في بريطانيا العظمى. وكان من المقرر كبح جماح الحركة النقابية وتقليص دور الحكومة وإعادة تشغيل اقتصاد الإمبراطورية البريطانية السابقة من جديد. لقد وجد كل من تاتشر وريجان بغيته في الآخر.

وبزغ عهد جديد.

إن النيوليبرالية التي كانت في السابق عقيدة سياسية غامضة، علا شأنها وأصبحت مركزًا تدور حوله مشاريع تاتشر وريجان. وقالت تاتشر: «لا يوجد شيء اسمه مجتمع واحد»، بل يوجد مواطنون أحرار يعيشون مع أسرهم، ولا يوجد مجتمع ولا مجموع مواطنين.

وتهدف النيوليبرالية، في أكثر صورها تجريدًا، إلى تقليص دور

الدولة في طباعة النقود وتنظيم الجيش والشرطة والقضاء، وإلى أن يكون دور السياسة هو وضع كل من الخصخصة والأسواق الحرة والتجارة الحرة في إطار فريد من نوعه، ولا شيء خلاف ذلك. والمناطق التي لا توجد فيها أسواق وفيها أرض ومياه ورعاية وتلوث وتعليم هي الوحيدة التي ينبغي على للدولة التدخل فيها وتنشئ أسواقًا وتحدد أطر العلاقات أو تمزقها كي تناسب السوق. إن كل شيء يمكن أن يباع ويشترى، وعندها فقط يتعايش المجتمع البشري.

وفي النظريات النيوليبرالية، ينبغي أن تخلق السياسة المنافسة وتحافظ على زخمها. دع العجلة تدور والكعكة تكبر وتتضخم.

وكان شعراء النيوليبرالية، مثل الفيلسوف فريدريش هايك[106] أو الاقتصادي ميلتون فريدمان أكثر دقة على الأغلب من السياسيين الذين حذو حذوهم، لكن الفكرة الأساسية كانت هي نفسها: ضرائب أقل، وتقليص دور الحكومة وتنظيمًا أقل لقطاع الشؤون المالية.

106- Friedrich Hayek كان اقتصاديًّا ومنظرًا سياسيًّا نمساويًّا بريطانيًّا. عرف بدفاعه عن الليبرالية الكلاسيكية والرأسمالية القائمة على أساس السوق الحر ونقده للفكر الاشتراكي والجماعي (collectivist) خلال أواسط القرن العشرين. يعد هايك أحد أهم اقتصاديي القرن الماضي، وأكثر أعضاء المدرسة النمساوية للاقتصاد تأثيرًا. حصل على جائزة نوبل في الاقتصاد عام 1974 م مناصفة مع منافسه الأيديولوجي. جونار ميردال لعملهما في مجال نظرية المال والدورة الاقتصادية ومجالات أخرى. قلد وسام الحرية الرئاسي عام 1991 م. يعد أحد أهم الشخصيات وراء التحول من السياسات الكينزية (Keynesian) والتدخلية (interventionist) والتي كانت منتشرة في مطلع القرن العشرين. نحو سياسات تعتبر السوق الحر هو المرجع وتنبذ فكرة تدخل الدولة فيه بسياسات نيوليبرالية.

إذا تركت الفرد وشأنه في سوق العمل كما هي الحال في سوق الأوراق المالية، فسوف ينمو الاقتصاد. سيعمل الرجل الاقتصادي، ويبدأ في إنشاء الشركات، ويقوم بأعمال تجارية ويحقق أقصى أرباح. إنها طبيعته، فدعه وشأنه ولا تزعجه، ولا تعرقل جهوده. ولا شيء يدمر السوق سوى برامج التضامن الاجتماعي الكبرى فقط. والشعور بالأمان يهدئ من روع الناس. فلماذا يعمل الناس إذًا؟

إن الرجل الاقتصادي يفعل دائمًا ما هو أكثر عقلانية، وإذا حصل على أموال من الدولة لكونه عاطلًا عن العمل أو مريضًا، سيظل عاطلًا عن العمل أو مريضًا، طالما أنه ينتفع من ذلك الوضع.

إن موارد العالم محدودة، وهذا يؤدي إلى الانضباط لأن الناس يضطرون للتنافس مع بعضهم من أجل البقاء. لذا تعد حلول السوق والفوارق والفجوات الواسعة في المجتمع هي وسيلة للحفاظ على النظام وضبطه. إذا حصل الناس على ما يحتاجون إليه دون إجبارهم على التنافس عليه، فلن يكون لديهم سبب يدعوهم للانضباط.

ومن ثم فإن منح الناس الأشياء حسب الحاجة وليس حسب الجدارة هو أمر لا أخلاقي. إنه محفز يمنح للناس للحط من شأنهم مما يضر بهم. نحن جميعًا عقلانيون، وإذا بنينا نظامًا تعني فيه العقلانية أن نكون كسالى، فهذا هو نوع المجتمع الذي

سنحصل عليه.

وسوف تفرز هذه الرؤية دومًا الفائز والخاسر. والأكثر انضباطًا في المجتمع هو الفائز، وبالتالي هو جدير بفوزه. وكسب المال دليل على أنك شخص ناجح. لهذا، سيكون من المنطقي تخفيض الضرائب على أصحاب الدخل المرتفع.

ويصبح الفشل في ذلك، بدوره، دليلًا على عدم الانضباط. ولذا فمن الصواب أن يخدم الأشخاص الأقل انضباطًا الأكثر انضباطًا، ومن ثم يحصلون على الكثير من الوظائف في قطاع الخدمات الضخم المتنامي الذي يدفع لهم أجورًا. دع كل فرد يسعى حسب قدراته الخاصة ودعوا السوق الحر يلهمنا ويعلمنا الانضباط كي نجتهد ونزدهر.

وفي هذا الإطار كان خطاب مارجريت تاتشر ورونالد ريجان البليغ يتعلق بتقديم علاجات للاقتصادات العليلة والمتعثرة باستخدام مبادئ بسيطة، غير أن أيًّا منهما لم ينجح في جعل دولتيهما تحرز رخاءً اقتصاديًّا بالطريقة التي وعدا بها خلال حقبة الثمانينيات. وبعد الكساد الذي ساد في بداية هذا العقد، بدأ الاقتصاد الأمريكي والبريطاني في النمو (وهو ما يحدث عادة عندما يحدث تحول في الاقتصاد) حيث تم اتخاذ تدابير لمكافحة التضخم وخفض أسعار الفائدة إلا أن معدل البطالة ظل مرتفعًا للغاية. وعلى مدار هذه الفترة، شهدت كل من بريطانيا العظمى

والولايات المتحدة الأمريكية فجوات أخذت تتسع وطاقة إنتاجية أخذت تتزايد ببطء شديد. وتراجع التضخم حتى وصل لرقمين مع انتهاء فترة حكم مارجريت تاتشر.

ولعل الأفكار النيوليبرالية هيمنت على النقاش الذي دار خلال حقبة الثمانينيات، لكن اقتصاديات ألمانيا الغربية واليابان كانت قصص نجاح هذه الحقبة. فقد حثت البلدان البنوك المركزية لاتخاذ تدابير لمكافحة التضخم لكن لم تستسغ أي منهما حزمة الإصلاحات النيوليبرالية.

وكانت الأجور بألمانيا الغربية مرتفعة والنقابات قوية كما تميز الاقتصاد الياباني باستثمارات حكومية ضخمة. ومع ذلك، فقد أغرت النيوليبرالية الجميع وتجاوزت بكثير مجرد كونها برنامجًا اقتصاديًّا فقط.

*

ظهرت النظريات الاقتصادية للنيوليبرالية في المشهد ووعدت بذبح الركود التضخمي[107]، ذاك الوحش ذو الرأسين الذي ظهر

107- يعني أن الناتج المحلي الإجمالي إما ينمو بمعدل شديد البطء أو أنه يتقلص. والنتيجة الطبيعية لهذا الوضع هي ارتفاع البطالة على خلفية قيام الشركات بالاستغناء عن جزء من موظفيها في سعيها إلى خفض نفقاتها. وهو ما يقلل بدوره من القوة الشرائية للمستهلكين لتتراجع بالتبعية معدلات الإنفاق وهو ما ينتج عنه تباطؤ النمو الاقتصادي بمعدلات أكبر. أي إن الإجراءات التي تتخذ لمواجهة التباطؤ الاقتصادي هي ذاتها التي تعمق من الأزمة.

في الاقتصاد العالمي في نهاية حقبة السبعينيات متمثلًا في: ارتفاع معدل التضخم والبطالة، وقد حدث الاثنان دفعة واحدة برغم أن ذلك من المفترض أن يكون مستحيلًا.

كان الاقتصاديون متأثرين بجون مايناردكينز الذي كان مقتنعًا بأنه في حال انخفاض البطالة، سوفَ يرتفع التضخم، العكس صحيح. عندما يحصل جميع العمال تقريبًا على وظائف، سوف يكونون قادرين على المساومة لزيادة أجورهم ومن ثم سوف ترتفع الأسعار أيضًا. وفي حال ارتفاع معدلات البطالة، ينبغي أن يحدث العكس، إما هذا أو ذاك وليس الاثنين معًا. وكشف الركود التضخمي أن الأمر لم يكن بهذه البساطة، وعندما يتم التشكيك في الافتراضات القديمة، يمكن أن تظهر افتراضات جديدة لم يتم تجريبها ولكن لا يمكن لأحد أن يخمن أي نظريات جديدة ستظهر ولم يجربها أحد.

فقد كتب المؤلف الأمريكي جورج جيلدر[108]: «لمساعدة الطبقات الفقيرة والمتوسطة، لا بد من تخفيض معدلات الضرائب التي يدفعها الأغنياء». وقد نشر كتابه «الثروة والفقر "Wealth and poverty في عام 1981 الذي باع أكثر من مليون نسخة،

108- George Gilder كاتب أمريكي، يشتهر بمتابعته الدائمة للتقنيات الحديثة قبل ذيوعها. ذاع كتابه. مايكروكوزم (1989) عن صناعة المعالجات الدقيقة وقادتها، وتليكوزم (2000) عن صناعة الاتصالات الحديثة وقادتها، الحياة بعد التلفزيون (1990). والحياة بعد جوجل (2018). لذلك فكتاباته تؤثر بشكل مباشر على صياغة السياسات المتعلقة بالتكنولوجيا بغض النظر عن الحزب الحاكم في الولايات المتحدة.

ومرر رونالد ريجان الكتاب بحماس لأصدقائه ومستشاريه. فالكتاب يطرح نظرية أخلاقية للرأسمالية المعصومة من الخطأ، ولا يمكن مقاومة أفكار جيلدر: كلما أصبح الأثرياء أكثر ثراء، خدم ذلك الاقتصاد ككل.

كما أكد جيلدر أن خفض الضرائب التي يدفعها الأغنياء هو أفضل ما يمكننا عمله من أجل الفقراء؛ إذا حصل الأغنياء على المزيد من النقود في محافظهم، فسوف يشرعون في إنشاء شركات ويستثمرون في تقنيات جديدة وبالتالي يسهمون في تسارع النمو.

سوف يكون هناك مزيد من الوظائف، وسيبدأ من كانوا عاطلين عن العمل في السابق في العمل لدي الشركات التي أنشأها الأغنياء وسوف يتقاضون رواتب ويدفعون ضريبة على هذه الرواتب، ومن ثم تزيد إيرادات الدولة.

وبالتالي، تستعيد الدولة الأموال التي خسرتها عندما خفضت الضرائب التي يدفعها الأغنياء. ولم يعد «واحد ناقص واحد» يساوي صفرًا. إن مفعول النظرية كان كالسحر ولا يصدق حتى إن جورج بوش الأب أطلق على هذه النظريات «اقتصاديات لعبة

الفودو voodoo-ekonomi»[109]. وقد كانوا كذلك بالطبع.

وفي عام 1974، قابل كل من عالم الاقتصاد آرثر لافر[110]، والكاتبة في جريدة وول ستريت جود وانيسكي، نائب الرئيس الأمريكي المرشح ديك تشيني في قاعة بأحد الفنادق بواشنطن العاصمة. ويقال إن تشيني واجه في البداية صعوبة في فهم النظرية التي ناقشها الاقتصادي والكاتبة، فقام آرثر لافر بسحب منديل ورقي ورسم عليه منحنى.

كانت فرضية المنحنى بسيطة: إذا قررت الدولة أن الضريبة 0%، فإن دخل الدولة من الإيرادات الضريبية سيكون صفرًا. ومن ناحية أخرى إذا قررت الدولة أن الضرائب هي 100٪، فسيكون دخل الدولة من الإيرادات الضريبية صفرًا أيضًا. لم يعد الأمر يستحق الجهد. لذلك لن يعمل أحد ولن تحصل الدولة على أي عائدات ضريبية طالما أن لا أحد يعمل.

109- اقتصاديات الفودو هي عبارة ساخرة استخدمها جورج بوش الأب في إشارة إلى السياسات الاقتصادية للرئيس رونالد ريجان، والتي أصبحت تعرف باسم «ريجانوميكس». مذهب ديني توفيقي متأصل في غرب إفريقيا ويمارس في أجزاء من منطقة الكاريبي خاصة في هايتي وأجزاء من جنوب الولايات المتحدة. وفقًا لمعتقد سائد فإن أتباع الفودو يمكن أن يغرسوا دبابيس في دمى تمثل أعداءهم ويحرقونهم على أمل أن تصيبهم اللعنة. ويقال إنهم يستطيعون تحويل الناس إلى زومبي. «الفودو» نوع من أنواع السحر الأسود الذي يقوم أهله باستخدام الأشباح والجن لخدمتهم.

110- Arthur Laffer اقتصادي أمريكي ليبرالي، وهو أحد المنظرين الأساسيين لمدرسة اقتصاد العرض، التي ظهرت في سبعينيات القرن العشرين. اشتهر بالمنحنى الذي يحمل اسمه منحنى لافر Laffer curve، والذي يجسد نظريته في العلاقة بين الضغط الضريبي ومداخيل ميزانية الدولة، وأثرهما في تحفيز الاستثمار... أول من أطلق التسمية كان الصحفي الأمريكي جود وانيسكي، الذي كان حاضرًا، في 1978، في نقاش بين آرثر لافر ودونالد رامسفيلد.

بين هاتين النقطتين، رسم لافر منحنى[111]، يبدو أنه يصور أن الانخفاض الراديكالي في الضرائب على عكس ما يقوله المنطق، فهو يمكن أن يوفر للدولة إيرادات أعلى، لا أقل. وهنا، اتسعت عينا تشيني وقال: إذًا يمكن خفض الضرائب بشكل كبير دون خلق عجز في الموازنة العامة للدولة؟

وفي النهاية، كتبت جود وانيسكي كتابًا يحمل عنوانًا لطيفًا «هكذا يعمل العالم The Way The World Works» بالتوازي مع كتاب جورج جيلدر «الثروة والفقر» وهو الكتاب الذي روج لفكرة بين نخب العالم الغربي.

ويبدو أنه لا توجد حدود لما يمكن أن يفسره منحنى لافر البسيط. فالأمر بدا بسيطًا، ولكن في الوقت نفسه بدا أن وجودنا كله يدور حول هذا المنحى. وكتب وانيسكي، حتى الطفل في مهده بوسعه فهم نظريات لافر الأساسية عن الضرائب.

وكتب أن حتى من يحبو من الأطفال يتعلم شيئًا كثيرًا ما ينساه السياسيون والاقتصاديون، وهو أن هناك دائمًا معدلين للضرائب يعطيان نفس الدخل.

111- هو نموذج اقتصادي. تم اقتراحه من طرف مدرسة اقتصاد العرض. عبر أعمال الاقتصادي الأمريكي آرثر لافر. ينص النموذج على أن علاقة الارتباط الإيجابي بين نسب التضريب وإيرادات ميزانية الدولة. تنعكس عندما تتجاوز نسب التضريب عتبة حرجة.

ويكتشف الطفل أنه إذا رقد في مهده هادئًا، فإن والدته ستبقى في الغرفة المجاورة. وبالتالي فإن «معدل الضريبة» على الأم يكون صفرًا ومعدل «دخل» الرضيع من حيث الرعاية والاهتمام يكون صفرًا أيضًا. وعلى النقيض، إذا استمر الطفل في الصراخ ليحصل على اهتمامها، سرعان ما سيكتشف أنه حتى في هذه الحالة لن تأتي الأم لتهدئته. وبعبارة أخرى، فإن معدل الضريبة هو «100٪» و«الدخل» صفر مرة أخرى.

ووفقًا لوانيسكي، يمكن استخلاص استنتاجات مدهشة من هذه الفانتازيا حول تربية الأطفال والحياة العقلانية الداخلية للأطفال الرضع. على الرغم من خفض الضرائب بمقدار 200 مليار، فإن عجز الميزانية لن يتفاقم، وهو ما حدث بالطبع. فقد تفاقم ليصبح مئة مليار، ثم 200 مليار.

وكتب ديفيد ستوكمان[112]، مدير مكتب الإدارة والميزانية في عهد ريجان «إنه بحلول عام 1982، كنت أعرف أن ثورة ريجان كانت مستحيلة».

بعبارة أخرى، لم تنجح نظرية لافر في دحض الحقيقة الأساسية، التي تقول إن «واحد ناقص واحد» ما زال صفرًا بغض النظر عن رغبة ريجان في خفض الضرائب التي يدفعها الأغنياء.

112- David Stockman سياسي أمريكي ورجل أعمال سابق وكان ممثلاً جمهوريًا للولايات المتحدة من ولاية ميشيجان.

ورغم أن الاقتصاد ككل لم يتحسن خلال هذه السنوات إلا أنها كانت بداية لواحدة من أكبر عمليات إعادة توزيع الثروات في تاريخ العالم، فذهبت من الأكثرية إلى الأقلية.

فقد زادت حصة أغنى 0.1٪ من سكان أمريكا إلى ثلاثة أضعاف من الدخل القومي بين عامي 1978 و1999. وفي بريطانيا العظمى تضاعفت النسبة المئوية للأغنى خلال نفس الفترة: من 6.5٪ في عام 1982 إلى 13٪ في عام 2005. وفي روسيا، وبعد العلاج بالصدمة النيوليبرالية، تكونت نخبة فاحشة الثراء سرعان ما عزلت نفسها عن بقية المجتمع. وتمتلك مدينة موسكو اليوم أكبر عدد من المليارديرات من أي مدينة أخرى في العالم.

في عام 1970، كان المدير التنفيذي في الولايات المتحدة الأمريكية يكسب أكثر مما يكسبه العامل المتوسط بـ30 مرة. وفي مطلع الألفية، أخذ هذا الرقم يتضاعف من 30 إلى 500. وكان الممول الشهير ج.ب. مورجان[113]، يعتقد أن رئيس مجلس الإدارة بأي شركة أمريكية لا يحتاج إلى كسب أكثر من عشرين ضعف ما يكسبه الموظف، وبحلول عام 2007، ارتفع هذا التقدير ليبلغ 364. ورفعت المعايير الأمريكية رواتب المديرين التنفيذيين عبر العالم الغربي، فتضاعف أجر المدير التنفيذي في

113- J.P.Morgan رجل أعمال أمريكي، جامع تحف فنية، وأحد أكثر المهيمنين على المصارف في وقته. في 1892 رتب مورجان اندماج شركتي إديسون جنرال إلكتريك وطومسون هيوستن إلكتريك لتكون جنرال إلكتريك.

المملكة المتحدة ثلاث مرات بين عامي 2002 و2012. وحصلت النخبة الاقتصادية السويدية على أجر يعادل ما يحصل عليه 41 عاملًا في مجال التصنيع.

واليوم، يبلغ عدد المليارديرات في العالم أكثر بقليل من 1000 شخص، ويستحوذون على ثروة إجمالية أكبر من تلك التي لدى أكثر من 2.5 مليار من فقراء العالم. وفي الولايات المتحدة، وبين عامي 1979 و2007، كانت حصة إجمالي الدخل التي ذهبت إلى أغنى 1٪ تفوق حصة من يعيشون في القاع بنسبة 90٪.

نادرًا ما يحصل الأكثرية على الكثير.

وحقيقة انحسار أعلى مصادر للدخول ترتبط ارتباطًا جزئيًّا بالعولمة. فقد حققت جيه ك.رولينج J. K. Rowling التي كتبت روايات هاري بوتر Harry Potter، أرباحًا تفوق بكثير ما حققه تشارلز ديكنز في عصره لأن سوق الكتب اليوم أصبح عالميًّا، غير أن هذه الآلية لا تعكس بالضرورة مدى التطور الحادث في جميع القطاعات.

ووفقًا للأمم المتحدة، كانت المساواة في العالم في عام 2005 أقل مما كان عليه قبل عشر سنوات، على الرغم من التقدم الاقتصادي في العديد من المناطق. وتضاعف ثراء أغنى البلدان بمعدل مئة مرة في المتوسط بالنسبة لأفقر البلدان. وقبل مئة

عام، كان المعدل تسعة إلى واحد.

لقد تزايدت سلطة وقوة هؤلاء الذين يتمتعون بثراء فاحش أكثر من أي وقت مضى، ومن بين الأغنى في العالم لا يزال عدد النساء قليلًا للغاية. وفي خضم عصر تشغل فيه النساء مناصب عليا مهمة في الشركات على نحو متزايد، فمن اللافت للانتباه أنه لا يوجد سوى 15 مديرة شركة في قائمة فورتش جلوبال السنوية[114] التي تشمل أكبر 500 شركة في العالم. وهناك ما مجموعه 14 أنثى فقط من المليارديرات اللواتي كسبن ثرواتهن من عملهن. وبعد ذلك ظلت النساء تشكل 9% فقط من جميع المليارديرات في العالم.

وفي القطاع المالي، نجد أن العديد من الشباب الأكثر موهبة في العالم الغربي بدؤوا بالانخراط في إيجاد طرق جديدة لتداول الأوراق المالية، على الرغم من حقيقة أن حاجة المجتمع إلى الاختراعات الجديدة نادرًا ما تكون مطلوبة في هذا المجال.

وهنا يطل المال برأسه.

في عام 2008، اتجه 41 في المئة من خريجي كلية هارفارد للتجارة والأعمال، للعمل مع صناديق التحوط والبنوك وشركات

114- Fortunes årliga lista قائمة سنوية تقوم بتجميعها ونشرها مجلة فورتشن. تقوم المجلة بترتيب أعلى 500 شركة مساهمة أمريكية حسب إيراداتها بعد إجراء بعض التعديلات لاستثناء تأثير الضرائب التي تتحملها تلك الشركات.

رأس المال الاستثمارية. لقد كان رقمًا قياسيًّا. في نفس الخريف، انهار بنك ليمان براذرز وأصبحت الأزمة المالية حقيقة وكانت الخسارة 50 تريليون دولارات في 18 شهرًا، ودفع بثلاثة وخمسين مليون شخص إلى هوة الفقر.

وكي تَصبح المضاربة في الأسواق المالية جامحة لدرجة أنها تقلب الاقتصاد كله رأسًا على عقب، فلا بد أن يكون هناك أشخاص لديهم الكثير من المال لدرجة تجعلهم لا يخشون المخاطرة. عندما تصب كل الأموال عند صفوة المجتمع، يستثمر الناس ثرواتهم في الأصول التي من المرجح أنها سوف تجتذب مستثمرين كبارًا آخرين. وهذا يؤدي إلى ارتفاع أسعار بعض الأسهم أو العقارات. وهذا النوع من فقاعات المضاربة ينفجر دائمًا في وقت لاحق. وعادة ما يتزامن التفاوت الشديد بين الطبقات مع الأزمات المالية، لكن الصفوة التي تسببها تنجو بنفسها. وبعد كل أزمة يخلقها القطاع المالي تنهمر عليهم المزيد والمزيد من الأموال.

وخلال الحقبة التي سبقت أزمة الثلاثينيات، كان توزيع الدخل في الولايات المتحدة الأمريكية مطابقًا تقريبًا لما كان عليه قبل الأزمة المالية الكبرى لعام 2008. فقد حصل 1% على 24 في المئة من إجمالي إيرادات الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1928 وكذلك عام 2008. وعندما يتحرك المال صعودًا تتحرك معه القوة السياسية أيضًا.

وبوسع الأغنياء والسلطويين، بالطبع، التأثير على وضع قواعد الاقتصاد العالمي وتطبيقها بدرجة أكبر من الآخرين. وينطبق هذا أيضًا على القواعد التي تهدف إلى فرض قيود على نفسها.

وقد كتب الكاتب المسرحي الفرنسي جان أنويله[115]: إن «الله مع الجميع» ولكنه يقفَ في النهاية إلى جانب من يملكون الأموال الوفيرة والجيوش الضخمة.

أولئك الذين لديهم المزيد من السلطة، والمزيد من المال يتحملون أكثر من غيرهم مسؤولية رسم شخصية المجتمع الذي نعيش فيه.

وليست هناك طرق مختصرة.



115- Jean Anouilh مسرحي فرنسي اشتهر بإعادة قراءة وتناول وتأويل وتفسير للأساطير اليونانية (1910-1987).

الفصل الثاني عشر

وفيه نصبح جميعًا رجال أعمال

إن أعلى مبنى في العالم تملكه إمارة دبي، واحدة من الإمارات السبع التي تتكون منها دولة الإمارات العربية المتحدة والتي تتمتع بحكم ذاتي. إنها إمارة تنمو نموًّا قياسيًّا، بلا ديمقراطية، وبلا أحزاب سياسية، ولا ضريبة دخل ولا نقابات عمال.

إنها منتزه نيوليبرالي في وسط الصحراء.

وقد أطلق على مجتمع دبي اسم نادي ميلتون فريدمان الشاطئي، تيمنًا باسم الاقتصادي اليميني الشهير. وقد شهدت دبي لسنوات عديدة أعلى معدل نمو في العالم وتم إبرازها على أنها يوتوبيا الحرية. تم تحرير معظم الأشياء وانتعش الاقتصاد. وفي مرحلة ما من تشييد دبي، قدر المراقبون أن نحو 15% من جميع رافعات البناء في العالم قد تجمعت في تلك الإمارة الصغيرة. وعادة ما تكون العطلات غير الرسمية في البلاد مهرجانًا للتسوق السنوي الذي يجذب الجميع، بدءًا بعائلة بيكهام وانتهاءً بمختلف أباطرة المخدرات الأفغان.

ولكن حول تلك الإمارة ذاتها توجد معسكرات يعيش فيها عمال وافدون حيث يشغل الغرفة الواحدة من 6–12 شخصًا، وهي غالبًا معسكرات بلا مطابخ أو مراحيض.

إن هؤلاء العمال شيدوا الإمارة، لكنهم غير مرئيين لسكانها مثلهم مثل الآلاف من العاهرات الروس، والهنود، والإيرانيين،

والأرمن اللواتي تباع أجسادهن في فنادق فاخرة من قبل المافيا، فكل شيء متاح لجذب المستثمرين الأجانب. وتتمثل الحرية التي تشتهر بها دبي إلى حد كبير في حرية الرجال في شراء أجساد النساء، وشرب الخمر علنًا وهو شيء غير شائع في المنطقة.

والمهمة الوحيدة للسياسة هي مد السوق بما يحتاجه: العَمالة الرخيصة والجنس والترفيه والمنح المالية. ويشار إلى ولي عهد دبي على أنه الرئيس التنفيذي لمجموعة دبي المحدودة AB، وهو يدير الإمارة باعتبارها شركة في خدمة مجتمع الأعمال الخاص.

ولعل تلك اليوتوبيا النيوليبرالية لم تتجاوز هذا المدى.

إنه عالم فاخر ويقع بعيدًا في الرمال. وشيدوه ليكون قادرًا على إدانة عدم المساواة والتدهور البيئي الذي ينتج عنه هو نفسه.

وكتبت النسوية الأمريكية ويندي براون[116] أن الأيديولوجية النيوليبرالية لا تنظر إلى السوق باعتباره شيئًا «طبيعيًّا» حقيقةً؛ وعوضًا عن ذلك، تسعى النيوليبرالية إلى خلق واقع تزعم أنه موجود بالفعل.

من ناحية أخرى، يفترض أن الأشخاص قادرون أولًا وقبل كل شيء على المنافسة. ومن ناحية أخرى، ينبغي زيادة المحفزات للأفراد كي يتنافسوا باستمرار من خلال الوسائل السياسية: رفع

116- Wendy Brown عالمة سياسة، وأستاذة جامعية، ونسوية، وفيلسوفة.-

القيود، وتخفيض الضراب، وبيع التصفية[117].

ويفترض أن كل الناس في كل مكان مهتمون بأن يكونوا أثرياء، ومن ثم ينبغي تخفيض الضرائب حتى يصبح الثراء مفيدًا حقًا.

ويقال إن المنافسة هي الأساس الذي تقوم عليه كل العلاقات الاجتماعية، وفي الوقت نفسه ينبغي تشجيع هذه العلاقات وصنعها بالسياسة. وذلك لا يتم بشكل تلقائي، بل على العكس ينبغي أن تبنى هذه العلاقات وتصان. والنيوليبراليون لا يريدون التخلص من السياسة، إنهم لا يريدون سوى تغير السياسات فقط، وهذا ما فهمه ولي عهد دبي.

إن الرجل الاقتصادي في حاجة إلى بعض من المساعدة حتى يمضي قدمًا، وبالتالي فإن النيوليبرالية تطور المؤسسات والمحفزات والوسائل من أجل دعم مطلق لرؤية الفرد العقلاني التنافسي. والهدف من وراء ذلك هو تطوير عملية صنع القرارات الموجهة نحو السوق على جميع الأصعدة.

لا يركز الناس على تحقيق أقصى ربح ولا على المنافسة في كل جوانب حياتهم، لكن مهمة النيوليبرالية هي نشر وإضفاء الطابع المؤسسي على هذا النوع من العقلانية، وذلك من خلال

117- بيع بثمن مخفض لعروض التجارة ويتم في مواسم محددة كي يتخلص التاجر مما لديه من بضائع مخزونة أو انتهى موسمها أو قابلة للتلف.

الخصخصة والتحكم في كل شيء، بدءًا من التعليم وانتهاءً بالسياسة البيئية والتمريض والرعاية وذلك باستخدام نفس مبادئ السوق التي نستخدمها في سوق الطماطم. وبالتالي تكون هذه هي الطريقة التي سنصنع بها هذا النوع من العالم، حيث لا يجوز أن يسمح فيه إلا بنوع واحد فقط منَ المنطق. وباستخدام الوسائل السياسية، ينبغي إنشاء أسواق في أماكن لم تكن فيها أسواق من قبل ثم استخدام جميع الوسائل السياسية المتاحة للحفاظ عليها.

وحسبما ترى وندي براون فإن النيوالليبرالية لا تشبه مبدأ تحرير السوق على الإطلاق، إنما هي المدرسة الاقتصادية التي تعتقد أنه إذا تركنا الأمور تسير على عواهنها فسوف يزدهر الاقتصاد.

إن الاقتصاد الحر هو التجسيد الأكثر تطرفًا للفكرة التي عبر عنها آدم سميث في عبارة «اليد الخفية». لم يدافع سميث نفسه عن هذا النوع من السياسة –ولا عن أي سياسة على الإطلاق– ولكن ثمة من يفسر أفكاره بهذه الطريقة.

ومع ذلك، كما تقول وندي براون، لا ينبغي الخلط بين هؤلاء والنيوليبراليين.

فالنيوليبرالية لا تريد التخلي عن السياسة، وإنما تريد جعل السياسة في خدمة السوق.

والنيوليبراليون لا يعتقدون أنه ينبغي ترك الاقتصاد وشأنه، بل على العكس، ينبغي توجيه الاقتصاد ودعمه وحمايته من خلال نشر الأعراف الاجتماعية التي تساعد على المنافسة والسلوك العقلاني.

إن النظرية الاقتصادية النيوليبرالية ليست مبنية على رفع يد السياسة عن السوق، ولكنها مبنية على إبقاء يد السياسة مشغولة بتلبية احتياجات السوق.

ليس صحيحًا أن النيوليبرالية لا تريد اتباع سياسات تتعلق بالنقد أو المال أو الهجرة أو العائلة أو الجريمة. بل إنها تريد استخدام السياسات التي تتعلق بالنقد أو المال أو الهجرة أو العائلة أو الجريمة في شراء ما يحتاجه السوق.

وفرق الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو بين الليبرالية والنيوليبرالية وفقًا لنظرة الأيديولوجيات إلى النشاط الاقتصادي. وركزت الليبرالية الكلاسيكية على المقايضة؛ كتب آدم سميث عن كيفية قيام البشر بعمليتي الشراء والمقايضة. وكان منطق إعطاء شيء ما مقابل استرداده هو البنية الأساسية وحجر الزاوية لمجتمعاتنا. ماذا قدمت وماذا أخذت في المقابل؟ هل كانت عملية المقايضة عادلة؟ هل تمت بشكل صحيح؟

والحياة هي حصيلة عدد من المقايضات والمفاوضات والعقود

إضافة إلى النتائج التي تستتبع تلك العمليات. وأخذت الليبرالية بمنطق السوق في المقايضة وقررت رؤية العالم من خلالها، واعتبرت السياسة سلسلة من التعاقدات، فالمواطنون يقايضون الدولة ببعض الحريات في مقابل أن تضمن لهم الدولة الأمن والأمان. ماذا قدمت وماذا أخذت في المقابل؟ هل كانت عملية المقايضة عادلة؟ هل تمت بشكل صحيح؟

حتى العلاقات الأخرى تم تفسيرها باستخدام هذا المنطق.

ومن ناحية أخري فإن النيوليبرالية لا تركز على المقايضة بل تركز بدلًا من ذلك على المنافسة. المنافسة هي الفكرة الأساسية التي يتم تفسير العالم من خلالها.

إذا لم يتنافس الناس، فلن يعملوا. ووفقًا لفوكو فإن هناك أكثر من فكرة محددة حول دور الدولة أو السياسة النقدية التي هي أساس الأيديولوجية النيوليبرالية. وبينما رأى الليبراليون وآدم سميث المقايضة على أنها شيء طبيعي، يرى الليبراليون الجدد أن المنافسة علاقة ينبغي بناؤها.

لا بد من تشجيع الحاسة التنافسية الطبيعية وبثها داخلنا باستخدام الأدوات السياسية.

إن المنافسة هي الجزء الأساسي من المجتمع، لكنها في الوقت نفسه علاقة مصطنعة بشكل أو آخر. لا بد أن تكون محمية

جزئيًّا من نزعة السوق لخلق احتكارات، ومحمية جزئيًّا كذلك من حماقات السياسيين. وهذا يتطلب تدخلًا مستمرًّا من قبل الدولة، ليس في السوق ذاته، ولكن في ظروف السوق، أي في البشر لأنهم المتطلب الأساسي لوجود السوق.

وقالت مارجريت تاتشَر: «الاقتصاد هو الوسيلة؛ والهدف هو تغيير القلب والروح».

وتميز الليبرالية الكلاسيكية بين الإنسان كمواطن، والإنسان كموضوع اقتصادي، إلا أن الأمر ليس كذلك في النيوليبرالية. هناك علاقة واحدة فقط، وهي اقتصادية. وبعبارة أخرى، لا يوجد سبب لتمييز المواطن عن العامل عن المستهلك، إنهم نفس الشخص: هذا هو الرجل الاقتصادي، تشرفت بمقابلتك.

وتعتبر النيوليبرالية فهمًا جديدًا لما يعنيه أن تكون إنسانًا أكثر من كونها برنامجًا سياسيًّا.

وبالنسبة لكارل ماركس، كان تطور رأس المال عملية تحولت عبرها معرفة العمال ومهارتهم وإنسانيتهم تدريجيًّا إلى آلة. ففي كل صباح، يذهب العامل إلى مصنع لا يملكه كي يصنع منتجًا ليس له أي رأي فيمن سيشتريه حتى يتمكن مالك المصنع من كسب المزيد من الأموال.

إن العامل يصنع منتجًا لشخص باستخدام قوته الجسدية.

ولأنه -كان دائمًا رجلًا- تم تحويله شيئًا فشيئًا إلى ترس في آلة لا يملكها، شيء قابل للتبديل وأقل إنسانية. وهو، أي العامل، ليس لديه ما يخسره.

ويروي كارل ماركس قصة بها ثلاثة أدوار: عامل يمثل قوة العمل، وآلة ينحني عليها العامل تمثل رأس المال الثابت ومال يدره عمل العامل يمثل رأس المال المتغير. ويمثل الصراع بين قوة العمل ورأس المال الحبكة التي تدور حولها كل شيء والتي تدفع التاريخ (حرفيًّا) إلى الأمام. تلك هي الأدوار الكلاسيكية في علم الاقتصاد سواء أردت أن تسمع معهم قصصًا ماركسية أو قصصًا أخرى أم لا.

وفي نهاية حقبة الخمسينيات، قال الاقتصاديون الأمريكيون إنهم اكتشفوا شيئًا جديدًا غير أنه كان في الواقع شيئًا توصل إليه الاقتصاديون منذ زمن طويل غير أنهم نسوه.

في كتابه «ثروة الأمم»، يذكر آدم سميث مفهومًا أسماه: «رأس المال البشري Human capital». ووفقًا لسميث، يمكن اعتبار تعليم الناس ومهاراتهم ومواهبهم وقدراتهم شكلًا من أشكال رأس المال. فإذا كنت مالكًا لمصنع مثلًا وتستثمر في قدرات العاملين لديك وفي معرفتهم، فقد يكون مردود ذلك هو نفس مردود الاستثمار في آلة جديدة.

فعندما ترسل موظفيك إلى دورة دراسة لتعلم تقنية جديدة، فأنت تعلم أنهم قادرون على إنتاج ضعف هذا المبلغ ورده لك. إن هذا استثمار. ومن المسلم به أن الدورة تكلف مالًا وتكلف أيضًا تقليلًا للإنتاج لفترة ما بعد الظهر بأكملها، لكنك ستسترد كل ذلك في النهاية وستحقق ربحًا.

بعبارة أخرى، يمكن اعتبار قدرات الناس شكلًا من أشكال رأس المال. من الممكن أن تستثمر استثمارات ناجحة بشكل متفاوت. وعثر الاقتصاديون في مدرسة شيكاغو على مصطلح «رأس المال البشري» عند سميث وأدرجوه في نظرياتهم. فكيف غير هذا المصطلح اقتصاد سوق العمل الحديث؟ أما إذا كان ذلك جيدًا أو سيئًا فهذه قضية أخرى. ما كان يقصده فوكو هو أن استخدام مصطلح «رأس المال البشري» على نطاق واسع، كما فعل النيوليبراليون، أحدث تغيرًا ما في النظرة الإنسانية لعلم الاقتصاد.

وهذا «الشيء» يكتسب أهمية تتعدى بكثير أهمية العلوم الاقتصادية.

قال الخبير الاقتصادي في مدرسة شيكاغو، جاري بيكر، في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة تسلمه جائزة نوبل عام 1992: «قد يبدو الأمر غريبًا لكنني ترددت قليلًا قبل أن أقرر تسمية كتابي: «رأس المال البشري»». واليوم يعتبر هذا الكتاب مرجعًا معياريًا.

وانتقد كثيرون هذا المصطلح وما طرحه من تحليلات جوهرية لأنهم يعتقدون أنه تعامل مع الناس وكأنهم عبيد أو آلات. أوه، كم تغيرت الأحوال!

بالفعل تغيرت. فمن خلال مصطلح «رأس المال البشري»، تحول الإنسان ذاته إلى رجل أعمال. واليوم نعتبر هذا المصطلح من المسلمات.

إذا تعلمت، فإنك تستثمر في ذاتك، وبالتالي يمكنك أن تتوقع عائدًا أكبر في المستقبل. إذا اخترت أن تهاجر إلى بلد آخر، فأنت تستثمر أيضًا في رأس مال بشري. هذه هي الحسبة العقلانية للعوائد المستقبلية. إذا تركت المدرسة فأنت لا تستثمر في ذاتك. وبالتالي، ستقل عوائدك، والراتب الذي تتقاضاه لم يعد راتبًا، بل عائد من عوائد رأس المال. وتصبح حياتك هي عملك التجاري الصغير ورأس المال في هذه الحالة هو أنت نفسك.

*

وما يعنيه فوكو أنه وفقًا لمصطلح «رأس المال البشري»، لم يعد الرجل الاقتصادي شخصًا يشتري ويبيع في السوق. وبدلًا من ذلك، أصبح رجل أعمال في ذاته، وأصبح الإنسان، كما قال النقاد، آلة.

لا توجد طبقة عمال في التاريخ النيوليبرالي. ليس هناك سوى بشر يستثمرون في أنفسهم باعتبارهم رأس مال بشري، أي رجال

الأعمال تتحول حياتهم إلى مشاريع تجارية ويتحملون المسؤولية الكاملة عن النتائج المترتبة على ذلك. إذا نجحت، فقد استثمر ت بشكل صحيح، وإذا فشلت، فقد استثمرت بشكل خاطئ.

وهكذا، أصبح الاقتصاد أكثر من مجرد شكل من أشكال المنطق بل أصبح طريقة حياة، يدور الإنسان في مداره، ووفقًا له يتخذ قراراته، أو يعيش حياته، أو يثقف نفسه أو يهمل تعليم نفسه وتتراكم توابع ذلك في رأس ماله البشري.

لم يعد الرجل الاقتصادي شخصًا يتاجر مع الآخرين ويقايضهم، كما تصور آدم سميث بل هو آلة تستثمر في نفسها. إذا سرقت بنكًا، إذا تركت كلية الطب، إذا قمت بتبييض أسنانك، كل شيء هو خيارك الحر، مثله مثل أي قرار تجاري آخر، يعتمد على حساب الأرباح والخسائر المستقبلية. والاستثمارات الناجحة في ذاتك تتفاوت. وهكذا يصبح النظام الاقتصادي مرادفًا للطبيعة البشرية، ولا يمكنك أن تتساءل عن ماهية كيانك الأعمق.

لقد تم حل الصراع الذي تحدث عنه ماركس، ولكن ليس بالطريقة التي تصورها. فلم تتغير وسائل الإنتاج الإنتاج، بل معنى أن تكون إنسانًا هو الذي تغير.

وقامت النيوليبرالية بحل الصراع بين قوة العمل ورأس المال ببساطة، وذلك عن طريق تحويل الإنسان إلى رأس مال، وتحويل حياته إلى سلسلة من الاستثمارات تتم حسب قيمتها السوقية.

وقد ادعى اللاهوتيون المسيحيون أنه يمكن للمرء أن يطعم شعبًا بأكمله رغيف خبز وسمكة. ونحن نعتقد أنه قادر على إطعام نفسه فقط. نحِن نؤمن بك. وقد يكون عالمًا قاسيًا، لكنه يتنفس من أجلك. لا يوجد بديل. والكون يركع.

إنه نهج نتساوى جَميعًا بموجبه. المرأة تنتظر في وكالة التوظيف والرجل ينتظر وثائقه المزيفة خارج مطار دكا. وكل منهما أيضًا رجل أعمال بنفس القدر. تمامًا مثل المدير التنفيذي الذي يمدد ساقيه في مقعده بالطائرة، ليحصل على بضع ساعات من النوم قبل اجتماعه التالي الذي سيستغرق ثماني ساعات على الجانب الآخر من الطائرة في درجة رجال الأعمال. لا فرق بينهما، الفارق هو أنهم مجرد استثمارات أفضل أو أسوأ لرأس المال الذي هو شخصك، وكذلك حجم متغير من رأس المال الذي ولدت به، ولكن يمكنك، في واقع الأمر، أن تجعله ينمو؛ فها هي نجمة المسلسل التليفزيوني الشهير تقول بسعادة إن تكبير حجم ثدييها كان استثمارًا. سوف تجد الاقتصاد هناك على طول الطريق الذي تقطعه، وستجد حياتك قد تحولت إلى سلسلة من الاستثمارات التي تقوم بها حسب قيمتك الخاصة كشخص.

إذا أخذت هذا النهج على محمل الجد –وليس هناك نهج يؤخذ على محمل الجد– تكون قد غيرت جوهريًا معنى أن تكون إنسانًا.

الفصل الثالث عشر

وفيه نرى أن الرحم ليس كبسولة فضائية

في عام 1965، قام المصور السويدي لينارت نيلسون بنشر الصور الفوتوغرافية التي التقطها للأجنة لأول مرة، ونشرها أولًا في مجلة لايف LIFE ثم في كتابه «جنين يتكون Ett barn blir till».

وكان نيلسون يجرب المجاهر الإلكترونية منذ عام 1953، واستغرق عمله في هذا الكتاب ما يقرب من اثني عشر عامًا. وأذهلت مجلة لايف العالم بأسره عندما نشرت الصور في طبعتها التي صدرت في 30 أبريل 1965 وباع ثمانية ملايين نسخة في أول أربع أيام فقط.

فها هو الجنين يطفو برأس كبير وأذرع تشبه الزعانف ويتحرك بحرية داخل بالون من الماء. وبهذه الطريقة رأينا البداية الأولى لوجودنا، الجنين معلق كأنه رائد فضاء، لا يربطه بالعالم من حوله سوى حبل سري. الأم غير موجودة، إنه فضاء خاو، وبطل الفضاء الصغير يطفو فيه إلى الأمام، والرحم مجرد فراغ.

لا يمكن لأحد أن يفصل نفسه عن المكان الذي كان فيه نشوؤه. وصحيح أنه يقال إن عدسة الكاميرا عدسة موضوعية إلا أن صور لينارت نيلسون هي مجرد وصف، وليس تمثيلًا دقيقًا للعالم. فما نراه في التكبير الشديد لصور مقصوصة من ورق مقوى ليس هو الحقيقة.

فالوجود في الرحم ليس حرًّا ولا مقفرًا. فهناك بضعة أشياء قليلة يمكن أن تكون أبعد ما يكون عن الحقيقة. إن الجنين ينمو من الأم، وفي الأم وطوال الوقت على اتصال دائم بالأم. وأنت تشعرين به: يخفق، ينبض. ومن حيث المبدأ لا يمكن تحديد أين تنتهي الأم وأين يبدأ الجنين، فلا فواصل بينهما.

وفي صور لينارت نيلسون، نجد أن هذه العلاقة الاعتمادية غير مرئية. فالجنين هناك وحده، والأم غير موجودة. والصور لا تجسد أي علاقة بين الأم والجنين؛ لقد ولدنا أفرادًا كاملين ومستقلين.

وهكذا ظلت صورة الحياة، كما صورها لينارت نيلسون، في مخيلتنا الجمعية وبقيت فيها.

ولا بد أننا قد وجدناها جذابة للغاية، والسؤال: لماذا؟

لقد تعلمنا أن مجتمعاتنا مبنية على العقلانية والعقود بينما اقتصاداتنا مبنية على الأسواق الحرة لأن المنتجين والمستهلكين وأصحاب العمل والعمال -الجميع- يحملون نفس العقلانية لكن في صور مختلفة. وهناك تعبيرات مختلفة عن نفس العقلانية. والعالم، محصلة مجردة لخيارات الفرد الحرة.

وفي الواقع، يتشكل المجتمع من خلال الحروب، الاستغلال، العنصرية، والنزعة الأبوية. ويفرض الواقع الاقتصادي منطق «البقاء للأصلح»، فيزداد غنى الأغنياء وتركض البقية وراءهم.

وعلى مستوى ما، نحن نعرف ذلك، إلا أننا ما زلنا نركض وراء الخيال.

منذ أن كتب الفيلسوف افلاطون كتابه «الدولة» قبل 2000 عام، تم حشو عقولنا بأن المجتمع نشأ لأن الناس اتخذوا قرارًا منطقيًّا بأنْ يتحدوا. وبعد أن توصلنا إلى استنتاج مفاده أننا جميعًا سنفوز الواحد تلو الآخر، بدأنا مع الوقت نعتمد بعضنا على بعض.

وأسطورة الخلق هذه تم سردها بصور مختلفة ولا حصر لها وهي، مثل معظم الأساطير الأخرى، خدعة عقلية. وبالطبع من الصعب جدًّا أن نتخيل أن هذا حدث حقًّا وعلى هذا النحو: فنحن جلسنا القرفصاء في كهوفنا حيث الظلام والبرد. وهناك آخرون يجلسون القرفصاء في الكهوف الأخرى، من المستحيل أن يستدلوا أو يحددوا من هو الصديق أو العدو أو البشر أو حيوان الماموث[118]. وفجأة يقف أحدهم ويصرخ:

- مهلًا، أنصتوا! لماذا لا نتكاتف ونساعد بعضنا بعضًا، فنحن المجتمع؟ يمكننا تبادل الأشياء مع بعضنا، والكل سيستفيد!

لا أظن.

وهذا ما تتصوره مخيلتنا عن الاكتفاء الذاتي. إنه خيال مغرٍ.

118- فيل ضخم منقرض كان يعيش في أوروبا الوسطى قبل مليون سنة.

وكانت صور لينارت نيلسون الشهيرة هي رواية أخرى لنفس الموضوع. فعلى غلاف مجلة لايف، يطفو كائن صغير بمفرده في كبسولة شفافة. إنه يحيا في الرحم غير أنه مستقل تمامًا عن الرحم. الجنين كائن حر، وجسد المرأة غير موجود. الأم هي الفضاء الذي يستأجره الجنين وتدخله الحيوانات المنوية، فيتشكل الجنين. والحمل هو امرأة تجلس على كرسي هزاز بجوار نافذة لمدة تسعة أشهر. هذه هي أمك. لقد كانت مساحة تخزين سلبية، وكنت أنت بداخلها، لكنك كنت مستقلًّا منذ البداية. أنت سيد مساحة الفضاء الفارغ التي كنت تطفو فيها.

يقوم الجنين في صور لينارت نيلسون بمص إبهامه وهو يحدق في الفراغ بعيون مغلقة. والفراغ من حوله أسود والمشيمة تطفو بحرية في فراغ يشبه محطة فضائية قائمة بذاتها. هذه أسطورة خلق أفراد أحرار مناسبين لعصرهم.

وعندما نشرت الصور عام 1965 كان ليندون بي. جونسون قد أعيد انتخابه رئيسًا بعد اغتيال جون كينيدي بعام كما عززت الولايات المتحدة تواجدها في فيتنام.

في وطن لينارت نيلسون افتتحت أيكيا [119] متجرها الثاني،

119- IKEA شركة عالمية متخصصة في صناعة الأثاث. وتنتج وتبيع الأثاث المنزلي الجاهز. الإكسسوارات، تجهيزات المطابخ ودورات المياه في محلاتها للتجزئة المنتشرة في العالم. وهي أكبر شركة منتجة للأثاث في العالم. أسس أيكيا إينجفار كامبراد في عام 1943 في السويد ويمتلكها الآن ويديرها بالمشاركة مع مجموعة هولندية.

وعزفت فرقة الروك رولينج ستونز Rolling Stones في قاعة التنس الملكية. والحقيقة أن معظم صور لينارت نيلسون كانت أجنة ميتة، مما منحه فرصة لتجربة الضوء والخلفية والوضعية. لقد كانت صورًا مذهلة غير أن ما تم التقاط صور له كي يجسد الحياة كان في الواقع ميتًا.

*

لقد عرفنا منذ أكثر من ثلاثين عامًا أن الافتراضات التي نسجتها النماذج الاقتصادية المعيارية حول الناس غير صحيحة. فالرجل الاقتصادي ليس موجودًا، على الأقل ليس في الواقع غير أننا ما زلنا نتشبث به. وبغض النظر عن الانتقادات الكثيرة التي وجهت إلى الرجل الاقتصادي إلا أنه لا يزال مرادفًا لعلم لاقتصاد، وما زلنا نسمح له بالاستحواذ على مساحة أكبر في حياتنا.

ولا يبدو أن ما تقوله البحوث في هذا الصدد مهم، ولا يبدو مهمًا كم مرة تسببت النماذج الاقتصادية التي نبنيها في انهيار الاقتصاد العالمي، كما لا يبدو مهمًّا كيف فشلوا مرارًا وتكرارًا في التنبؤ بتقلبات السوق ونوبات الذعر والفوضى التي تجتاحه. ومع ذلك فنحن لا نفلته ولا نفلت منه. نحن نقوم بتجميع أجزاء عالم خيالي، وندمجها معًا في نماذج نعتبرها صورة دقيقة بما يكفي للعالم.

وبدا أن الافتراضات حول رجل الاقتصاد تثبت المرة تلو الأخرى أنها ليست صحيحة ولا يمكن الدفاع عنها. ولكن على الرغم من أن كانيمان وتفرسكي استطاعا إظهار أن قراراتنا لم تكن موضوعية ولا عقلانية على الإطلاق منذ ثلاثين عامًا، فإن ذلك لا يغير جوهر الأمر كثيرًا.

ورغم أننا نعرف أن الرجل الاقتصادي ليس موجودًا بالفعل إلا أن ذلك لا يمنعنا من جعله محورًا للعلوم الاقتصادية، ولا من تطبيق المنطق الخاص به على مساحات أكبر من حياتنا. وفي عام 2004، أعلنت الظاهرة الدولية «الاقتصاد العجيب[120]» أن كل جزء من وجودنا يتوافق ويتسق مع مبادئ السوق. وفي أواخر السبعينيات اعتقد الفيلسوف الفرنسي اليساري ميشيل فوكو أن حتى أشرس النيوليبراليين لن يذهبوا بنظرياتهم إلى هذا المدى.

ومع ذلك، أصبحت العناوين التي على أغلفة كتبهم هي الأكثر مبيعًا.

ولطالما كان هناك اقتصاديون انتقدوا الرجل الاقتصادي علانية وبشكل شامل، ومع ذلك نجده ما زال مرادفًا للاقتصاد. فنحن نشير إليه في خطابنا اليومي عن «المنطق الاقتصادي»، ويتم التعامل مع آراء المدارس النقدية المعارضة له، في أفضل الحالات،

120- Freakonomics اقتصادي مارق يبحث في الجانب الخفي من كل شيء.

على أنها آراء تكميلية لا أكثر ولا أقل. إن الرجل الاقتصادي هو من يهيمن على المركز وينبغي على الجميع أن يتواصلوا معه.

لقد بذل الاقتصاد السلوكي، وهو المدرسة التي كان لها التأثير الأكبر في السنوات الأخيرة، جهودًا هائلة لإظهار أن الناس لا يهتمون دائمًا بمنافعهم الخاصة، وأن العدالة مهمة وأن التفضيلات يمكن أن تتغير بمرور الوقت.

كما أظهر الاقتصاد السلوكي أن الناس لا يتعاملون دائمًا مع المعلومات بشكل صحيح وأننا لا نتخذ دائمًا قرارات تتماشى مع تفضيلاتنا. كل هذا مهم للغاية وخطوة كبيرة إلى الأمام مقارنة بالنظرية التي يقوم عليها الرجل الاقتصادي. في الوقت نفسه، لا يزال الرجل الاقتصادي نقطة الانطلاق للاقتصاد السلوكي. ومن خلال التجارب والدراسات، يحاول الاقتصاديون السلوكيون توثيق استثناءات لهذا المذهب، لكن الفرد المعزول ما زال مثاليًّا كما يعد مقدمة منطقية أيضًا.

يعتقد الاقتصاد السلوكي أنه نظرًا لأن الناس يجدون صعوبة في التصرف بعقلانية، لذا فنحن بحاجة إلى المساعدة دومًا. ونحن بحاجة للدعم، ويجب أن ندفع في الاتجاه الصحيح. نحن ببساطة لسنا عملاء اقتصاديين مثاليين. لذا فإن دور الدولة يتمثل في خلق هيكل محفزات أفضل، وبمساعدتها، نقبل على العمل بشكل أصح وأكثر تماشيًا مع تفضيلاتنا.

من الناحية السياسية، غالبًا ما يؤدي هذا إلى اتخاذ تدابير تركز على جعل الناس يستخدمون، على سبيل المثال، قدرًا أقل من الكهرباء من خلال تزويدهم بمعلومات أفضل، مما يسهل عليهم اتخاذ قرارات عقلانية، وليس عن طريق رفع ضريبة الكربون[121] أو من خلال استثمار الدولة في التكنولوجيا الخضراء والمدن الموفرة للطاقة. وبالمثل، يجب مكافحة السمنة بتسهيل العثور على معلومات حول كميات السكر التي تحتوي عليها المنتجات المختلفة، وليس بوضع أيدينا على مشكلات صناعة المواد الغذائية والبقالة.

وبالطبع، ليس خطأ الاقتصاديين السلوكيين أن تحليلاتهم غالبًا ما تستخدم كاختصارات من قبل السياسيين الذين يريدون تجنب اتخاذ قرارات صعبة. ومن المؤكد أن النظريات هي خطوة في الاتجاه الصحيح، إلا أنهم لا يرون حقيقة أن الاقتصاد لا يزال علمًا مختارًا، وليس علمًا حول كيفية البقاء على المجتمع، وكيفية إدارته وتطويره. لا توجد رؤية شاملة للمجتمع وكيفية تشكيل الناس وخلقهم من قبل الاقتصاديين السلوكيين. لا يزال الاقتصاد هو دراسة الفرد، ويؤكد أن التبعية ليست جزءًا طبيعيًّا من كونك إنسانًا، وأن علاقات القوى ليست ذات صلة اقتصاديًّا.

وبعبارة أخرى، فإن الرجل الاقتصادي يظل موجودًا.

121- ضريبة تفرض على محتوى الكربون في الوقود.

وغالبًا ما نقول «نحن جميعًا بشر» عندما نريد الإشارة إلى كوننا أكثر إنسانية. هناك شيء يوحدنا بخلاف الطبقة والجنس والعرق والعمر والخلفية والخبرة، كما لو أن الإنسانية قد خلقت خارج إطار الطبقة، والجنس، والعرق، والعمر، والخلفية، والخبرة، وليس من خلال الطبقة، والجنس، والعرق، والعمر، والخلفية، والخبرة. وبدلاً من ذلك نرى الظروف، والجسد والسياق أطرًا ينبغي محو أثرها، لأنهم يحجبون الرؤية. إذا أردنا أن نتحدث عن حقيقة الأمر، يجب أن نتخلى عن حقيقة الأمر، هكذا نعتقد، لكن أن تكون إنسانًا، فهذا يعني أن يتم اختبارك بناء على الجنس والجسد والوضع الاجتماعي والخلفيات والتجارب التي تملكها على وجه التحديد. ولا توجد وسيلة أخرى.

على الرغم من أننا نعتقد أن هذا هو بالضبط ما نحتاج لأن ننكره.

ينبغي علينا أن نجد وعيًا عقلانيًا يشمل الجميع.

فنحن نقول: «النساء أيضًا أفراد». وأصبح الفرد مرادفًا لكونه إنسانًا والفرد هو الجسيم الأولي للاقتصاد. وأصبح الاقتصاد «علم الفرد» وكلمة «فرد» تعني، على وجه التحديد، شيئًا غير قابل للتجزئة. إنه أصغر جزء من الكل والذي يمكن تقسيم الكل إليه، مثل ذرة فيزياء نيوتن. إذا فهمت الفرد، فأنت تفهم كل شيء. والفرد، من ناحية أخرى، ليس مثل الإنسان.

والسمة الرئيسة لنصف البشرية أنها قابلة للقسمة.

لا يمكن لجميع النساء أن يلدن أطفالًا، ولا تريد كل النساء إنجاب الأطفال لكن ما يميز الجسد الأنثوي عن الجسد الذكري هو أنه الوحيد الذي يمكن أن يحمل وينجب الأطفال.

ومن كان شخصًا واحدًا يمكن أن ينقسم ويصبح اثنين. وكل الناس خلقوا هكذا. نحن نولد بعضنا من بعض، ونعيش من بعضنا وفي بعضنا ومن خلال بعضنا.

نحن لا نبدأ حياتنا بشكل مستقل ومن ثم يكمن التحدي في تكوين نوع من العلاقات والروابط مع الآخرين. ولكن عندما يتعين علينا الجدال حول أهمية المجتمع، فإننا نبدأ دائمًا: بفرد مستقل، ثم نقوم بإدراج جميع الأسباب التي تجعله يستحق الاستقلالية وينشئ العلاقات كالتالي:

- سيكون من الأسهل إنتاج الطعام.
- سيكون من الأسهل أن يدافع عن نفسه ضد الحيوانات المفترسة البرية.
- سيزيد ذلك من سعادته.
- يمكنه الحصول على المساعدة عندما يكون مريضًا.
- سيعيش أطول.

هناك مزايا كثيرة في وجود أشخاص آخرين حولك! وكأننا

نملك أي خيار آخر.

والعملية في الواقع عكس ذلك. لقد ولدنا لنكون ضمن مطالب وتوقعات الآخرين. وبما أنك طفل ينبغي أن تعتمد كليًّا على الآخرين ولا نعرف أي شيء آخر سوى ذلك. لقد استسلموا تمامًا لآمالهم ومطالبهم وحبهم وعصابهم وصدماتهم وخيبات أملهم وحياتهم التي لم تتحقق. إن رعاية الطفل تعني تلبية احتياجات شخص آخر باستمرار، ومن هذه العلاقة الحميمة، ينبغي أن يصبح الطفل، تدريجيًّا، أكثر استقلالية. كما أشارت المنظرة النسوية فرجينيا هيلد[122] قائلة: إن الحالة البشرية الطبيعية ينبغي أن تغلفها التبعية للآخرين تمامًا. ويكمن التحدي في تشكيل هويتك الخاصة والعثور عليها. قم بتخصيص مساحة أكبر لنفسك، وانطلق لتجد نفسك.

يجب أن يكون أولئك الذين يعتنون بالطفل قادرين على الحفاظ على ذواتهم منفصلة، ولا ينخرطون في التزام كامل أو مغرٍ يجعلهم يستمدون قيمتهم من كونه في أمس الحاجة إليهم.

إن النجاح في تحقيق ذلك والحفاظ على صحة علاقات التبعية المتبادلة هو التحدي الذي تدور حوله حياة معظم البشر

122- Virginia Held فيلسوفة أخلاقية واجتماعية وسياسية ونسوية رائدة. وأثار عملها في أخلاقيات الرعاية بحثًا كبيرًا في الأبعاد الأخلاقية لتقديم الرعاية للآخرين وانتقادات للأدوار التقليدية للمرأة في المجتمع.

والمجتمعات. كل يوم وكل ساعة يحدث الكثير من الضرر العقلي والعاطفي الذي يميز حياتنا هنا. ولعله ليس غريبًا أننا منجذبون إلى تخيلات مفادها أن الأشياء ستكون مختلفة، وتخيلات حول الوحدة، نطفو في مساحة فارغة مع حبل سري يربطنا مع من في محيطنا.

إن عدم اتساق ذلك الرجل الاقتصادي مع الواقع شيء أدركناه من سنوات، ومما يثير الاهتمام أننا نريده بشدة أن يتسق مع الواقع.

يبدو أننا نريد أن نكون مثله، نريد استقلاليته وعقلانيته وقدرته على التنبؤ ونريد الكون الذي يسكنه. ويبدو أننا مستعدون لدفع ثمن باهظ مقابل ذلك.

ما الذي نخرج به فعليًّا من الدفاع عنه بشكل قاطع بينما الأحوال هكذا؟



الفصل الرابع عشر

وفيه نكشف عن أعماق الرجل الاقتصادي ومخاوفه غير المتوقعة

إن منظور العلاقة بين الإنسان والطبيعة تغير في الغرب في القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين. من منظور يرى أن الناس جزء لا يتجزأ من عالم غالبًا ما يكون أنثويًّا، وحيًّا، وجامحًا، إلى منظور يرى أن الناس مراقبون متحررون وموضوعيون وغزاةِ بطبيعتهم. ومن منظور يرى الطبيعة حية، دؤوبة الحركة، وعضوية (بطريقة مخيفة غالبًا)، إلى منظور يراها سلبية، ميتة ثم تصبح شيئًا فشيئًا آلية.

وتحرر الرجل من كل شيء فأصبح: فردًا مستقلًّا مهمته إخضاع العالم. وقاموا بتصميم نموذج للمرأة بحيث تكون كل واحدة نسخة من الأخرى ومن ثم ينبغي على كل واحدة: أن تقيده بكل ما لم يأخذه معه. التبعية، الطبيعة، الجسد، الحياة.

إنه عاقل وهي عاطفية. إنه مستقل، وهي تابعة. إنه إيجابي، وهي سلبية. إنه أناني وهي تضحي بنفسها. إنه قاس، وهي رقيقة. إنه يحسب وهي لا تحسب. إنه عقلاني، وهي لاعقلانية. إنه معزول منفصل وهي عالقة بكل شيء. وعندما يفكر يستخدم العلم، وتستخدم هي الخزعبلات.

وبينما يعلمنا الرجال أن هناك قضايا تستحق أن نموت من أجلها، تعلمنا النساء أن هناك قضايا تستحق أن نعيش من أجلها.

هكذا هي أدوارنا. إنها نفس الرقصة. وسيكون من الرائع لو كان هذا، مجرد رقصة!

وفي الواقع، لا يهم ما يفعله الرجال والنساء إحصائيًّا؛ فنحن نتصرف وفقًا لتوقعات بعينها بغض النظر عن الواقع. ينبغي على المرأة أن تأخذ بعين الاعتبار دائمًا ما هو متوقع من جنسها. وينطبق الشيء نفسه على الرجال، ولكن ليس بنفس الطريقة.

وعندما نتحدث عن إلغاء أدوار الجنسين، نادرًا ما نجد الصبيان يرتدون اللون الوردي أو نجد المديرين الذكور يرتدون ملابس منقوشة بالزهور لأن هذا يبدو سخيفًا، فالمديرون «ينبغي أن يتسموا بالرصانة». ومع ذلك، لا يزال من المتوقع المرأة التي تشغل مناصب عليا في مجال الأعمال أن ترتدي حلة داكنة. وإذا ظهرت في العمل في ثوب مكشكش أو تنورة ذات ثنايات، فإن زملاءها يتهامسون عليها. فينبغي عليها أن تلبس ملابس لاجنسانية: أي ذكورية. عليها أن تكيف نفسها مع هيئة موجودة مسبقًا وقوام يتمحور حول أجساد الرجال. وفي الوقت نفسه، مطلوب منها ألا تتشبه بالرجل كثيرًا. فهي لا تزال امرأة، ولكنها تقوم بعمل شيء يعد، تقليديًّا، ذكوريًّا.

وهذه معادلة صعبة للغاية.

ومن ناحية أخرى نجد أن توقعاتنا من الرجال مختلفة تمامًا.

لا أحد يطالب جيمي أوليفر[123] بالتكيف مع دور المرأة، لمجرد أن الطهي في المنزل كان مهنة أنثوية تقليدية. ويبدي التلفاز اهتمامًا بالطاهي أولفر ويشير إلى مرحلة صباه. الطاهي أوليفر لا يقطع الريحان؛ الطاهي أوليفر يضع الريحان في منشفة مطبخ، ويضع المنشفة على الطاولة ويأخذ في الضرب عليها، وينخر كالخنزير، وينتصر، ويجبر الريحان على الاستسلام، قبل أن يلقي به في الإناء.

وبالطريقة نفسها، يتفاعل مركز الرعاية النهارية الذي يريد العمل ضد أدوار الجنسين، على الفور مع أزياء الباليه الوردية للفتيات الصغيرات ويقولون: لا ينبغي أن ترتدين مثل هذه الملابس النمطية في صالة الألعاب الرياضية، ليس في دولة رفاهية اسكندنافية تقدمية.

وهنا نعتقد أن الأطفال ينبغي أن يكبروا ليكونوا أفرادًا أحرارًا ومن ثم لا ينبغي على الفتيات الركض في أزياء الباليه الوردية المكشكشة في حصة التربية الرياضية. إنه يختزلهم في دور جنساني نمطي قد لا يشعرون بالراحة على الإطلاق وهن يلعبنه.

ونجد أن مدرس روضة الأطفال لا يهتم بملابس الصبيان، فبينما

123- Jamie Oliver شيف بريطاني، وشخصية إعلامية. قد اشتهر ببرامجه التلفزيونية التي تركز على الغذاء. كما اشتهر بكتب الطبخ وبحملته ضد الأطعمة الجاهزة في المدارس الوطنية.

ينظر إلى زي الباليه الوردي على أنه صورة نمطية جنسانية، ينظر إلى ملابس الصبيان على أنها ملابس لاجنسانية.

غالبًا ما يتم استيعاب الذكورة بهذه الطريقة. إنها هوية تعتمد على نوع الجنس. وهو ما يجعل الرجولة شبه مستتبة. هذا جزء من المفهوم.

ولعل «هاملت»، أمير شكسبير، كان يجسد أسئلة إنسانية عالمية: أن تكون أو لا تكون، يعني أن تكون مثله، ونحن جميعًا نتعلم أن نتواصل معه بما في ذلك النساء. إن تساؤلات هاملت هي تجربة إنسانية، الرجل فيها هو المعيار وتصبح الإنسانية مرادفًا للذكورة، بينما لا تعد الولادة تجربة إنسانية. إنها تجربة أنثوية.

هذه هي الطريقة التي علمونا أن ننظر بها إلى العالم. التجربة الأنثوية دائمًا منفصلة عن التجربة الإنسانية العالمية. لا أحد يقرأ كتبًا عن الولادة كي يفهم الوجود الإنساني. ثم نقرأ مسرحية شكسبير أو كتابًا لأحد أعظم الفلاسفة يشرح فيه كيف ينمو الناس من الأرض مثل عيش الغراب فنشرع على الفور في كتابة عقود المجتمع مع بعضنا.

إنها المرأة فقط التي لديها جنس، أما الرجل فهو إنسان. لا يوجد سوى جنس واحد فقط، والآخر متحول، انعكاسي، مكمل.

في عالم الاقتصاد، يفترض أننا جميعًا أفراد عقلانيون

واستغلاليون وأنانيون ونسعى وراء أقصى ربح ممكن. هذه هي السمات التي لطالما اعتبرت، تقليديًّا، ذكورية، كما نعتبرها أيضًا لاجنسانية. إنها سمات لا جنس لها؛ لأن الرجل لم يكن له جنس قط. وهكذا يصبح الرجل الاقتصادي هو الجنس الوحيد. وفي الوقت نفسه، افترضت النظرية دائمًا أن يكون هناك شخص آخر مسؤول عن الرعاية والمراعاة والانصياع، ومع ذلك فإن كل هذا غير مرئي. إذا كنت تريد أن تكون جزءًا من قصة الاقتصاد، فعليك أن تكون مثل الرجل الاقتصادي. وفي الوقت نفسه، نجد ما نسميه علم الاقتصاد يعتمد دائمًا على قصة مختلفة. كل السمات التي نزعت عن المرأة ونسبت للرجل الاقتصادي كي يكون على ما هو عليه ومن ثم يمكنه القول إنه لا يوجد أحد آخر سواه.

للمرأة نفس قيمة الرجل.

المرأة تكمل الرجل.

المرأة صالحة مثل الرجل.

كل هذه العبارات السابقة، تطرح صورة للمرأة باعتبارها استنساخًا من الذكورة، إما أن تكون المرأة حقيقة «مثله» أو تكون «نقيضه». لكنها دائمًا مرتبطة به:

إما أنها ذات قيمة لأنها مثل الرجل،

أو أنها ذات قيمة لأنها تكمل الرجل.

فالأمر يتعلق دائمًا بالرجل.

وهناك طريقتان في التفكير فيما يتعلق بالنظرة للمرأة. الطريقة الأولى تنظر إلى المرأة باعتبارها قادرة على العمل، والبحث، وممارسة الجنس، والتجشؤ، وإعلان الحرب، والعقلانية، وقيادة المعدات الثقيلة مثله تمامًا. لذلك يجب أن تتمتع بنفس الحقوق والمزايا التي يتمتع بها، ولكن في اللحظة التي تتوقف فيها عن أن تكون «مثله» فلا يمكنها أن تطالب المساواة بين الجنسين.

«إن الحكم لا يعد تمييزًا طالما أنه يعامل الرجال الحوامل والنساء الحوامل على قدم المساوة»، هكذا قالت المحكمة في حيثيات حكم قضية جيلدينج ضد أييلو[124] الشهيرة، التي رفعت أمام المحكمة العليا بالولايات المتحدة في عام 1974 بسبب السياسة التي انتهجها التأمين الصحي، والتي استبعدت النساء الحوامل على وجه التحديد من حق الانتفاع بالتأمين. وأقرت المحكمة بجواز ذلك. ولم تذكر سياسة التأمين الصحي «كلمة النساء»، بل ذكرت «الحوامل». وكان هؤلاء المستبعدون، في جميع الحالات، (ولأسباب يعرفها معظم الناس) من النساء وهو

124- Geduldig v. Aiello عانت أرولين أيلو من إعاقة نتيجة مضاعفات أثناء حملها. لم تكن مؤهلة للحصول على مزايا من صندوق الإعاقة في كاليفورنيا بموجب القسم 2626 من قانون تأمين البطالة في كاليفورنيا. المادة 2626 رفضت دفع استحقاقات المرأة التي نتجت إعاقتها عن الحمل. طعنت أيلو وغيرها من النساء المعوقات اللواتي حرمن من المزايا بموجب المادة 2626 على القانون باعتباره انتهاكًا لبند الحماية المتساوية في التعديل الرابع عشر. قضت محكمة مقاطعة الولايات المتحدة للمنطقة الشمالية من كاليفورنيا بأن القانون غير دستوري. واستأنفت الدولة أمام المحكمة العليا.

شيء عرضي في القضية.

ولا يمكن إدراج المرأة في الفئات التي تحسب اقتصاديًا وسياسيًّا إلا إذا وضعت جسدها جانبًا. وفكرة أن المرأة ذات قيمة لأنها «مثل الرجل» تنطوي على تحرر مشروط.

أما طريقة التفكير الثانية فتعتبر المرأة ذات قيمة لأنها «تكمل الرجل»، إلا أن هذه الفكرة تنطوي على قيود تفوق الطريقة الأولى. ومرة أخرى يوضع تصميم للأنوثة بحيث تكون نوعًا من الذكورة. لا تحتاج المرأة إلى أن تكون مثله، ولكنها تضطر بدلًا من ذلك إلى أن تكون الزوجة اللطيفة التي تمنح العالم التوازن في مواجهة قسوة السوق. والآن يريد الرجل تجريب كل نواحي التجربة الإنسانية التي لم يتحملها من قبل ولكن بطريقة أخرى. لقد أملى المجتمع على المرأة أن تكون كل الصفات التي لم يسمح بها الرجل لنفسه: النعومة، الرقة، الهشاشة، الجسد، العاطفة، الطبيعة، الجانب المظلم الغامض من القمر. إنها مجبرة على أن تكون الجسد، العاطفة، الطبيعة، الذاتية، الخصوصية لأنه ليس كذلك.

وقد حكم عليها بأنها كذلك بسبب طبيعتها البيولوجية.

وهكذا لم تعرف على أساس ما هو عليه، بل على أساس ما هو ليس عليه.

ولكن في كلتا الحالتين هو من يطلق الحكم.

وينبغي على أي امرأة إما أن تثبت فعليًّا أنها مثل الرجل أو أنها يمكن أن تكمله. والأمر لا يتعلق بها أبدًا لأنه لا يوجد سوى جنس واحد فقط.

عندما قام رجل الأعمال المغترب ريتشارد جير باصطحاب جوليا روبرتس إلى الأوبرا في الكوميديا الرومانسية «امرأة جميلة Pretty Woman»، كان مهتمًّا بمراقبة ردود أفعالها تجاه لا ترافياتا[125] أكثر من اهتمامه بالعرض نفسه، فهو لا يمكنه أن يبكي على فيردي إنما يمكنه مشاهدتها وهي تبكي على فيردي. إنه بحاجة إليها في حياته العاطفية، والاستراتيجية الآمنة الوحيدة التي يمكنه التفكير فيها للتعامل مع مشاعره هي القيام بدور مراقب لها. إنها تجعله يشعر بأنه حي وفجأة يتخيل أنه يحبها.

وعبر امتلاكه للمرأة وقهرها، استطاع الرجل الوصول إلى مساحات في أغوار نفسه هو نفسه ينكرها: التبعية، والعواطف،

125- La Traviata وكتبت أوبرا لاترافياتا نصها الأوبرالي فرانشيسكو ماريا بيافي وتعد إحدى المعالجات الفنية للمسرحية الشهيرة «غادة الكاميليا» التي وضعها المؤلف الفرنسي الشهير ألكسندر دوما. وتدور أحداثها أواخر عام 1840 في مدينة باريس وضواحيها حول السيدة الجميلة فيولينا فاليري التي تصاب بالملل من الحياة بسبب مرضها الدائم وشعورها بعبثية الحياة. وتعيش حياة ماجنة حتى تلتقي بـ«ألفريدو العاشق المتيم» الذي أحبها قبل أن تعرفه. ومنحها اهتمامًا لم تره من قبل إلى أن يتدخل القدر في صورة رغبة جيورجيو جيرمونت، والد ألفريدو في إنهاء تلك العلاقة التي تسيء لاسم عائلته. وتضحي فيوليتا من أجل حبيبها الذي يظن أنها تركته من أجل رجل آخر.

والسياق، واللذة، والإذعان. لكن المرأة هي رغم كل هذا إنسان، وليس فردًا. وهو يعرف ذلك بالفعل.

وقد كتبت الشاعرة إديث سودرجران[126] في هذا الصدد: «لقد بحثت عن زهرة فوجدت ثمرة فاكهة. وبحثت عن بركة ووجدت بحرًا. لقد بحثت عن امرأة ووجدت روحًا. أنت محبط».

إنه يعمل ثمانين ساعة في الأسبوع من مكتب بمبنى شاهق، ويتخذ قرارات موضوعية ذات أهمية قصوى لا تمت له بأي صلة. إنه يترك نفسه وراءه بعدما يعلق معطفه في الحمام كل الصباح. لا توجد طريقة أخرى. إنه يستشعر رائحة مرضه في أجساد الأخريات، لذلك فهو يتجنبهن، وهذا لا يعني أنه لا يمارس الجنس معهن، لأنه يفعل. إنه ينساق وراء انجذابه نحو النساء. كل شيء يقطع علاقته به يبحث عنه فيها: طفولته وجسده وحياته الجنسية وشيء آخر لا يمكن أن نعبر عنه في كلمات، ولكن الشيء الوحيد الذي وجده، بعد فترة، هو أن رجلًا آخر يحدق به مرة أخرى بنفس الخوف الذي كان يشك دائمًا أنه يملأ عينيه.

اليوم، نجد أن كل سمة نسميها ذكورية هي إحدى السمات التي تحدد السلوك الاقتصادي: المعزول والعقلاني والموضوعي،

126- Södergran Edith شاعرة فنلندية ناطقة بالسويدية. إحدى أوائل الحداثيين في الأدب باللغة السويدية والتأثيرات لها جاء من الرمزية الفرنسية والتعبيرية الألمانية والمستقبلية الروسية. في سن الـ 24 أنها أصدرت أول مجموعة شعرية بعنوان «Dikter الشعر».

والذي يعرف ما يريد ويخرج ليحصل عليه. ولكن الأمر لا يسير هكذا حتى مع الرجال. فعلى الرغم من ذلك، فقد جعلنا من هذه السمات ليس فقط مثلًا أعلى، ولكننا جعلناها أيضًا مرادفًا للإنسانية.

ويقال إن جميع أفعالنا يمكن اختزالها إلى وعي واحد، وجنس واحد.

وهناك كثيرون انتقدوا منظور الرجل الاقتصادي أحادي البعد من حيث إنه يفتقر تمامًا إلى العمق، والعواطف، وعلم النفس، والتعقيد حسب اعتقادنا. إنه آلة حاسبة بسيطة وأنانية. إنه صورة كاريكاتورية. لماذا نتبع هذا الشكل أحادي البعد من الورق المقوى؟ إنه أمر مثير للسخرية. ما علاقته بنا؟

لا يمكن للرجل الاقتصادي أن يكون مجرد شخصية من الورق المقوى، أو مختل عقلي، أو مصاب هلوسة عشوائية. ولو كان كذلك فلماذا إذًا يغرينا بهذا الشكل؟ ولماذا إذًا نحاول بشدة حصر كل جزء من حياتنا في نطاق رؤيته للعالم، على الرغم من أن البحوث الجماعية تظهر أن هذا النموذج من السلوك البشري لا يتطابق مع الواقع؟

إن اليأس الذي نريد أن ندفع به جميع مناحي حياتنا إلى الخيال، يخبرنا بشيء ما عن هويتنا، وعما نخاف منه. وهذا ما يصعب

علينا الاعتراف به لأنفسنا. وحقيقة أن سلوك الرجل الاقتصادي بسيط بشكل ساخر لا يعني بالضرورة أنه لم يتم استحضاره من صراعات داخلية عميقة.

ثم يقال إن هويته مستقلة تمامًا عن الآخرين. لا يوجد إنسان جُزيرة منعزلة، كما نقول، ونحن نعتقد أن الاستقلال الكامل للرجل الاقتصادي أمر مثير للضحك ورغم ذلك فإننا لم نفهم طبيعته.

لا يمكن بناء هوية بشرية إلا في إطار علاقتها بالآخرين. وسواء أراد الرجل الاقتصادي ذلك أم لا، فهذا ينطبق عليه أيضًا لأن المنافسة أساسية لهويته، فهي هوية تعتمد كليًّا على أشخاص آخرين. فالرجل الاقتصادي مرتبط بشدة بالآخرين إلا أنه مرتبط بهم بطريقة جديدة ملزمة لهم ويستقي منها حتى إيمانه.

إنها المنافسة.

وإذا لم يتنافس الرجل الاقتصادي، فهو لا شيء، وهو بحاجة إلى أشخاص آخرين كي ينافسوه. إنه يعيش في عالم بلا علاقات. يعيش في عالم تختزل فيه جميع العلاقات إلى علاقات تنافسية. إنه عدواني ونرجسي. وهو يعيش في صراع مع نفسه، ومع الطبيعة ومع الآخرين. ويعتقد أن الصراع هو الشيء الوحيد الذي يخلق الحركة.

وهو يريد التحرك، تحركات بلا مخاطرة. هذه هي حياته: مفعمة بالتجارب والمحن والشغف الشديد. إنه رجل هارب.

*

إن الفارق بين إجمالي الإنتاج في الزواج وإجمالي إنتاج شخصين غير متزوجين، يساوي الربح النتاج من الزواج. ويقاس هذا (في كثير من الحالات) بالمسافة الرأسية بين الجزء المرن دائمًا من منحنى الطلب على النساء ومنحنى العرض لنفس الطلب. هذه هي النظريات الاقتصادية حول الحب. إنها صرخة تخيلاتنا من أجل الاستقلال وأحلام السيطرة اليائسة.

لنفترض أنM (الرجل الأول) يحب Kh (المرأة) فإذا كانت رفاهيتها تفيد منفعته الخاصة، وإذا كان Mj يقدر أيضًا التواصل العاطفي والجسدي مع Kh، فسوف يبدو جليًّا أن Mj يمكنه أن يستفيد من شراكته مع Kh. وإذا كانا معًا، فسيكون له تأثير أكبر على رفاهيتها (فهو يداعب رقبتها من أجل المتعة، ويناولها المعلبات التي على أعلى رف في المطبخ ويعانقها ليلًا. وبالتالي، فإنه سيساهم أيضًا في تحقيق منفعته الخاصة)، والسلع التي تقيس «الاتصال» مع Kh يمكن إنتاجها بسعر أرخص مما لو كان كل من Mj وKh يعيشان منفصلين. وحتى لو أن Kh لم يحب Mj، فإنها سوف تستفيد من علاقتها به. ونظرًا لأنه يحبها، فإن رفاهيتها جزء من منفعته الخاصة، لذلك فمن المتوقع أن

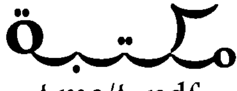
يقوم بتحويل الموارد إليها، مما يزيد من فائدتها، حتى لو كانت لا تحبه.

ويصف الاقتصاديون علاقة الحب بأنها حسابات عقلانية بين شخصين مستقلين. وبهذه الطريقة يتخلصون من كل ما له صلة بعلاقة الحب الفعلية. ثم يقولان إنهما عثرا على الحلول. إنها حلول عقلانية لمشكلات غير عقلانية، وفوضى من الأفكار المحددة. وحتى علاقات الحب الخاصة بنا تخضع لنفس العقلانية الباردة. أصبح كل من المرأة والرجل هو الرجل الاقتصادي. ولدينا دائمًا الصورة الكاملة، ودائمًا ما تكون هناك مسافة ودائمًا ما نكون خارج أنفسنا قليلًا. السيطرة التامة. والأمان التام.

إن الرجل الاقتصادي هو الرجل الأكثر إغراء على وجه الأرض لأنه يستطيع أن يأخذنا بعيدًا عن كل ما يخيفنا: الجسد والعاطفة والتبعية وعدم الأمان والضعف. فهذه الصفات ليست موجودة في عالمه. وتصبح أجسادنا رأس مال بشري، وتختفي التبعية من الوجود، ويصبح العالم متوقعًا.

لا يوجد تباين، ولا ضعف. ولا شيء تخاف منه.

لهذا نحن نتشبث به.



فهو يساعدنا على الهرب من مخاوفنا.

ويصبح المهرب الوحيد من كل ما هو هام ويحمل معنى.

ويحول الرجل الاقتصادي مشاعر الإنسان إلى تفضيلات أي يصبحون مجموعة مجردة من الرغبات، وطلبات في قائمة قد تلبى أو لا تلبى. وهذا يعتمد على ما إذا كان لديك ما يلزم ذلك، ولكنهم مجرد تفضيلات، أشياء لا داعي لأن تقترب منهم أبدًا.

العواطف ليست جزءًا من الكائن البشري. ففي عالمه، نجد العواطف شيئًا نقوم بفرزه وتكديسه وتنظيمه، ويمكن لعاطفة الغضب أن تساعدك في إجراء المفاوضات. إن النشوة المزيفة في السرير هي جزء من «نموذج إشارات عقلانية». الحب يكون عندما تكون رفاهية شخص آخر هي جزء من منفعتك الخاصة؛ فهو يقلل من الخلافات وبالتالي تكاليف العلاقات التي نختار من خلالها إنجاب وتربية الأطفال. وهو ما يعني: ما دمت في عالم الرجل الاقتصادي بما فيه من فوائد، فهناك الكثير مما لا يتعين علينا التعامل معه.

وبنفس الطريقة التي تصبح بها عواطفك مجرد تفضيلات، يختفي جسدك. وهناك رجل اقتصادي يحولها إلى رأس مال بشري. وفجأة يصبح جسدك ليس جزءًا منك بل شيء تملكه. ويصبح الجسد رأس مال يمكن للفرد أن يستخدمه بطرق مختلفة ويستثمر فيه.

هذه النظريات الاقتصادية تضعنا خارج أجسادنا، ويمكنك أن تؤجره أو تبيعه مثله مثل أي مكان آخر. قم بتغييره، استثمر فيه،

وفي النهاية، دعه يموت. ففي النهاية أنت المالك وجسدك رأس مال وهذه هي علاقتكما.

وهكذا نصبح بشرًا على الرغم من أجسادنا، وليس من خلال أجسادنا. وكي نذكرك بالجسد ينبغي أن نذكرك بأن العجز والتبعية المطلقة هما أيضًا جزء من كونك إنسانًا. والجسد يولد من جسد آخر ويترك المولود الجديد المنكمش تحت رحمة محيطه ويموت دون أن يحظى بحب هذا المحيط.

إنه يتوقع كل شيء ويحتاج إلى كل شيء. وسوف يدفعه المرض إلى التبعية، إلى الشيخوخة، وإلى الموت.

ومن ناحية أخرى، يعد موت الرجل الاقتصادي في العالم قرارًا تجاريًا. يمكنك أن تغلقه أو لا تغلقه؟ فهل الفائدة المرجوة من الحياة أكبر من هذا الألم؟ لا داعي للتفكير في الأمر أكثر من ذلك. لا معنى للموت ولا للحياة. فالهدف هو خلق عالم بلا هدف، وهذا يؤلم.

وعندما يتحول الجسد إلى رأس مال بشري، تختفي كل العواقب السياسية المحتملة: الأيدي المرفوعة، والسيقان التي تتحرك، والأصابع التي تشير، والأرضيات التي مسحت والأفواه التي يتم إطعامها. إن اقتصادنا مبني في نهاية المطاف على الأجساد.

إذا تم أخذ الجسد على محمل الجد باعتباره نقطة انطلاق

للاقتصاد، فستكون له عواقب بعيدة المدى. إن المجتمع الذي نظم حول الاحتياجات المشتركة للأجساد البشرية سيكون مجتمعًا مختلفًا تمامًا عن المجتمع الذي نعرفه اليوم. وسيكون الجوع والبرد والمرض ونقص الرعاية الصحية ونقص الغذاء هي شواغل الاقتصاد المحورية. ليس مثل عالم اليوم: فالآثار الجانبية المملة للنظام ستكون هي الممكن الوحيد.

*

إن نظرياتنا الاقتصادية ترفض قبول حقيقة الجسد وتفر منه بكل قوتها. والإنسان يولد صغيرًا وهشًّا، ولو أصيب جسده بآلة حادة سوف ينزف حتمًا بغض النظر عن هويته، وعن المكان الذي أتى منه، وعما يكسبه وعن المكان الذي يعيش فيه. فما هو مشترك بيننا يبدأ بالجسد. نحن نرتجف عندما نشعر بالبرد، ونتعرق عندما نركض، ونبكي عندما نولد ونصرخ عندما ننجب. ومن خلال الجسد يمكننا الوصول إلى الآخرين لذلك فإن الرجل الاقتصادي يمحو الجسد ويدعي أنه ليس موجودًا. ونحن نلاحظ ذلك من خارجه كما لو كان رأس مال أجنبي.

ونحن وحدنا من دونه.

وبالإضافه إلى هروبه من الجسد والعواطف، فإن الرجل الاقتصادي يهرب أيضًا من التبعية. وهذا بالطبع يرجع إلى أن

التعبير عن التبعية يتم غالبًا من خلال الجسد. والرجل الاقتصادي لا يحتاج أبدًا، إنه يريد فقط. وإذا كنا مثله، فلن نشعر أبدًا بالاغتراب ولن نطلب شيئًا أبدًا. وسوف نشعر دائمًا بالاستحقاق ولا يتعين علينا أبدًا التعامل مع العواقب: أن نحصل على شيء دون أن نكون قادرين على سداد ثمنه.

إن كل شيء يسير بسلاسة. وهذا هو المفهوم الوحيد للحرية الذي يمكن للرجل الاقتصادي أن يتخيله، وهو من اخترعه بنفسه. والرجل الاقتصادي هو مهرب من عدم اليقين، وكل شيء يعتمد عليه، وكل شيء يمكن التنبؤ به. ويمكنك حساب حجم الكرة بتقسيمها إلى مستطيلات أصغر وأصغر، أسوةً بالحياة وبتحركات الناس وكذلك بالقوى التي تحفزهم. إن كل شيء يحدث وفق قوانين مجردة. إن الرجل الاقتصادي هو مهرب من الضعف، ونحن أسياد عالم يستجيب لأدنى إشارة تصدر عنا. وفي قصة الاقتصاد، يبدو أن تلك هي المهمة الوحيدة للعالم. إن السوق يفعل دائمًا ما يروق لك، ويلفظ من الذي لا يستحق ويزحف وراء من يستحق.

قصة الرجل الاقتصادي تحمل مشروع الإنسان العقلاني العالم بكل شيء، سيد حياته وسيد العالم. وعندما ننخرط في الاقتصاد العالمي، فإننا نرتدي هذا الثوب. كل شيء آخر ينحسر: الجنس والخلفية والتاريخ والجسد والسياق. والرجل الاقتصادي مهرب

من عدم المساواة، فنحن لسنا فقط من نفس الجنس الواحد ولكن جئنا من نفس الشخص الواحد. وعندئذ سيكون من السهل بالطبع تقديرنا كميًّا والتنبؤ بتصرفاتنا.

الرجل الاقتصادي ليس شخصية من الورق المقوى. إنه ليس صورة كاريكاتيرية. وهو ليس بهذه البساطة.

إنه أحد أعراض جوانب من الواقع يحاول الرجل الاقتصادي القضاء عليها: أي الجسد والعواطف والتبعية وعدم الأمان والضعف. وهي جوانب حقيقة أن المجتمع أخبر المرأة منذ آلاف السنين أنها تنتمي إليها. ويخبرنا أن هذه الجوانب غير موجودة في الرجل الاقتصادي.

لأنه لا يستطيع التعامل معها.

إنه يهرب، ويعذب، ونحن نتعاطف مع كل العمق المذهل لمخاوفه. لهذا السبب فهو يغرينا ويغوينا.

تصبح النظرية الاقتصادية مكانًا نلوذ به ونختبئ فيه، مكانًا يروي فيه المجتمع قصصًا عن نفسه، عن الأشياء التي نطلبها، عن الأشياء التي نخوض فيها والأشياء التي نتحدث عنها فقط.

إنه الجنس الوحيد وخيارنا الوحيد، وعالمنا الوحيد.

الفصل الخامس عشر

وفيه نرى أن أعظم قصة في عصرنا أحادية الجنس

تطرقت الشاعرة موريل روكيسر[127] في إحدى قصائدها إلى أسطورة الملك أوديب اليونانية، التي تحكي كيف قتل أوديب والده عن طريق الخطأ وتزوج أمه وحل لغز أبي الهول الغامض.

ولما اكتشف الحقيقة بعد عدة سنوات من قتله لأبيه وزواجه بأمه، فقأ عينيه من شدة الخزي والعار، وواجه ثانية أبا الهول الذي نجح أوديب في حل لغزه الشهير.

أبو الهول: «لقد أجبت إجابة خاطئة هذه المرة. لذلك حدث ما حدث».

تساءل أوديب العجوز والأعمى: «كيف؟ إنني أجبتك إجابة صحيحة. لقد كنت أول من قال الإجابة الصحيحة».

وكان هذا هو بيت القصيد من هذا الجزء من القصة.

أبو الهول: «لا، عندما سألتك ما هو المخلوق الذي يمشي بأربع أرجل في الصباح، وبرجلين في النهار وبثلاث أرجل في الليل، أجبت، الإنسان. وقلت إن الإنسان يمشي بأربع أرجل وهو طفل في صبح حياته، وبرجلين وهو بالغ، وبثلاث أرجل مع عصا في ليل حياته ولكنك لم تذكرالنساء».

احتج أوديب قائلًا: «لكننا عندما نقول إنسان فإن الكلمة تشمل

127- Muriel Rukeyser شاعرة وناشطة أمريكية (1980 1913-).

النساء أيضًا. والكل يعرف ذلك».

أجاب أبو الهول: «هذا ما تعتقده أنت».

إن الثقافة الغربية مليئة بالأضداد: هل أنت جسد أم روح، عاطفة أم عقل، طبيعة أم ثِقافة، موضوعي أم ذاتي، خاص أم عام؟ وفي الأساس: هل أنت أنثى أم ذكر؟ وكل الصفات التي نقول إنها غير متوفرة لدى الرجل الاقتصادي هي الصفات التي ننسبها، تقليديًّا، إلى المرأة.

الجسد والعاطفة والتبعية والضعف.

*

وكل الخصائص التي كانت توصف لقرون بأنها «ذكورية»، نجحنا في جمعها في شخص واحد. ويقول الاقتصاديون إن ذلك محض مصادفة. فقد تصادف أن الرجل الاقتصادي يبدو هكذا. بالإضافة الي ذلك يمكننا إضافة النساء إلى هذا النموذج إن أردنا. يتم اختزال جميع البشر في الأساس إلى هذا الوعي الاقتصادي المجرد والعقلاني، بغض النظر عن الجنس، بغض النظر عن العرق، بغض النظر عن الثقافة، بغض النظر عن العمر، بغض النظر عن الوضعية الاجتماعية.

بماذا سيفيد هذا النموذج إذا لم يكن به مساواة؟

والحقيقة أن الرجل الاقتصادي وسيلة فعالة لإقصاء النساء.

وتاريخيًّا، أملينا على النساء مهام محددة وقلنا إن عليها أن تؤديها، وبعدها نضع نظرية اقتصادية تقول إن هذه المهام ليست لها أي أهمية اقتصادية، وقلنا للنساء إنه ينبغي عليهن تجسيد قوى دافعة معينة حتى يتوحد المجتمع الذكوري حول: الرعاية والتعاطف والإيثار والمراعاة، وبعدها نضع نظرية اقتصادية تقول إن هذه القوى الدافعة المعينة ليست لها أهمية اقتصادية بالمرة، ونقول في الوقت نفسه إن الاقتصاد هو الأهم على الإطلاق. وترتقي النظرية الاقتصادية إلى مستوى المنطق السائد في المجتمع، ولكن القوى الدافعة التي جعلناها ترمز إلى كل ما هو أنثوي، تبقى بالطبع، وإلا فإن الكل لن يتماسك في كيان واحد أبدًا.

نحن نخلق لغة اقتصادية تجعل من المستحيل التحدث عن الكل.

الشيء الوحيد الذي يمكننا التحدث عنه هو الرجل الاقتصادي. إذا أردنا التحدث عن والدة آدم سميث، فينبغي أن نحولها إلى رجل اقتصادي. وإذا أردنا أن نتحدث عن الفن، فينبغي علينا إعادة المنحوتات واللوحات -وحتى المشاعر التي شعرت بها عند مشاهدتها- إلى السوق كسلع تباع وتشترى. وإذا أردنا أن نكون قادرين على الحديث عن العلاقات، فعلينا تحويلها إلى علاقات تنافسية.

ومن لا يتناسب مع هذه النماذج، لا يلوم إلا نفسه.

والسمة الأساسية للرجل الاقتصادي هي أنه ليس امرأة. الاقتصاد لديه جنسًا واحدًا فقط. ويمكن للمرأة أن تختار بين إما أن تكون مثله أو أن تكون نقيضه، وتستكمل وتحقق التوازن للمَنطق الصعب الذي يتبناه والخاص بالعقلانية والمنفعة الخاصة. لقد اختارت أن تفعل ذلك بنفسها لأن كل ما نقوم به هو نتيجة الاختيار الحر.

ونجد أن الشيء المثير للاهتمام ليس فيما تقوله النظرية عن النساء ولكن فيما يمكن أن تقوله النظرية عن النساء.

اليوم، تدعي النظريات المعيارية للاقتصاد أن النتائج الاقتصادية محايدة من حيث نوع الجنس، وهي تبدو محايدة للغاية عندما يتم التعبير عنها في صورة رياضية مجردة. لكن حقيقة أن الاقتصاديين يقولون إن نوع الجنس غير ذي صلة لا يمنع الأشخاص المعتمدين على نوع الجنس من إيجاد علاقات بنيوية مختلفة تمامًا تفسر الإنتاج والتكاثر والاستهلاك في المجتمع.

وتتمتع النساء بقدرة أقل على التعليم والتكنولوجيا، ونصيبها من المياه النظيفة والرعاية الصحية والضمان الاجتماعي والأسواق المالية هو الأسوأ، كما يجدن صعوبة في الحصول على قروض وفي القيام بمشاريع تجارية، ظروف عمل أسوأ، أجور أسوأ، وظائف أقل

أمانًا، فهم أسوأ لحقوقهم، ومعلومات أسوأ عن القوانين.

ويلعب نوع الجنس دورًا في عالم تشكل النساء فيه 70% من فقراء العالم، بينما تغيب النساء كلية عن النخبة العالمية الجديدة التي نشأت في الطبقة العليا من الاقتصاد العالمي، والتي اكتسبت نفوذًا متزايدًا في عالم الاقتصاد وهيمنت علىٰ الأنظمة السياسية.

كما يلعب نوع الجنس دورًا في عالم تتقاضى فيه المرأة أجورًا متدنية، وتعمل في ظل ظروف سيئة وتؤدي معظم الأعمال غير مدفوعة الأجر، بينما لا يفترض أن يمثل ذلك أي أهمية للنمو ولا يفترض أن يدرج في الإحصائيات التي نقيس من خلالها الأداء الاقتصادي.

ويلعب الجنس دورًا في عالم تفرض فيه الأعراف والثقافة والقيم قيودًا على النساء لمجرد أنهن نساء، بينما تقول العلوم الاقتصادية إن الأعراف والأفكار والثقافة والقيم لا صلة لها بالاقتصاد، بل وتزعم أنه يخلو تمامًا من المعايير والثقافات والقيم المذكورة. إنه تعبير محايد جنسيًّا عن الحقيقة العميقة للجنس البشري، وبكل بساطة.

وحقيقة أن للرجال والنساء سياقات بنيوية مختلفة في الاقتصاد يعني أن السياسات الاقتصادية تؤثر على الرجال والنساء بطرق مختلفة. والنظرية الاقتصادية التي تتجاهل ذلك لن تتمكن من معالجة هذا الوضع ولا حتى من قياسه.

وأحد مشكلات النظام الأبوي هي أنه يقودنا إلى معايير سيئة لقياس الاقتصاد، والقياسات مهمة. ومن يعتقد أن السوق وحده يحل كل المشكلات، فلن يحتاج إلى الإحصاءات الاقتصادية بنفس الطريقة. ويمكن أن يكتفي بالقول إن النظريات الاقتصادية هي أعمال فنية مثيرة للإعجاب: تراكيب رياضية لأسطورة تروق لنا. ومن ناحية أخرى، من يريد استخدام الاقتصاد كي يحقق الأهداف الاجتماعية ينبغي أن يفهم كيف يعمل الاقتصاد. وإذا كنت تريد صورة صحيحة للسوق، على سبيل المثال، فلا يمكنك تجاهل ما يفعله نصف سكان الأرض لنصف الوقت. وإذا لم يدرج عمل المرأة غير المأجور في النماذج الاقتصادية، فلن نفهم أبدًا العلاقة بين العمالة غير مدفوعة الأجر وغير الرسمية وغير المعترف بها من ناحية وبين الفقر وعدم المساواة بين الجنسين من ناحية أخرى. وإذا كنت تريد أن تفهم سبب تطور بلد ما، فلا يمكنك أن تتجاهل كل قواها الدافعة الأخرى باستثناء المنفعة الخاصة والجشع والخوف.

إن النظرية الاقتصادية تمدنا بطريقة نرى بها العالم وتدعي أنها قادرة على تشخيص مشكلة بلد ما، وعلى صياغة شروط طرحها للنقاش العام، وعلى التنبؤ بكيفية تطورها ووصف العلاج.

وذلك لأن النظرية تدعي أنها تمتلك الحقيقة حول الطبيعة البشرية على وجه التحديد.

إذا كان من المفترض أن يلعب الاقتصاد القومي دورًا في حل

مشكلات البشر، فلا يمكنه الاستمرار في التحديق بشكل أعمى في عالم ذكوري خيالي حيث لا يوجد به سوى جنس واحد.

والاقتصاديون أنفسهم يعتقدون أن دورهم يتمثل في تزويد المجتمع بالمعرفة اللازمة لتوجه النظام الاقتصادي، غير أن الأسلاف الأقرب لخبراء الاقتصاد اليوم ليسوا علماء مثل ألبرت أينشتاين أو إسحاق نيوتن. إن الاقتصاديين هم، بحق، ورثة علماء اللاهوت من أمثال القديس *توماس الإكويني*، *ومارتن لوثر*، كما يزعم روبرت إتش. نيلسون[128] في *كتابه: «الاقتصاد كدين Economics as Religion»*.

وحسبما يرى نيلسون، وهو نفسه اقتصادي، كان الدور الأكثر أهمية بالنسبة لخبراء الاقتصاد هو أن يعملوا باعتبارهم رجال العصر الحديث على نشر الاعتقاد بأن التقدم الاقتصادي هو طريق الخلاص.

وقد استخدم رواد العلوم الاقتصادية في مجالهم مصطلحات وعبارات مسيحية صريحة، وكان الشر والألم وحتى الموت في حد ذاته نتيجة لندرة الموارد في العالم. ونحن نسرق لأننا جائعون، ونعاني عندما لا يكون لدينا ما يكفي من المال، وفي النهاية يموت كثير من الناس لأنهم لا يملكون الموارد اللازمة كي يبقوا على قيد الحياة.

---

128 - Robert H. Nelson أستاذ السياسة البيئية في جامعة ماريلاند ومؤلف العديد من الكتب.

ويرى علم الاقتصاد أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يخرج العالم من هذه الحالة قد تمت صياغته بشكل صحيح، ويعيش بشكل صحيح وينفذ مبادئ المجتمع بشكل صحيح. ورأى الاقتصاديون أن دورهم يتمثل في نشر هذه القيم وتقديم طريق للخلاص. واليوم ندرك أن الأمر ليس بهذه البساطة:

فالإنسان يمكن أن يموت من الوحدة، وليس من نقص الغذاء أو الماء فقط.

والطفل الرضيع الذي لم يحمله أو يلمسه أحد لن يبقى حيًّا حتى لو قمت بتلبية احتياجاته المادية.

والأغنياء يسرقون أيضًا، وما عليك سوى أن تسأل المحتالين الكبار من أمثال برنارد مادوف[129].

والمجتمع البشري، عند حد معين من النمو الاقتصادي لا يصبح بالضرورة أكثر سعادة.

ولكن روبرت إتش. نيلسون لا يرى هذا كما لا يرى أن أوجه

129- Bernard Madoff رجل أعمال أمريكي والرئيس السابق بورصة الأوراق المالية نازداك. وقد أسس شركة برنارد ل. مادوف لاستثمار الأوراق المالية. التي تأسست عام 1960. وظل رئيسًا لها حتى يوم 11 ديسمبر 2008. حين أصدر مكتب التحقيقات الفيدرالية ضده اتهامًا رسميًّا بارتكاب أكبر عملية تدليس على المستثمرين يرتكبها فرد في التاريخ وكذلك تهمة التبديد. وكان رئيس بورصة نازداك. وقام القاضي الفيدرالي لويس ل. ستانتون بتجميد الأصول المالية لمادوف, وعين لي ريتشاردز. المحامي من نيويورك كوصي. وبلغت قيمة الأموال التي بددها 50 بليون دولار أمريكي - لتكون من أكبر تهم الغش الموجهة لفرد واحد. على مدى عقود. ويعتبر مادوف من أكبر صناع السوق في وول ستريت. ولديه شركة للاستثمارات التجارية.

قصور الاقتصاد الحديث في وصف الواقع يمثل مشكلة. يجب أن يكون الرجل الاقتصادي خرافة إلا أنها خرافة مفيدة، لأنه يجعلنا نركز على الأشياء الصحيحة.

إن الإيمان الديني بالاقتصاد كعلم يؤدي وظيفة اقتصادية مهمة، حسبما يرى روبرت إتش. نيلسون. وبغض النظر عما إذا كانت نظريات الاقتصاديين حول كيفية عمل الناس والسوق صحيحة أم لا، فإنها تضفي الشرعية على المجتمع وتنظمه حول عدد من القيم الضرورية لنمو الاقتصاد.

وفي ضوء عمله كمستشار سياسي، يذكر نيلسون أن دوره كان يتلخص على وجه التحديد فيما يلي: إقناع صانعي القرار باتخاذ مزيد من القرارات وفقًا للقيم الاقتصادية، لأنه كان يعتقد أن القيم الاقتصادية هي أفضل القيم للمجتمع، وما زال يؤمن بهذا.

ومثل معظم التبشيريين، وعلى الرغم من عدم وجود الله، فإن كثيرًا من علماء اللاهوت قدموا الخير للبشرية. ومن الواضح أن النظريات الاقتصادية أخطأت في كيفية وصفها للعالم والإنسان، وفقًا لنيلسون، غير أن وصفها كان مفيدًا جدًّا للمجتمع. لقد كانت شرطًا أساسيًّا للتنمية على مدار المئتي عام الماضية. وكتب نيلسون أن وجهة النظر القائلة بأن الدين ينبغي أن يجسد «الحقيقة» لكي نؤمن به، هي وجهة نظر غربية. ولا ينبغي تحديد ما إذا كان الدين يستحق أن يتبع ويمارس وفقًا لمدى قربه من

الحقيقة، وينبغي أيضًا الحكم عليه وفقًا لنوع العالم الذي يخلقه.

واليوم نجد أن علم الاقتصاد هو الدين السائد في العالم الغربي. وطالما أننا ما زلنا نؤمن بقوة الاقتصاد، سيكون هناك طلب دائم على الطبقة الكهنوتية التي يمكنها تقديم تفسيرات دينية ورمزية مناسبة.

وحتى إذا لم يعلمنا الاقتصاديون الكثير عن كيفية عمل الاقتصاد في الواقع، فإن الصورة الخيالية التي يرسمونها للسوق هي عمل فني رائع. علاوة على أنها قد منحتنا لغة نناقش بها قضايا الاقتصاد، وهذا إنجاز في حد ذاته، هكذا كتب نيلسون.

وربما كان على حق. وبغض النظر عن وجود دين أم لا، وبغض النظر عن النماذج الرياضية المعقدة التي تستخدمها النظرية الاقتصادية فإنها تحمل في ذاتها قيمًا. ولأنها مختلطة مع الحقائق والافتراضات والمعتقدات الأخلاقية، فإنها تشكل ما نسميه اليوم المنطق الاقتصادي. وبالطبع، فقد ساهمت البيانات المتعلقة بالتضخم والبطالة وكل شيء آخر جمعه الاقتصاديون وحللوه في جعل المجتمع قادرًا على التطور بطريقة استثنائية.

لقد زعموا أن هذه النماذج تجاوزت ذلك بكثير ولكن حدث خطأ ما في مكان ما على الطريق.

ولا توجد كنيسة اقتصادية رسمية، ولا يوجد كهنة مرسمون، ولا

قرارات رسمية بشأن هوية النصوص المقدسة، ولا حتى تعريف نهائي لماهية النظرية الاقتصادية. وفكرة أن منطق السوق يعيش في الطبيعة البشرية هي فكرة نعيشها كل يوم. ونجده قد تغلغل بشكل أعمق وأعمق في الثقافة. ونحن مطالبون بالاستعانة به مرارًا وتكرارًا، وفي المزيد والمزيد من مجالات الحياة.

لذلك فإن التساؤلات حول الرجل الاقتصادي موجهة لكل واحد منا. والمسألة لا تتعلق فقط بالافتراضات التي يمكن للاقتصاد أن يطرحها لتكون أكثر اتساقًا مع الواقع، وبالتالي فهو يمنع نفسه من الإسهام في انهيار الاقتصاد العالمي.

احفظ ماء وجهك، وكن قادرًا على المضي قدمًا.

ويعتبر منطق السوق رائعًا عند استخدامه في تحديد نوع أحمر الشفاه الذي يجب إنتاجه، ولمن يجب إنتاجه، واللون الذي يجب إنتاجه وماذا يجب أن يكلف. وعن ذلك قال الكاتب الأمريكي الساخر إتش. إل. مينكين[130]: حقيقة أن رائحة الورد أفضل من رائحة الملفوف لا تعني أنه يمكن صنع حساء أفضل من الورد. وحقيقة أن منطق السوق يعمل بشكل رائع في بعض المجالات لا يعني أنه يجب نقله إلى جميع المجالات. ومن المؤسف أنه تحول في العقود الأخيرة إلى مشروع تبناه الاقتصاديون.

130- H. L. Mencken صحفي أمريكي وكاتب مقالات وساخر وناقد ثقافي وباحث.

وما نسميه اليوم النظرية الاقتصادية هو نسخة رسمية للنظرة العالمية السائدة في مجتمعاتنا. وأعظم قصة في عصرنا هي: من نحن؟ ولماذا نحن هنا؟ ولماذا نفعل ما نفعله؟

والسمة المميزة للرجل في هذه القصة أنه: ليس امرأة.

الفصل السادس عشر

وفيه نرى أن كل مجتمع يتألم وفقًا لمستوى سخافاته. ونقول وداعًا!

قد تعتقد أنه نوع من السخف، أن تقع ثالث أكبر حديقة ثلجية مغطاة في العالم في دبي، على الخليج الفارسي، عند خط العرض 25 شمالاً حيث تبلغ درجة الحرارة في الخارج نحو 40 درجة مئوية في شهور الصيف الجافة شديدة الرياح، وحيث تنخفض في الشتاء لتصل إلى 23 درجة. ويفتح منتجع التزلج أبوابه للجمهور 12 ساعة على الأقل يوميًّا، على مدار أيام الأسبوع وتبلغ مساحته 22500 متر مربع. يتم استخدام ستة آلاف طن من الثلج على خمسة منحدرات مختلفة، يبلغ أطولها 400 متر وينخفض إلى 60 مترًا. إنه منحدر التزلج الأسود الوحيد في العالم.

إن الفارق بين درجة الحرارة في الخارج ودرجة الحرارة في الداخل يبلغ 32 درجة في المتوسط. أما مقدار الطاقة اللازمة لتبريد المكان فلا يمكنكم تصورها، ومع ذلك، فإننا نسمي ذلك عقلانية اقتصادية. وإذا تساءلنا الآن: كيف يقام منتجع للتزلج في وسط الصحراء؟ إذا أراد الناس دفع ثمن ذلك، فلم لا؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي يمكننا أن نطرحه.

هل الاقتصاد عادل؟ هل الاقتصاد يحسن من جودة الحياة؟ هل يهدر الاقتصاد القدرات البشرية؟ هل الاقتصاد يخلق ما يكفي من الأمن والأمان؟ هل يهدر الاقتصاد موارد الكرة الأرضية؟ هل يخلق الاقتصاد فرصًا كافية للعمل الهادف؟ لا يمكن طرح أي من هذه الأسئلة ضمن المذاهب الاقتصادية السائدة اليوم.

إذا كنت تشكك في الاقتصاد، فأنت تشكك في كيانك، لذلك فأنت شخصيًا تشعر بالاستياء ولا تطرح أسئلة.

واليوم يصنع الاقتصاد الشهية بدلًا من إيجاد حلول للمشكلات. وبينما نجد العالم الغربي متخمًا بالسمنة، نجد الآخرين يتضورون جوعًا. ونجد الأغنياء يهيمون على وجوههم مثلما تهيم الآلهة في كوابيسها، وقد يذهبون للتزلج في الصحراء وليس ضروريًا أن تكون ثريًا جدًا حتى تقوم بذلك. وأولئك الذين كانوا يعانون من الجوع في السابق يحصلون الآن على البطاطس المقلية والكوكاكولا والدهون غير المشبعة والسكريات المكررة ويتضخمون أكثر من غيرهم.

ويقال إنه عندما سئل المهاتما غاندي عن رأيه في الحضارة الغربية، قال: نعم، تبدو فكرة جيدة.

إن مكافآت المصرفيين ومليارات الأوليجاركية هي ظاهرة طبيعية إذًا.

ينبغي على البعض أن يغادروا، وإلا سوف نصبح جميعًا أكثر فقرًا. لقد بلغت خسائر البنوك الأيسلندية بعد الانهيار 100 مليار دولار، كما بلغ الناتج المحلي الإجمالي للبلاد 13 مليارًا. إنها جزيرة بها تضخم مزمن، وعملة قليلة ولا توجد موارد طبيعية تذكر سوى الأسماك والمياه الدافئة فقط. ويمثل اقتصادها ثلث

اقتصاد لوكسمبورغ. وحيث إنهم حصلوا على جزء من التمويل المالي ينبغي أن يكونوا ممتنين مثلهم مثل العروس القبيحة. استمتع وابتلع ولا تشكو عندما ينتهي الأمر. ونجد أن قريحة خبراء الاقتصاد تتفتق عن نفس الأفكار في كل مرة.

وتنمو عوالم أحلام من الإقصاء الاجتماعي التام والاستهلاك اللامتناهي، وعلينا أن ندع هذه العوالم وشأنها ونبقيها على مسافة آمنة من الفقر والتدهور البيئي اللذين ينتشران من حولهم. إنها أكوان بديلة لأشكال مميزة من حياة الإنسان. سوق الأسهم يصعد... سوق الأسهم يهبط.... والدول تخفض سعر العملة وتحرر سعر الصرف، ويتم رصد تحركات السوق لحظة بلحظة.

ولأن بعض الناس يمشون دائمًا في أحذية بالية، فأنت تقوم بترتيب تفضيلاتك كي تتجنب تجربتهم. ولم يعد في الإمكان أن نرى في المستقبل أكثر من رغبة واحدة في كل مرة. لقد ولى التاريخ وتولت الحرية الفرد.

لا يوجد بديل آخر.

و لم يعد الأمر مقتصرًا على أن الشخصية الكاملة للرجل الاقتصادي تتطابق مع كل صفة تعلمنا أن نسميها عبر التاريخ «ذكورية». وتعلمنا أيضًا أن هذه الصفات ينبغي أن تفوق وتسيطر على كل ما نسميه «أنثويًا».

إن الروح أرقى من الجسد ونربطه بها. والعقل أدق من العاطفة ونربطها به. العام أفضل من الخصوصية ونربطها به. الموضوعية أفضل من الذاتية إلا أننا نربط الموضوعية بالرجل الذي يستطيع أن يقف خارج السياق، ويراقب بهدوء دون أن يتأثر بما يراه. إن الثقافة أكثر دقة من الطبيعة ونربطها بها. وطبيعة الأنثى لا تروض وهو يعبدها بقدر ما يخشاها.

وتمثل المرأة الجسد والأرض والسلبية. إنها تابعة، وإنها الطبيعة والرجل عكس ذلك. فهو يخصبها، ويهذبها، ويحرثها ويستخرج منها ويملأها بالمعنى ويحركها كيفما شاء.

أثناء تجواله، يتغلب البطل هوميروس بطل الأوديسة، على الطبيعة والأسطورة وعلى أغنية صفارات الإنذار[131] الخاصة بالنشاط الجنسي الأنثوي، حتى يعود إلى المنزل ويستعيد السلطة الأبوية على زوجته في جزيرة إيثاكا. وقد بني إدراك الذات عند الغرب حول هذه القصص. لقد تعلمنا أن ننظر إلى الجنسين على أنهما نوع من التقسيم الثنائي كما هي الحال في كثير من التقاليد وليس كلها.

131- يعتقد أن صفارات الإنذار تبدو وكأنها مزيج من النساء والطيور بأشكال مختلفة. في الفن اليوناني المبكر، تم تمثيلهم كطيور برؤوس نسائية كبيرة وريش طائر وأقدام قشرية. فيما بعد، تم تمثيلهم على أنهم شخصيات أنثوية بأرجل طيور، بأجنحة أو دون أجنحة. تعزف على مجموعة متنوعة من الآلات الموسيقية، خاصة القيثارات.

وفي العمل الكلاسيكي داوديجنغ[132] الذي كتبه لاو تسه في الصين في نحو عام 600 قبل الميلاد، نجد أن حركات الين واليانغ[133] أدى إلى انبثاقهما معًا. وقال لاو إن الأنثوي والذكوري هما طاقتان تتبعان بعضهما بعضًا في حركة دائرية، حيث لا يمكن تشكيل التسلسل الهرمي أو الثنائية. وفي داوديجنغ لم يتم وصف الين واليانغ على أنهما إما/ أو، وهي النظرة الأبوية التقليدية لهذه القوى، ولكنها وصفت من نواحٍ عديدة كوسيلة لتجاوز التقسيم الثنائي. وما يسمى تقليديًّا «أنثَوي»، أو ين، هو حر ويمكن أن يتبناه جميع الناس بغض النظر عن نوع الجنس. إن الكل في ديمومة التغيير والخلق؛ لا شيء ثابت أو مغلق.

لكن وجهة النظر الخاصة بنوع الجنس هذه ليست سائدة في العالم.

132- Daodejing داوديجنغ أو الداو ذات الكرامة، هو كتاب كتبه مؤسس الديانة الطاوية لاوتسو، وقد اختصر لاوتسو حكمته كلها في هذا الكتاب.. يتضمن الكتاب 81 قصيدة قصيرة تناقش أفكارًا فلسفية.

133- إن فكرة الين واليانغ تقوم على ما لاحظه الصينيون القدماء من المتضادات الكثيرة التي تحيط بالإنسان، حيث إن لهذا المبدأ تأثيرًا كبيرًا على شرق آسيا حتى وقتنا هذا. فالين واليانغ هما كلمتان تحملان معنى التضاد بين الطاقات المختلفة، وتعبر عن الازدواجية الثنائية في الكون والتي تبنى على أن لكل شيء ما يقابله ويكامله في الوقت نفسه. وداخل الدائرة يوجد قسمان الأسود وبداخله دائرة بيضاء «الين» والأبيض وبداخله دائرة سوداء «اليانغ» والخط الفاصل بينهما يعمل على إبقائهما متحركين ومتغيرين، ولكن ليس لأي منهما وجود مطلق دون الآخر بل هناك تداخل بينهما وتكامل دائمًا بين الأبيض والأسود مما يشير إلى أن أي أمر سيئ يقابله أمر جيد والعكس صحيح، كما يشير أيضًا إلى أنه لا يوجد شيء مطلق وأن الأبيض قد يتخلله بعض من الأسود والأسود قد يتخلله بعض من الأبيض. ومن أهم الظواهر التي يتم تفسيرها في ضوء نظرية الين واليانغ هي: الليل والنهار، الذكر والأنثى، الصيف والشتاء، الحياة والموت.... إلخ.

إن ما ترتبط به الأنثى يتم ترسيخه غالبًا على أنه كل ما يخضع للذكر. ولا بد من ترويض الطبيعة بالثقافة، ولا بد من تهذيب الجسد بالروح. وأولئك الذين يتمتعون بالاستقلالية يجب أن يهتموا بما هو تابع، والإيجابي لا بد أن يخترق السلبي، الرجل ينتج، المرأة تستهلك، لذلك عليه أن يقرر لأن الأمر بديهي.

والنظريات الاقتصادية هي استمرار لنفس القصة وامتداد لها. فالرجل الاقتصادي يسيطر بحكم رجولته. وبنفس الطريقة يجوز السماح لأرباح الشركات بالسيطرة على جميع الطموحات الأخرى في الاقتصاد. ويصبح العدل والمساواة والرعاية والبيئة والثقة والصحة البدنية والعقلية مرؤوسين خاضعين لأن هناك نظرية اقتصادية يمكن أن تبرر ذلك، وهو ما قد يفسر سبب عدم جواز أي شيء آخر على الرغم من أننا نعلم أن هذا يعد ضربًا من الجنون.

لذلك، وبدلًا من اعتبار العدالة والمساواة والرعاية والبيئة والثقة والصحة البدنية والعقلية أطرافًا أساسية في المعادلة التي تخلق قيمة اقتصادية، يتم ترسيخهم على أنهم أشياء قائمة على ما هو نقيض القيمة الاقتصادية. وإذا كنت تريد ذلك، فعليك التنازل عما هو مهم، ألا وهو الرجل الاقتصادي.

وكمجتمع، لا يوجد أهم من تنظيم الاقتصاد بحيث يستمر مستوى المعيشة في الصعود. وتلك مسألة تختلف تمامًا عن إخضاع جميع القيم المجتمعية لدافعي الربح والمنافسة.

إننا نقول إن موارد العالم محدودة. الطبيعة ثابتة، شحيحة وعدائية، وبالتالي ينبغي أن نتنافس مع بعضنا. فمن هذه المنافسة تتولد كل الطاقات التي تحرك النظام الاقتصادي وتغذيه، وهذا ما يضع عشاءك على الطاولة ويحدد سعر كل شيء من الفطائر حتى أطفال الأنابيب.

إن أشهر تعريف للاقتصاد صاغه ليونيل روبنز[134] في عام 1932. ووفقًا له، فإن الاقتصاد هو: «العلم الذي يدرس السلوك البشري باعتباره علاقة بين الأهداف والموارد الشحيحة التي لها استخدامات بديلة». والطبيعة الشحيحة العدائية تتلاعب برجل يتمتع بشهية غير محدودة وحرية اختيار تامة. وهذه القصة تمس مفاهيمنا القديمة عن الرجل الذي ينبغي أن يهيمن على الطبيعة الأنثوية بفكره ويهزمها. إنه يرغب فيها ويخشاها في آن واحد.

وتتنبأ الخبيرة الاقتصادية جولي نيلسون بأن العالم سيختلف إذا قمنا، على سبيل المثال، بتعريف علم الاقتصاد على أنه: «العلم الذي يدرس كيف يفي الإنسان بمسؤولياته ويستمتع بالحياة بمساعدة عطايا الطبيعة السخية».

وهنا، نجد أن الطبيعة ليست تكميلية ولكنها شرط أساسي. إنها مرنة وسخية وودودة للغاية. وعلاقتنا بها ليس أن تأخذ كل شيء

134- Lionel Robbins اقتصادي وسياسي بريطاني (1898- 1984).

قبل أن يأخذه –غيرك– لكن الطبيعة جزء من نفس الكل، مثلنا.

وبوسعنا أن ننتقد الرجل الاقتصادي كما نشاء. وطالما أننا لا نرى أنه نظرية جنسانية للعالم تقوم على خوفنا الجماعي من «الأنثى» فلن نكون أحرارًا أبدًا.

وبعد آلاف السنين من اضطهاد المرأة ومن الازدواجية، يمكننا –كمجتمع– أن نتعاطف معه تمامًا، مع مشاعره العميقة، مع خوفه من الضعف، ومن الطبيعة، ومن العواطف، ومن التبعية، ومن تكرار الأشياء ودوريتها ومن كل ما لا نفهمه. إنها قصة مجتمعنا.

إنه الهروب اليائس من جوانب من إنسانيتنا نخشى أن نمسها.

وإذا أردنا الاستمرار في الهروب، فنحن بحاجة إلى الرجل الاقتصادي أكثر من الهواء الذي نتنفسه.

والطريقة التي ننظر بها إلى البشر وتصرفاتهم من منظور الاقتصاد تقول الكثير عن الطريقة التي نرى بها أنفسنا.

دائمًا ما تكمن أصل الظواهر الاقتصادية في تصرفات الناس: اذهب إلى المتجر، اشتر الملابس الداخلية، خطط لبناء جسر جديد، وازرع شجرة، وانظر إلى الجار وتمنَّ الحصول على سيارة مثل سيارته. غير أن الاقتصاديين يقدمون دائمًا هذه الوثائق بناء على الواقع الإحصائي التالي: سعر السوق، والناتج المحلي الإجمالي للدولة، وتطور الاستهلاك وما إلى ذلك.

ومن المفترض أن هذا الواقع الإحصائي ينبثق مما يفعله الفاعلون وصولاً إلى المستوى الجزئي الأدق، وبالتالي يتطلب الاقتصاد نوعًا من الفهم لكيفية تصرف الناس اقتصاديًا. من هو هذا الشخص أي المرأة، ولماذا تفعل ما تفعله، وكيف ترتبط بالقصة التي ألفوها عنها وعن أي شخص آخر يسهم في رسم منحنى الناتج المحلي الإجمالي في الصفحة الرابعة في عرض تقديمي لوزير المالية؟

وهذه واحدة من إشكاليات هذه القصة. وهناك المزيد.

إن كل مجموعة من الافتراضات حول الإنسان في الاقتصاد ستكون دائمًا مجرد تبسيط. هل نحن بحاجة حقًّا إلى معرفة من نحن لفهم الاقتصاد؟ ربما لا، لكننا بالتأكيد لن نفهم الاقتصاد من خلال بذل كل ما في وسعنا للهروب من هذا السؤال تحديدًا.

وهذه هي وظيفة الرجل الاقتصادي نفسه: الهروب، وإنكار الجسد والعاطفة والتبعية والسياق. بالإضافة إلى المسؤولية عن الكل الذي نحن جزء منه، وعن كل ما نرفض القبول به في الإنسانية التي ننتمي إليها.

ولقرون، كانت التبعية وصمة عار.

لقد كانت شيئًا مرتبطًا بالعبيد والنساء. ولما طالب الرجال من الطبقة العاملة بالحق في التصويت، فإنهم فعلوا ذلك بحجة أنهم

مستقلون أيضًا.

وفي السابق، كان يتم تعريف الاستقلال في ضوء الملكية. وأولئك الذين كانوا يملكون كانوا مستقلين.

وأولئك الذين عملوا في خدمة شخص آخر كانوا تابعين.

لكن الحركة العمالية أعادت تعريف ما كان يطلق عليه في السابق «عبودية الأجور» ليكون: «مصدر فخر». وتجسد الاستقلال في صورة الحصول على وظيفة براتب يعيل الرجل من خلالها أسرته. وهكذا يكون المرء قد قام بواجبه وبالتالي يمكنه أن يطالب بالحقوق.

إلا أن المرأة لم تستطع القيام بذلك؛ لأنها كانت لا تزال تابعة.

ومن أجل أن يكون رجلًا من الطبقة العاملة، ومن أجل أن يكون «مستقلًّا» من خلال العمل بدوام كامل، كان عليه الاعتماد على المرأة في رعاية المنزل إلا أن قصة الاقتصاد لم تحكِه، مثلما لم يحكِ لنا آدم سميث شيئًا عن والدته.

وما كان يعد تبعية وطفيلية كان دائمًا قضية سياسية.

وفي حقبة الثمانينيات، قال الأطباء النفسيون في الولايات المتحدة، إن الأشخاص الذين يعانون من اضطراب معين في الشخصية يرجع إلى أنهم تابعون. لقد كان الأمر مروعًا وهؤلاء

الضحايا لم يتمكنوا من إعالة أنفسهم. ولكن إذا كانوا موجودين بالفعل، فسوف تتأثر البشرية جمعاء. فنحن جميعًا تابعون، وبالتالي فإن مهمة المجتمع لا يمكن أن تتمثل في فصل المنتجين عن المستهلكين.

نحن جميعًا نحمل التزامات تجاه بعضنا وكذلك تجاه أنفسنا. وأيًّا كان ما نتخيله، فنحن جزء من كل شيء. ونحن بحاجة إلى طرق للتحدث عن ذلك بعضنا مع بعض.

واليوم، ليس هناك مكان في الاقتصاد لتجربة الإنسان الحقيقية. فالنظريات تستند إلى شخصية خيالية أهم صفاتها أنها ليست امرأة.

وقد يعتقد المرء أن الاقتصاديين يجب أن يكرسوا أنفسهم لإيجاد حلول للإشكاليات المعقدة للغاية التي تواجه البشرية إلا أنهم، وبدلًا من ذلك، يحدقون بشكل أعمى في افتراضاتهم الخاصة حول الطبيعة الذكورية التي لا يمتلكها حتى الرجال.

نحن نحكم العالم من مكان حيث لا نعرف من نحن.

يقال إن كل هذا شيء يجب أن ينقسم إلى أصغر أجزائه وأنه لن يكون مفهومًا إلا إذا تم فصله عن كل شيء آخر باستثناء المنافسة. هذه النظرة للعالم تجعل من الصعب وضع الأمور التي تعتبر مهمة حقًّا في الاعتبار.

لا تساعدنا النظريات الاقتصادية على فهم ما إذا كانت الخيارات

التي نتخذها كل يوم تعني شيئًا للجميع وللمجتمع، أو حتى للمستقبل الذي نتركه وراءنا حتمًا، بغض النظر عن مدى تظاهرنا بأن تصرفاتنا هي نبضات معزولة ومنفصلة في فراغ خاوٍ.

وبدلًا من ذلك، ينبغي أن يساعدنا الاقتصاديون على فهم من نحن من خلال بناء أدوات وأساليب لتنظيم مجتمع توجد به مساحة تستوعب التجربة البشرية بأكملها. وهذا هو الشيء الوحيد الذي يمكننا من خلاله فهم الآخرين.

إذا فهمنا رغباتنا بشكل أفضل، فلعلنا نفهم أيضًا أنه لا يمكن إشباعها بالطريقة التي نتصورها: عمل مفرط، تحفيز مفرط، إنفاق مفرط، بلا بدائل. ومع كل الاختيارات المتاحة في العالم نجد: الائتمان والديون والخوف والجشع. وإذا كنت تجري فذلك لا يعني أنك لا تجري في دوائر مفرغة، أسرع وأسرع. هناك حلم واحد بالانفصال التام. وينتهي العالم من حيث بدأ، ويضرب بقوة ويصرخ من أجل المزيد. ويحاول الجميع أن يستحوذوا عليك، لذلك أنت تنفذ ما يقولون، ولذلك تستيقظ كل صباح، ولذلك تدفع الفواتير وتحتفظ بالإيصالات. وباتت التوقعات مجرد ألم مفخخ، وبراهين واهنة تسمح بمرور الظلام.

إذا أردت أن تأكل العسل فلا تقتل كل النحل. فالسوق يعيش في الطبيعة البشرية، وكل مجتمع يعاني بما يتماشى مع مستوى سخافاته.

ينبغي أن يساعدنا علم الاقتصاد كي نتجاوز الخوف والجشع. ولا ينبغي لهذه العواطف أن تستغل.

ينبغي أن يدور علم الاقتصاد حول كيفية تحويل الرؤية الاجتماعية إلى نظام اقتصادي عصري.

ينبغي أن يكون أداة لخلق فرص للإنسان والتنمية الاجتماعية، ولا ينبغي أن يكتفي بمخاطبة مخاوفنا التي يتم التعبير عنها كطلب في السوق.

ينبغي أن يعالج علم الاقتصاد قضايا محددة تمثل أهمية للبشرية، ولا ينبغي أن يطرح تحليلات مجردة للخيارات الافتراضية.

ينبغي أن يرى علم الاقتصاد الناس ككائنات عقلانية وليس مجرد مقطورات تجرها تبعات عقلانية قسرية لا مفر منها.

ينبغي أن يرى علم الاقتصاد الناس كجزء لا يتجزأ من المجتمعات لا كأفراد لا يتغير جوهرهم أبدًا ويطفون في فراغ خاوٍ على مسافة ذراع.

ينبغي أن ينظر علم الاقتصاد إلى العلاقات على أنها جوهرية بالنسبة لنا كي نتمكن من أن نطور أنفسنا لا على أنها شيء يمكن اختزاله إلى المنافسة والربح والخسارة والشراء بسعر منخفض والبيع بسعر مرتفع ومعرفة من الرابح.

ينبغي أن ينظر علم الاقتصاد إلى الإنسان على أنه شخص يتصرف وفقًا لعلاقاته وصلاته بالآخرين وليس وفقًا للمنفعة الخاصة وإنكار كل السياقات وعلاقات القوى.

لا ينبغي أن يرى علم الاقتصاد المنفعة الخاصة والإيثار على أنهما متضادان، فلا ينبغي له بعد الآن اعتبار العالم الخارجي شيئًا يتعارض مع ذاته.

وكتب الشاعر وي وو وي[135] في إحدى قصائده:

لماذا أنت غير سعيد؟

لأن 99.9 بالمئة

من كل ما تعتقده

ومن كل ما تفعله

هو لنفسك

ولا يوجد شيء من هذا القبيل.

وبدلًا من الهروب من الضعف، يمكننا الاعتراف بأنه جزء من طبيعتنا كبشر. ففي الجسد يبدأ كل ما لدينا من قواسم مشتركة وهذا مهم.

135- Wei Wu Wei هو اسم مستعار للمنتج المسرحي تيرنس جيمس ستانوس الذي ابتكر مسرح كامبريدج فيستيفال كمسرح تجريبي في كامبريدج. أنتج أكثر من 100 مسرحية هناك بين عامي 1926 و1933. وفي وقت لاحق نشر العديد من الكتب حول الفلسفة الطاوية.

وبدلًا من بناء العواطف عوضًا عن العقلانية، يمكن أن نبدي اهتمامًا بكيفية اتخاذ البشر للقرارات حقًّا.

وبدلًا من تحويل كل الناس إلى نفس الوعي المجرد، يمكننا قبول الاختلاف.

لن تحتاج علاقاتنا إلى التنافس. ولن يكن من الضروري اعتبار الطبيعة مناظرة للعدو. وسيكون بوسعنا الاعتراف بأن المجموع أكبر من الأجزاء التراكبية، وأن العالم ليس آلة أو أداء ميكانيكيًّا عملاقًا. ومن ثم علينا التخلص من الرجل الاقتصادي وتحرير أنفسنا منه. وسوف تطلق صرخات الفشل بطرقٍ عديدة لكن لن يكون ضروريًّا أن تصبح تلك النظرة إحدى هذه الصرخات. وسيكون من الممكن تغيير هدف الرحلة. وسوف يكون من الممكن أن ننتقل من محاولة امتلاك العالم، إلى محاولة الانتماء إليه.

وهنا يكمن الفارق. أن تملك يعني أن تقتني. أن تقبض بيدك على شيء ميت وتقول: «هذا ملكي». عندما تنتمي، لن تضطر أبدًا إلى قول: «هذا ملكي».

لأنك تعلم أنه ليس كذلك.

وهذا سيحدث عندما تخلع حذاءك، وتكون مستعدًّا لأن تتمهل قليلًا.

"مرافعة نسوية شاملة وجذابة، كتاب مثير للاهتمام"

The New York Times

يقدم الكتاب الذي بين أيدينا مدخلًا نسويًا لمساءلة علم الاقتصاد السياسي، وتبحث المؤلفة -التي فازت بجوائز مرموقة عن هذا العمل- دور عمل النساء غير المدفوع في المنزل في الاقتصاد مجادلة بأن القيمة المنتجة عبر هذا العمل تم إهمال حسابها عن عمد من قبل الاقتصاديين.

قام آدم سميث عالم الاقتصاد البريطاني الأشهر، وصاحب الكتاب الشهير "ثروة الأمم"، بتأسيس أحد المفاهيم السائدة في الفكر الاقتصادي حتى اليوم، وهو مفهوم "الإنسان الاقتصادي".

وعبر طرحها لسؤال: من قام بطهي عشاء آدم سميث؟ تشرح أنه إذا كان الجزار والفلاح وغيرهما يحصلون على أجر مقابل مساهمتهم في تحضير عشاء أي رجل، فإن أمّه/ زوجته هي التي تقوم بكل ما تتطلبه المرحلة الأخيرة من إعداد الوجبة وتقديمها دون مقابل.

كتاب جريء.. ممتع.. ويعد من أفضل الكتب التي تربط الاقتصاد بالأفكار النسوية.

كاترين ماركيل: صحفية وكاتبة سويدية من مواليد عام 1983، تكتب مقالات في السياسة والاقتصاد والنسوية وعادة ما تكتب افتتاحية صحيفة أفتونبلاديت السويدية. فاز كتابها "من قام بطهي عشاء آدم سميث؟"، بعدة جوائز وحقق نجاحًا عالميًا، وهي تعيش في لندن.



